Princeton University Library
32101 057496992

Princeton University Library

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

الجزء الأول

التفسير

لكتاب الله المنير

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة نفيسة من الأبحاث الفقهية
والكلامية والتاريخية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية بصورة رائعة

بقلم محمد الكرمي

حقوق الطبع محفوظة

طبع في المطبعة العلمية قم

سنة ١٤٠٢ هـ

Daftar
inv.# 73/1/1012

Karami

الجزء الأول

التفسير
لكتاب الله المنير

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة نفيسة من الأبحاث الفقهية
والكلامية والتاريخية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية بصورة رائعة

بقلم محمد الكرمي

حقوق الطبع محفوظة

طبع في المطبعة العلمية قم

سنة ١٤٠٢ هـ

(RECAP)
BP130
.4
.K376
1981
juz' 1

بسم الله الرحمن الرحيـــم

و الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على انبيائه المرسليـن لا سيّما محمّد سيد النبيّين و آله الميامين ·

وبعد ففى هذا الكتاب الذى تستعرضه ببصرك اوّلا لينفذ منه الـى بصيرتك مجموعة ابحاث قام بنائها على تركيز الحياة وفق الاصول الحيوية الصحيحة التى ارشد اليها الله تعالى و دعاة طريقه تعزيزا لبدائــع العقول وكان المحور الذى تدور حواليه هو القرآن الكريم الذى أنزلـه منزّله ليكون قانونا مصونا تمشى على ضوئه اجيال البشرية و انما تخصصنـا بالمباحث الحيوية الاجتماعية لأنها الرصيد الأوّل لأفراد البشر ومـــا سواها فعلى الهامش منها و سوف تقرأ فى هذا التفسير الوانا مـــن النكات و انواعا من الفوائد التى مخضت سيرة الكون و طلعت بصفـــوه كباقة من زهور تهش لها النفوس و يهفو لها النظر و به نستعين ·

محمّد الكرمــى

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL
32101 024752105

1503 .9400 362770 R1451674

(ما هو القرآن و ماهى ركائز عظمته)

اما القرآن فى اللّغة فهو مصدر بمعنى الجمع يقال قرأت الشىء قرآنا اذا جمعته و بمعنى القراءة ايضا يقال قرأت الكتاب قراءة و قرآنا و مآل المعنى الثانى الى الاول لاتحاد الاصل فيهما: ثم نقل الى هذا المجموع المقروء المنزل على نبىّ الاسلام (ص) .

و اما ركائز عظمته فعدّة امور :

(الاول) الفاظه و كلمه و هى على انها كثرات مهمّة فقد تميزت عمّا سواها بالنزاهة و الشرافة و الانسجام و المتانة و الرزانة و هذه الميزات معدومة فى الكثرات اللفظية فأننا نجد كبار الناطقين بلغة الضاد انمّا يستطيعون ان يجمعوا هذه الحسنات لالفاظهم اذا تحددت فى اطار صغير كأبيات او مقاطيع من الشعر وكلمات موجزة من النثر و اما اذا امتدت بهم جوانب القول كثر فى كلامهم الوحشى و التقطيع و الاقتضاب حتى انك تجد اللفظة السالمة من الموهنات فى خلال كلامهم كالشامة الصغيرة فى الوجه العريض ودونك فاقرأ المعلقات السبع وغيرها مما شئت تجد مصداق ذلك واضحا بجلاء ولا تجد من ذلك اثرا فى الفاظ القرآن على تكثرها .

(الثانى) صوغه و تركيبه وفى هذه المرحلة تتجلى عظمة القرآن فوق حدود التصور ففيه من الاستعارات و الكنايات و التشبيهات و سائر المحسنات اللفظية و المعنوية السلسة من الكثرة و البداعة و البراعة ما لا نظير له بالمرة فى مجموع مثله و كل آيات القرآن شاهدة لهذه الدعوى وفيما يجىء فى غضون بحوث التفسير بلغة وافية .

(الثالث) براهينه و حججه التى تساق لاثبات المطالب فانها فوق

حدود الوصف فقد جمعت بين سلاسة التعبير و وضوح البيان و متانة الدليل و البرهان و هذا المطلب اعجز مهرة الفلاسفة و المتكلمين فأنهم متى قويت براهينهم و استحكمت موازينهم وقع السامع منهم في عويص مشكلات التعابير حتى يحتاج اهل الدربة في الفن الى اساتذة خبراء في كشف مقاصدهم و تذليل صعاب كلماتهم و ستقرأ في غضون التفسير ما تقف معه على جلية هذه الدعوى ·

(الرابع) ارشاداته وعظاته فأن المستمع اذا اعاره سمعه و توجه اليه بقلبه اخذه الخشوع لمضامينه و الخضوع لتعاليمه بما لا يحصل له هذا المطلب في اعاظم الوعاظ في اعظم حفلاتهم ·

(الخامس) تقاريره و نظمه فأن الذى يناسب بينها و بين النظم الدارجة في عصر نزوله سواء في الشعوب العائشة على عقلياتها وضمائرها ام على مبادئها الدينية وعقائدها بل و هكذا اذا ناسب بينها و بين اجدّ المبادئ الحيوية في هذه العصور و جد لها بعد الدقة و التمكن من احكام الطريقتين مزايا عريقة في الواقع عميقة في الحقيقة ·

(السادس) حكمياته و امثاله فأن فيه من الحكم و الامثال ما يهيمن على اعصى النفوس و اعتى العواطف و ما اكثر امثاله و حكمياته في المناسبات التى هو بصددها ·

(السابع) تواريخه و سيره و في القرآن تاريخ كثير و في غيره من الكتب المنسوبة للسماء كذلك الا ان له من الميزات على غيره انه يجمع في كلمات ما يسرده غيره في صفحات وان سرده لذلك من اجل العبرة و تثبيت الحكمة لا لافادة قصّة بما هي قصّة و خلوه عن الشطح و النسب الساقطة كما يوجد في غيره كثيرا ·

فهذه الاصول السبعة التى تنزوى و تنطوى تحتها فروع جمّة من

خصائص هذا المجموع و نحن ذكرناها بنحو عناوين بسيطة لالفات النظر لا اكثر و نحيل بتفاصيلها الى البحوث التى ندونها فى تفسيرنا للآيات آية آية و الله نسأل فى تسديدنا و تأييدنا انه قريب مجيب .

ثم ان القرآن كما تشهد به مضامينه لم ينزل مرة واحدة و ذلك لان الملابسات الزمنية التى واكبت الرسالة الاسلامية لم تكن على لون واحد كما هو طبيعة كل زمنى يتخطى الزمان آنا بعد آن و كما نصت عليه السيرة النبوية بل كانت ذات شؤن و الوان و نزول القرآن واكب هذه الاطوار و الادوار كما يشار الى ذلك فى غضون التفسير و توزيعه على السور و الآيات سماوىّ يدلّ عليه سياقه اجمالا و عززته السنة الواردة عمنّ انزل عليه هذا الكتاب الكريم و عن آله حضنة الوحى .

و هكذا دلّ سياقه على مكيّه و مدنيّه فالسور التى تتضمن الدعوة الى التوحيد والايمان بالنبى و المعاد الجسمانى وتندّد بالأصنام وعبدتها و تشيد ببدائع الخلقة و روائع الكائنات مكية لان دور مكة كان دور تركيز وتثبيت لاصل العقيدة و السور التى تتضمن فى غالبها الاحكام الشرعية و الحث على الجهاد و توجيه النبىّ فيما يلزم ان يفعله مع الناس مدنية لان المدينة كانت دار تشريع و جهاد و فعاليات قوية فى نشر الشريعة و تطبيقها و نحن قد طولنا القول على هذا الباب فى بحث واسع نمقناه فى كتابنا الجليل نتائج الفكر عند بحثنا عن السيرة النبوية فراجعه اذا شئت .

* (سورة فاتحة الكتاب) *

مكّية وآياتها سبع: وفاتحة الشيء اوّله فأن كل شيء قبل اظهاره مغطّى مستور مسدود فأبراز اوّله فتح له فلما افتتحت المصاحف بكتابتها سميت بالفاتحة وتسمى امّ الكتاب ايضا لان كلمة الأمّ تطلق على ما جمع الاصول الرئيسية للشيء وسورة الحمد كذلك فى مضامينها من بيان صفات الربّ تعالى وكيفية اظهار العبودية الصادقة من العبد للمعبود والدعاء بالهداية الى الطرق القويمة اصول رئيسية لكثير ممّا فى القرآن المجيد من المضامين العالية كما تسمى السبع المثانى لانها سبع آيات تثنى فى كل صلاة .

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

اتفق الامامية على ان البسملة آية من سورة الحمد ومن كل سورة ووافقهم على ذلك قرّاء مكّة والكوفة وفقهاءهما وعليه الشافعى واصحابه وقالوا قد اثبتها السلف فى المصحف .

أمّا قرّاء المدينة والبصرة والشام وفقهاءها فأنهم يرون ان التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور وانما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها : وتخلقا باخلاق الله قال النبىّ الاكرم كل امرخطير ذى بال لا يبدأ فيه بأسم الله فهو ابتر : وحرف الجر متعلق بفعل محذوف يدل عليه حال المتكلم وهو ابتدأ .

والاسم من الكلمات المحذوفة الاعجاز كيد ودم واصله سمو لان جمعه اسماء كقنو واقناء وحنو واحناء وتصغيره سمي واشتقاقه من السمو لان التسمية اشادة بذكر المسمى وقيل هو من السمة بمعنى العلامه : والله اصله الألاه فحذفت الهمزة من اله حذفا من غير قياس

وعوّض عنها حرف التعريف وادغمت اللام باللام وكلمة الاله من اسماء الأجناس كالجمل والفرس ومعناه المعبود بحق كان ام باطل ثم غلب على المعبود بالحق وبعد التعويض والادغام صار علما شخصيا لواجب الوجود : منشأ اشتقاقه قيل من الوله وهو التحيّر لان الاوهام تتحيّر فى معرفة المعبود وتدهش وقيل انّه من قولهم الهت الى فلان بمعنى فزعت اليه وقيل من الهت اليه اذا سكنت اليه : الى غير ذلك ·

والرحمن الرحيم : من صيغ المبالغة واشتقاقهما من الرحمة قيل وفى الرحمن من المبالغة ماليس فى الرحيم حتى يكون مجال للجمع بين الصيغتين ومن اجل هذا التفاوت قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا : وامّا التعليل لذلك بأن زيادة المبانى تدل على زيادة المعانى فلا عموم فيه فان من صيغ المبالغه (فعل) كحذر وهو اقلّ فى المبانى من صيغه الفاعل فينبغى ان تكون صيغة المبالغة اقلّ معنى وهو خلاف الواقع: ثم البسملة فى عالم العقائد معناها التفأل للغرض المقصود بمن بيده ازمة الأمور كلها وهو واجب الوجود علة كلّ ماسواه وهذا الهدف وأن كان يؤمّن بلفظ الجلالة وحده حيث يقال باسم اللّه ولازمه عدم الحاجة الى ضمّ ضميمة لكن المنظور بالتفأل هنا ليس هو وحده بل مشفوعا بالدعاء والرجاء لأنجاز المقصد والذى يلائم هذه النيّة هو ضمّ صفة الرحمة للرب تعالى فان الحاق هذه الصفة به دون سائر صفاته معناه حسن التوسل اليه تعالى وجلب توجهه الى عبده على الأخص بتثنية صفة الرحمن بصفة الرحيم المفيدة للتأكد بالتكرير وعلى غرار الشرائع المقدسة التى جعلت شعارها الابتداء باسم اللّه لكل مطلب تقوم به علما كان ام عملا مشى الباقون الذين لا يهمّهم من امر

الله ما يهمّهم من امر من يتملقون اليه فيقولون باسم فلان استحمارا له بالتنويه اللفظى به .

* (الحمد لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم) *

و الحمد و المدح اخوان فيقال فلان حمد فلانا لفصاحته و حسن سجاياه و مدحه كما يقال حمده و مدحه لأنعامه عليه فموضوع الحمد و المدح اعمّ من الشكر لأن الشكر لا يقال الا فى مقابل نعمة و نقيض الحمد الذّم و المدح الهجاء و الشكر الكفران و اداة المدح و الحمد اللسان فقط و امّا الشكر فيكون بالقلب و اللسان و الجوارح و على هذا الحساب قال من قال :

أفادتكم النعماء منّى ثلاثة يدى و لسانى و الضمير المحجّبا

و الربّ وان قيل على معانى كالسيد المطاع و المالك و الصاحب الا انه فى الجميع بمعنى متقارب وهو صاحب الشئ المؤثر فيه و اطلاق الرب ينصرف الى الله سبحانه و متى اطلق على غيره و جب تقييده بالاضافة فيقال رب الدار و رب الماشيه .

و العالم بصيغته المفتوحة اللام ليس من المشتقات اذ ليس فيها ماهو على هذه الزنة وهو يطلق على كلّ جنس ماسوى الله سبحانه فيقال عالم الأفلاك و عالم النبات و عالم الحيوان الى غير ذلك : و انما جمع ليفيد الأجناس كلها بالتنصيص .

و معنى الآية تحريك العبد بعد التفاته الى نفسه و الى ما يحيط به من العوالم وكيفية خلقها و تدبيرها الى ما يجب عليه من الثناء على الصانع و الاطراء على خالق هذه العوالم الناطقة بلسان خلقتها عن عظمة موجدها فوصف الله سبحانه بأنه رب العالمين كالعله التى تساق

الى جنب المعلول ·

فكأنه لمّا قيل الحمد لله طلب من الحامد الداعى لذلك و السبب فيه فقال رب العالمين فان خلقه هذه العوالم على تفاوتها فى عناصرها بما لا يأتى عليه مديد التوضيح و التشريح من اعظم الأدلة على عظمة الخالق عظمة يتطامن لها كلّ شيء اذ كلّ شيء عليه اثر الصنعة و موضوع الحمد هنا جامع لجنبتى المدح و الشكر ·

امّا المدح فلأن منتجا انتج الكون بما فيه يجب له من الاطراء و الثناء ما يتكافأ مع عظمته و جليل صنعته و امّا الشكر فلأن شتات موجودات هذا العالم متع عظيمة للانسان يستطيع بشرط المحافظة على النظام و استخدام العقل فى كيفية التمتع به ان يستفيد منها كل فائدة ترجع لمادته ومعناه بما لاحدّ لهذه الاستفادة و ايّة نعمة اجلّ و أعلا من هذه النعمه التى لا يمكن استيفائها لأعظم مخلوق و مهما واكبته المناسبات المؤاتيه ·

و فى الآية اشعار قوى بوجوب حمد الحامدين لكلّ من فيه صلاحيه موقّرة قام بواجبها تجاه الفرد او المجتمع و بلزوم الشكر للنعمه فأن الشكر دليل وفاء الانسان لمن انعم عليه و برّ به و الاّ فالله تعالى فى نفسه غنى عن الاطراء لتجاوزه حدود العظمة و فى كل شيء من الأشياء اشاره اليه بلسان حال الشيء الذى اثر الصنعة عليه لائح و دليل الخلقه فيه واضح ·

و سوق الرحمن الرحيم هنا من متممات العله لوجوب حمده بأنه تعالى و أن خلق الاكوان كلها لصالح الأنسان الاّ انه لم يحتكر خلقته على خلقه كما يفعل اهل الصنائع الذين يصنعون الصنعه لصالح حياة الانسان لكنهم يحتكرونها و لا يبذلونها الاّ بأزاء ثمن أما الله سبحانه

فقد بذلها لهم و جعلها تحت اختيارهم مجانا و بلا عوض رحمة بهم وتحننا عليهم فليس فى ذكر الرحمن الرحيم هنا بعد ذكرهما فى البسملة تكرار كما ظن .

فان قيل ان الذى يعمل الشىء لصالح غيره و لكن لا يبذله الا بأزاء ثمن لا يقال له منعم حتى يشكر قلنا فى اصل اختراع مابه رفع الحاجة للمحتاج اليه منّة و اذا بذل مجانا حصلت منّة اخرى و البارى سبحانه قام بالمنّتين و اولئك المشار اليهم جاؤا بمنّة واحدة يشكرون عليها بقدرها .

* (مالك يوم الدين) *

المالكية علقة بين الموجود العاقل و ماله تمام الأختصاص به و كمال التصرف فيه و الدين هو الجزاء و منه قول الحماسى ·

و لم يبق سوى العدوان دنّاهم كما دانوا

اى جزيناهم بمثل ما فعلوه بنا : و الله الصانع لكل شيء مالك بحكم ابداعه اياه و صنعته له و من جملة ابداعه الزمان و المكان وما يسببهما و يولّدهما فلم خصص مالكيته للزمان هنا بيوم الدين وهو يوم القيامة و ظرف النشأة الثانية ذلك ليفيد تعالى ان الانسان فى حياته الظاهرية هذه قد يتجافى عن عقله و تدبراته الصحيحة فلا يلحظ الاّ الاسباب القشرية فلا يرجو الاّ المتمكن الغنى لانه يرى ان الدرهم فى قبضته ولا يخاف الاّ النافذ القوى لانه يشاهد السوط بيده يضرب به متى اراد ان يضرب و يكف عن الضرب متى قصد الكف ولا يرى لله سبحانه خزانة خاصة حتى يستميح منها ولا سوطا ظاهرا حتى يهابه وعلى حساب هذه الظاهرة فسق من فسق عن امر الله وهم الكثيرون لأن الكثرة مع القشريين طبعا ·

اما يوم القيامة حيث يجرّد الله سبحانه كل شيء عن لباسه للمحاكمة فلا يوجد غنى ولا نافذ ولا يبقى مع الانسان الاّ عمله فهناك يتجلى للمحشورين قاطبة عراؤهم عن كل شيء من المادة و حاجتهم الى غنى نافذ لم تعزله تفاوتات الظروف عن صلاحياته الملازمة له ولا يجدونه فى غير الله سبحانه لذلك ترى اعين الجميع منوطة به و موصولة بعظمته و منتظرة لما يكون منه من ايصال رحمة او ايقاع نقمة ·

* (اياك نعبد واياك نستعين) *

ايّا ضمير نصب منفصل و الكاف حرف خطاب و العبادة اظهار العبودية امام المعبود بالعمل الموظف من الشرع او بما ينساق اليه الوجدان و الأستعانة طلب الأعانة و المساعدة وكان من مقتضى السياق ان يقال ايّاه نعبد لكنه التفت من الغيبة الى الخطاب و الذى دعى الى هذا الألتفات بهذا التعبير هو ان الناطق لمّا عرف الله و وصفه بانه مالك كل مافى الكون و خالقه و انه وحده الذى يجازى على الخير و الشر اذ كل قدره مستمده من قدرته و كل ما سواه من هامد و متحرك و ناطق و صامت مخلوق له وجد ان مثل هذه الذات هو الذى يجوز ان يعبد و بما انه منعم على مخلوقاته بالانعام الجسام التى رصيدها الوجود وجبت له العبادة بعد ان جازت بأصل تصوّر حقيقته و لزم على الممكن المحتاج فى ذاته ان يمدّ يد الاستجداء منه اليه .

و بعد ان كانت هذه الذات المتحدث عنها بأنها علة كلّ معلول و مصدر كل افاضه و ان كلّ ماسواها مستمد منها صادر عنها موضوع قضيه سيقت من باب بيان حقيقة متأصلة جاءت هدف احكام اخر لان سياق التوصيف و التعريف اهّلها لأن تكون نقطة مواجهة ولائحة خطاب تفزع اليها الممكنات بأسرها و تواجهها بأبداء التضرع واظهار الخضوع و ابراز الحاجة بعد ان عرفت منها مالم تكن تعرف .

و فى الآيه دليل عقلى واضح على حرمة الخضوع و اظهار العبودية لغير الله بأصل الخلقة و حرمة الاستعانة بغيره ايضا ،نعم للعظماء المنعمين من عباد الله المحسنين حق من الخضوع الذى مآله للمرجع الأعلا و المبدأ الأجلا ،و هكذا ترجع الاستعانة بأهل الايمان الى

الاستعانة بالله سبحانه لأن المؤمن يرى نفسه هو وما يملك لمولاه الذى خلقه واعطاه فأن اعان اخاله فى الله فقد اعانه بما انعم الله به عليه وانه ليس فى ذلك الاّ واسطة ايصال لا اكثر ٠

وانما كررت كلمة اياك مع العبادة والاستعانة فقيل اياك نعبد واّياك نستعين ولم يقل اياك نعبد ونستعين لتثبيت النتيجة وتأكيدها كما يقال للمنعم المترسل المتفضل فى انعامه الجزيل انت الذى فعلت معى كذا وانت الذى دفعت عنى كذا اعترافا بمنعميته وطردا لكل احد سواه عن ملابسه اصدار هذه النعم حتى لا تذهب بالاذهان احتمالات لا مقيل لها من الواقع وعلى هذا الأساس شرّع فى اللغة باب التأكيد اللفظى حيث يقال جاءنى زيد زيد والمعنوى حيث يقال جاءنى زيد نفسه وللتثبيت والتأكيد المذكورين قدّم المفعول على الفعل فقيل اّياك نعبد ولم يقل نعبد اّياك لان التقديم مفيد للاختصاص بالفطرة ٠

* (اهدنا الصراط المستقيم) *

الهداية الدلالة و الارشاد و ابانة المطلب للجاهل به او الضّال عنه و الصراط هو الطريق الواضح المتسع الذى يقبل من سلكه ولا يضايقه من ضيقه و المستقيم المعتدل الذى لا اعوجاج فيه ٠

سورة الحمد كلها آيات مترتبة بالطبع وعلى مستواه جرى الوضع فكون الله تعالى مالكا لكل العوالم خالقا لها من لازمه ان يكون هو المتصرف بها المجازى للعاقل منها على ما يعمل من خير وشر ومن لازمه ان يكون هو المعبود للمخلوق و المستعان به و من وظيفة العاقل المستعين بعد ان يجد مصدر الأعانة غير محدود القدرة ان يطلب منه ام الأعانات التى يستطيع ان يستولدها اولادا كثيرين يكون كل ولد منهم أبا لآخرين و يسرى هذا التوالد بما تتكون منه أسر لها اهمّيتها فى الكثرات الماديه و المعنوية و تلك الاّم هى الهدايه الى الطرق المنتجه فأن فى اطار هذه الكلمة كل خير يفرض حتى ان صاحبها لمحدوديته لا يستطيع ان ينهى كل خيراتها و ثمراتها لخروجها عن العدّ و الحدّ ثم كشف الناطق كشفا توضيحيا عن معنى الصراط الذى طلب الانعام بالهداية اليه من المنعم المقتدر فقال ٠

* (صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم
ولا الضالين) *

وانما قلنا ان هذا الكشف توضيحي لان الصراط المستقيم طريق الغارق في نعم الله الموصول بتوجه الله اليه ومثل هذا السالك لا يكون مغضوبا عليه ولا ضالّا لأن غضب المولى انما يثيره انحراف العبد عن الجادة اللازمة السلوك والضالّ لا استقامة له في طريقه .

والداعي الى هذه الكشوف التوضيحية من العبد لمولاه الذي يعلم سرّه ومخزون ضميره ابداء العبد شعوره للجميع امّا امام المولى المطّلع فللتحدث بالمواهب التي آتاها لعبده ومن اعظمها الشعور السالم وامّا امام من سوى ربّه فلأفادتهم انه عبد عاقل يمشي على ضوء شعوره فلا يطلب الاّ الطلبة النفيسه الضامنة لسعادة الدارين وجلب توجههم الى ان يطلبوا من بارئهم نظير ما طلبه حتى يسعدوا بالهداية كما سعد هو بها .

وقد اشار الكتاب العزيز الى نصاب هؤلاء المنعم عليهم بقوله من يطع الله والرسول فاؤلئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين .

والى المغضوب عليهم بقوله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وهم اليهود لقولة تعالى ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لك كونوا قردة خاسئين والى الضالّين بقوله ولا تتّبعوا اهواء قوم قد ضلّوا من قبل واضلّوا كثيرا عن سواء السبيل وهم النصارى .

*** (سورة البقـــــرة) ***

" مدنية و هى مأتان و سبع و ثمانـــون آيـــــة "

سميت سورة البقرة بذلك لما فيها من قوله تعالى ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة ٠

(بسم الله الرحمـــن الرحيـــم ـ الـم)

فى مفتتح جملة من سور القرآن الحكيم جملة من هذه الحـــــروف المقطعة ولا شكّ انّها من قسم متشابه الكتاب الذى نصّ الله تعالى على وجوده فيه كما سيجئ بيانه فى محلّه :وقد كثرت كلمات العلماء حـــول هذه الحروف و لكنها بأسرها يلوح عليها اثر الأهمال فلاجدوى فـــى التعـرض لها اصلا و خير مافيها قول من قال ان المراد بها ان هـــذا القرآن الذى عجزتم عن معارضته من جنس هذه الحروف التى تتحاورون بها فى خطبكم و كلامكم فاذا لم تقدروا عليه فأعلموا انه من عند الله لان عجزكم عن مثل هذه الصياغة مع توفر المادة التى يصاغ منها دليل واضح على اعجاز هذا القرآن و صدوره عن الله سبحانه ٠

(ذلك الكتاب لا ريب فيـــه هدى للمتقيـــن)

اظهر الوجوه فيما اراه من تركيب هذه الآية تبعا للمعنــــــــى المستظهر ان اسم الاشارة مبتدأ و الكتاب بدل منه او عطف بيان وجملة لا ريب فيه حال منه و هدى للمتقين خبر المبتدأ بهذا اللون ذلـــك الكتاب حال كونه غير محطّة للريب فيه هاد للمتقين ٠

ذا اسم اشارة للقريب والكاف الخطابية حرف يفيد بعد المشار اليه و تـــزاد اللام مع الكاف لتأكيد البعد و الكتاب مصدر وهو هنا بمعنـــى اسم المفعول و اصله فى اللغة الجمع من قولهم كتبت القربة اذا خرزتها

اى جمعت اطراقها المنحازة بعضا الى بعض بشريط منها اومن غيرها و منه كتيبة الجند لانضمام بعض الجنود الى بعض والريب هو اضطراب النفس المثير لتشككها والهدى والهداية بمعنى الدلالة و اتقاء الشئ هو الخوف من عواقبه : وتقوى العبد خوفه من مغبة ما يخوّف منه ·

و معنى الآية ان هذا القرآن الذى جمع الفرائد و الفوائد و الشوارد ممّا يعود لسعادة البشرية على ما تحتويه و تفتقر اليه ، و اذا كان على الوصف فهو لاينبغى ان يكون محطة للشكّ فيه ولا فيما يحتويه ، دالّ ومرشد الى طرق السعادة لكل من يريد الحياة على تنبّه و تحذّر والنفات و خوف من الوقوع فى المداحض و المزالّ ·

و الامر كذلك حقا فأن من يتخذ مضامين هذا الكتاب مخطّطا لشؤنه الداخلية و الخارجية فهو سعيد قطعا لأن هذا الكتاب قد حدّد خطى الأنسان بحدود صحيحة تبعد به عن المضايقة و تنشمر به عن الأسفاف والترهل و ان و سما بالتحرر عند الجهلاء الذين جهلوا الحياة بكافة حروفها و جميع شؤنها و شروح ذلك تأتى فى غضون هذا التفسير ان شاء الله تعالى ·

و انمّا اشار سبحانه وهو فى مفتتح السورة بكلمة ذلك المفيدة للبعد ابعادا لمقام الكتاب و تعزيزا لمحلّه و تشريفا له بأعلائه و احالة الى ما سلف منه نزولا و احتل من بقعة النفس مكانا كما يقال زيد ذلك الرجل العظيم : ونظائره كثيرة فى استعمالات اهل اللسان ·

و ربما قيل ان المتقى مهتد فلا مجال لهديه و ارشاده لكن هذا القائل عازب عن ان المراد به هنا و فى كل مقام مثله هو الانسان الذى يريد ان يرد المطلب على تهيؤ وتحذر حتى لا يقع فى مغبّة تسوئه لا المتقى الذى ورد المطلب وأنهاه على اصوله وطبعا لا يهدى المنطق

انسانا الآ من توجه له واعاره حاسّته لا العابر المستطرق ·

و بعد ما عرفت معنى التقوى تعرف ان المتقى بالفعل هو الذى انتهى و أئتمر عندما نهى و أمر من مقام له ذلك وعلى هذا الحساب قال بعضهم التقوى أن لا يراك اللّه حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ·

* (الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و ممّا رزقناهم ينفقون) *

الذين اسم جمع للذى لا جمع لأن الذين يستعمل فى العقلاء خاصة و الذى يستعمل فيما هو اعّم و الايمان بالشىء هو الاطمئنان به و السكون اليه و متى حصل اطمئنان واقعى للنفس بالشىء الذى تسكن اليه جرى ذلك على اللسان و الجوارح قهرا و الا فالذى يحصل فى النفس شبح الأيمان بالشىء ·

فالنزاع اذن فى الأيمان انه ماهو فهل هو الاعتقاد بالجنان و القول باللسان و العمل بالاركان او هو الاعتقاد بالجنان فقط نزاع فارغ لانه يكون حول موضوعين لا موضوع واحد : و الغيب هو ما غاب عن الحاسة عقلا كانت ام جهازا : و قيام الشىء تمام تركزه و كمال ظهوره و رواجه و اشتداده حتى قيام الأنسان و الجدار وعلى هذا الحساب قيل قامت الحرب على ساق و قامت السوق وقد قامت الصلاة : والصلاة فى اصل اللغة الدعاء و هى فى الشريعة عمل خاص تقوم به اذكار مخصوصة و كيفيّات منصوصة ·

و جاء فى اللغة صلّى بمعنى حرّك الصلوين يقال ضرب الفرس صلويه بذنبه اى ماعن يمينه و شماله الآ ان ذلك لا ربط له بالصلاة الشرعية ولا اللغوية لعدم دخالة تحريك الصلوين فى الصلاتين فأن من الصلاة الشرعية مالا تحريك معه للمصلّى كالصلاة على الجنب و مستلقيا

و موميا مع القيام او الجلوس و الرزق هو العطاء و الأنفاق اخراج المال.

و معنى الآية يجوز ان يكون على الوصل بالسابق فيكون الذين يؤمنون بالغيب وما بعده صفة للمتقين و يجوز ان يكون على القطع و الابتداء بكلام مستأنف فيكون مبتدأ خبره قوله تعالى اولئك على هدى من ربّهم .

و الايمان بالغيب هو ما يصطلح عليه المتكلمون بالتعبد بمعنى ان ايمانهم بالله و برسله يكون رصيدالهم فى تصديق ما يقوله اللّه سبحانه او يخبر به نبيّه كنشأه الآخرة بتفاصيلها واصل نشأه هذا العالم و كيفيه خلقته هذا فيما غاب عن الحاسه الماديّه وكتشريع احكام لا يفهمها العقل ولا يدرك جهتها ككون صلاة المغرب ثلاث ركعات مثلا فيما غاب عن الفهم و العقل و انما كان الأيمان بالغيب صفة مدح لهم لأنه من نتائج الأيمان بأصل المبدأ فاذا ثبت فى النفس وجود الله الحكيم وتقرّر فى القلب صدق مدعى النبوّة كان من لازم ذلك الأعتراف بحكيمية الله فى كل شئ فيما تجلى للعقل وما خفى عليه فأن الحكيم لا يكون عابثا و بصدق النبىّ فى كل ما يخبر به تجلّى للحاسة ام انسترعنها فأن الصادق المتأصل الصدق لا يكذب و اقامة الصلاة تركيزها و تثبيتها وجعلها فى نصابها و معنى ذلك هو الأتيان بها على وفق الطلب الالزامى و الندبى الوارد فى الشرع عليها : و الانفاق ممّا اعطا الله يعمّ الواجب و المستحب و ان كان الواجب اشخص فى الظهور من غيره .

ثم ان واجبات الشرع على المكلّف فى الأصول و الفروع و فيرة وفى الكتاب و السنة اكثر بكثير ممّا ذكر الله فى هذه الآية فلم خصّ سبحانه ثلاثة منها بالذكر و اغفل الباقى قلنا ذكر بعض التكاليف فى مقام دون بعض يكون لواحد من امرين (الأول) ذكر المذكور من باب اعطاء مثال

كما يقول النحوى الفعل و الفاعل مثل قام زيد (الثانى) ذكر ابرز العناوين منها فأن فى دائرة التكاليف وغيرها اهمّ و مهمّا فاذا ذكر الأهم فكأن المهمّ انطوى فى ضمنه ولا ريب ان الأيمان بالغيب نقطة رئيسيه فى عالم التعبد فأن الأيمان بالشهادة من المحسوسات التى وقع عليها حسّ المكلف و من المعقولات التى ادركها العقل بسهولة امر لابد منه بمساق الطبيعة و ليس هو من باب التسليم للمولى الحكيم ٠

و باعتبار ان الصلاة امر متكرر الوقوع فى الخارج فى كل يوم و ليلة وعبادة جاهرة لانها فى الاغلب توقع فى المعابد و الأمكنة العامّة وتقام فى جماعة و محتوياتها الفاظ مقدسة كانت اشخص العبادات فى الخارج و ادعى الى الالتحاق بحزب الله لكل عابر و مستطرق من اهل العقيدة ، و الزكوات و الصدقات من الخدمات الاجتماعية التى يقوم بها الفرد تجاه اخوته فى الله فيرفع عنهم مأزما و يدفع عنهم حرجا فهذه العناوين الثلاث من ابرز النقاط المبدئية فى اصول العقائد و الفروع العملية وذكرت فى اوصاف المتقين لكلا الداعيين ضرب المثل والعنوان الاهمّ فيما صدر التكليف به ٠

فأن قلت ذكرت آنفا فى تفسير قوله تعالى هدى للمتقين ان المراد بالمتّقى هنا من يريد ان يرد الشىء بتنبّه و تحذّر و التفات لانه انهى ذلك الشىء و فعله و المذكور فى هذه الآية الوصفية الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و ممّا رزقناهم ينفقون هو تلبسهم بذلك فعلا فكيف التوفيق بين الماضى و الحاضر ٠

قلنا الامر كما ذكرناه آنفا ولا منافاة فأن المتقى هو من يحمل روح التحذّر فى الورود على الامور سواء كان فى غير هذا الأمر الذى يريد الورود فيه متلبسا بالأتقاء الفعلى العملى ام لم يصدر منه تلبس عملى

لأيّ امر من الأمور: فالقرآن انما يهدى من كان على هذه الروية و حاملا لمثل هذه الروح و ليس باستطاعته ان يهدى المعرض غير الملتفت اليه ولا المتجافى عنه .

* (و الذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك
و بالآخرة هم يوقنون اولئك على هدى من ربّهم
و اولئك هم المفلحون) *

يجوز ان يكون و الذين يؤمنون هنا من صلة المتقين و شوارحه كما يجوز ان يكون تابعا فقط للذين يؤمنون بالغيب على انه كلام مستأنف لا يختص بحال المتقين: ثم ان الأيمان بالغيب من لازمه الأيمان بالشهادة و انما خصّ سبحانه ما انزل الى نبيّ الاسلام و ما انزل الى الانبياء من قبله بالذكر على انه لازم الفهم و الاعتراف من الأيمان بالغيب ليبيّن ان عالم الشهادة يجب ان يكون ثابت النسبة الى اللّه سبحانه لا مطلق ما يشهده العبد و يخيّل له انه من الواقع المصون فمعنى يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك انهم انمّا يوقنون و يحصل لهم السكون و الأطمئنان بالثابت نزوله اليك و الثابت نزوله على من سبقك من النبييّن لا مطلق ما نسب الى السماء من كتاب اوحديث فأن الذى يستنيم الى الخرافات ولو بصبغة دينيّة ليس مؤمنا مهدّيا ولا مفلحا و انما هو وجود وهميّ سرعان ما تؤثر على عاطفته شياطين الأنس فيكون ردء لهم على الحق و من هذه الزاوية المرموزة أخذ الدين الصحيح من ايدى الناس و لبسّت عليهم الأوهام و الخرافات بشتى صورها و اساليبها حتى انقلب الدور بالدين الواقعى من طريق هذه التلبيسات فجاء مهزلة يسخر منه .

وانما جمع سبحانه فى الايمان بين ما أنزل الى نبىّ الاسلام وما أنزل الى الأنبياء من قبله ليعلم ان البذرة فى الأديان كلها واحدة وانها من الله فجميع ما انزل الله وجميع من بعث يحكى عن واقع راهن وامّا التشويهات اللاحقة لتلك الكتب والنسب الباطلة المعزّوة لأولئك الأنبياء العظام فهى من خلقة الانتهازيين الذين يريدون ان يعيشوا على اكتاف الناس البسطاء ٠

والآخرة تأنيث الآخر صفة لموصوف محذوف يقدر بالدار او النشأة والمعاد الجسمانى لأثابة المحسن ومؤاخذة المسىء ممّا اصرت عليه الأديان السماوية اصرارا تعادل كفته كفة الأعتراف بالمبدأ الخلاق والأيقان بالشىء هو العلم القطعىّ به واولاء صيغة جمع لاسم الأشارة والكاف حرف خطاب يفيد البعد والمشار اليهم هم الذين آمنوا بالغيب واقاموا الصلاة وانفقوا ممّا رزقهم الله وآمنوا بشريعة الاسلام وشرائع السماء واعتقدوا جازمين بالمعاد على الله ليجزى المحسن منهم والمسىء بما يستحق ولا شك ان من يكون بهذه الأوصاف يكون حرّيا بالهداية اذ لا هداية اجلى من هذا الاهتداء كما لا شك ان هؤلاء هم المفلحون الناجحون فى كافة نشآتهم وضمير (هم) جىء به لتقوية اسناد الفلاح اليهم او لحصره بهم : فألى هنا وفى الآيات السالفة أبان ربّ العزة عن اوصاف المؤمنين ثم بحكم المقابلة ثنّى القول بذكر الكافرين الذين هم نقيض صريح للمؤمنين فقال ٠

* (ان الذين كفروا سواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) *

الكفر ستر الشيء و منه كفران النعمة بمعنى سترها وعدم اظهارها و السواء هو الاستواء و المعادلة : و الانذار اعلام بتخويف و مثله التحذير او هو بمعناه و الذين كفروا اسم انّ وخبرها جملة لا يؤمنون و سواء مصدر يجوز ان يكون مرفوعا بالأبتداء فيكون مدخول همزة الاستفهام و ام المعادلة بمنزلة الفاعل له على ان تكون نتيجة الصياغة هكذا سواء عليهم الانذار وعدمه كما يجوز ان يكون مرفوعا على الخبرية وما بعده مسبوكا بمصدر مبتدأ مؤخر و الصياغة كما اشرنا اليه و الجملة على كلا التقديرين اعتراضية تشعر بالوصفية ۰

كأنه قيل ان الذين كفروا و استوى عليهم الأنذار وعدمه لا يعقل ان يؤمل منهم الأيمان اذ لولا هذا الاشعار بالوصفية لكان الأخبار عن الكافر بما هو كافر انه لا يؤمن غير صحيح و لجاءت جملة سواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم قلقة ليس لها مكان ثابت من السياق ۰

ثم ان الكافر الذى ستر نعمة اللّه عليه بالأنكار لأصل وجود الخالق و يرى ان ما يتمتع به من نعمة حاصل له لاعن علّة ولا فاعل او بالأنكار لجميع او لبعض مزاياه الضرورية او لما صحّ ثبوته عنه و اراداته الجازمة له تارة يسترها و يجحدها عن جهل وعدم تدير و اخرى يجحدها عن عناد و تجبر ۰

امّا الجاهلون فلهم حقّهم من واجب الأنذار و اقامة مابه يحصل الأعتبار و الغالب على افراد البشر هو هذا الجهل وهو قابل للرفع نعم الجاحد المعاند عنصر ذو خطر لا دواء له الاّ عصا التأديب تقوم

على يافوخه و تقعد و هؤلاء هم الذين امر الله سبحانه بقتالهم ووجب جهادهم حتى لا يستشري داؤهم الى غيرهم فيفسد كما فسدوا ٠

* (ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على ابصارهم غشاوة و لهم عذاب عظيم) *

الختم و الطبع يهدفان الى معنى واحد وهو وسم الشيء بما يعرب التصرف فيه عن التصرف في نفس الشيء و يتخذ ذلك لضبط الاشياء عن التصرف فيها :و سمّى القلب بهذا الأسم لتقلبه بالخواطر و الغشاء الغطاء و زنة فعالة بكسر الفاء وضعت لما يشتمل على الشيء كالعمامة و القلادة و كذلك في الصناعات و المهن كالخياطة و التجارة و الصياغة و كذلك ما دل على الأستيلاء كالخلافة و الأمارة ٠

فأن في كل ذلك اشتمالا على ما تعطيه هذه الألفاظ فالصائغ مشتمل على جميع ما تريده الصياغة في تحقيق مفهومها و كذلك الأمير و الخليفة :و السمع مصدر و يطلق على نفس الجهاز الذي يكون به السمع و العذاب استمرار الألم و العظيم يطلق في الماديات و المعنويات بمعنى الكبير فيها ٠

ومع حفظ عنوان التكليف يستحيل على الربّ سبحانه اعمال قدرته في المكلف فيلجئه الى المعصية او يلجئه الى الطاعة وقد أخطأ الأشاعرة و الجبريون في ذلك خطأ ماله مقيل من موازين المعقول والمسموع :وانما صحّ الختم منه هنا على قلوب المعاندين الكفرة مع ان الكفر و الأيمان من التكاليف (و لذلك يصح عقاب الكافر على اختياره للكفر و أثابة المؤمن على اختياره الأيمان) بعد توسعة ميدان الاختيار لهم و تكرار الأنذار و الأعذار اليهم و التوائهم عن ملابسة الهداية

تعنتا و تمردا و اشتدادهم على الحق كلمّا تجلّى لهم اكثر من اشتدادهم عليه وهو غامض عليهم مستور لديهم و متى وصلت اللجاجة بالعبد الى هذه الدرجة انخلعت عصمته من ربّه فأعرض عنه و نفس اعراض الواجب بفيضه عن الممكن تجميد له فلا ينال السعادة بالمرّة ٠

و هذا هو معنى ختم الله سبحانه على قلب العبد الجاحد المصّر على جحوده الذى استوى فى حقّه الأنذار وعدمه : و بالعكس يقال فى محب الأيمان وراغبه و المتحرّى له جهد استطاعته فأن الله سبحانه يعينه على ايمانه بمعنى انّه تعالى يقبل عليه اكثر من الفرد المتعارف ونفس اقبال الله عليه افاضة عليه وتسمين لما حصل فى يديه فلاذاك الختم قبيح من الله فى حق العبد الذى يؤاخذه على كفره وعناده ولا هذه الأفاضة تبعيض منه للمؤمنين به حيث يثيب المفاض عليه اكثر من غيره لزيادة ايمان ذاك على هذا ٠

و السّر فى ذلك ان روح المعاند فرّارة عن الخير يراد بها وروح الراغب متهافتة على الخير تريده اكثر ممّا تستطيع قواه : و الله كالفرد العاقل منّا ينزوى بعناياته عن العتاة المردة الخارجين عن حدود المنطق و يقبل بها على المتحببين بأرواحهم و طهارة ضمائرهم وان قلّ ما يتقدمون به من خدمات لقصور وسعهم عن اكثر ممّا قدّموه ٠

ولا شك ان السمع اذا سدّ باب جهازه و البصر اذا غطّى عليه تقطّعت سبل الأدراك عن القلب فوقف حاسرا عن العمل المثمر كمالا شكّ ان عذاب الكافر المتعنت اعظم من عقاب الكافر المعتدل فأن الطرفين و ان اشتركا فى موجب الأثم و سنخيته من حيث الكفر الاّ ان التعنّت يمدّ الذنب فيعظم و اذا عظم الذنب عظم عذابه بتصاعد درجته ٠

و الى هنا أبان سبحانه عن حال الكفرة كماأبان آنفا عن حال اهل

الأيمان و بقى شئ ثالث وهو حال النفاق فأفاض عنه سبحانه بآيات طوال شرح فيها هذا الداء الدوّى اعاذنا الله منه فقال عزّ من قائل ٠

* (ومن الناس من يقول آمنّا بالله و باليوم الآخر وما هم بمؤمنين) *

الناس اسم لجماعة البشر قيل أخذ من الأنس لأن الوجود بدون هذا المخلوق لا أنس فيه و قيل من الأيناس وهو الظهور من باب (آنست نارا) و قيل غير ذلك و ليس بمهّم و اصله بالهمزة أناس و تحذف تخفيفا لكثرة الدوران فى الكلام و النفاق هو اظهار الشئ على اللسان او سائر الجوارح معه و لكنه فاقد للواقع و واقعه هنا عقيدته و قلبه و الداعى اليه امور كثيرة من جملتها التجسس و الفتك و الأمن ممّن تتجسس عليه او تريد به الفتك لتظاهرك بأنك من حزبه فأنت غير متّهم عليه ٠

و مسألة التدليس و النفاق مسألة عويصة رذيلة الأنتاج و كم خلطت الحق بالباطل فاستنام الى الباطل ايمانا بظاهرة الحق كل صافى السريرة ،وابتعد حتى عن الحق الصريح كل متحذر متشكك قائلا وما يدرينى انه حق يلزم الأخذ به بعد ان التاطت به العلل ٠

و آثار النفاق أسوأ حالا بكثير من آثار الانحراف الجاهر فأن النفاق فخّ معدّ للأصطياد بلا مؤنة و الأنحراف ليس بفخ اصلا وان انجرف معه من انجرف: و انّما خص سبحانه الأيمان المرموز بالأيمان بالله و بالمعاد الجسمانى دون غيرهما من ركائز الدين لأنهما النقطتان الرئيسيتان فى دين الأسلام و طوال ايام الدعوة الأسلامية منوطة بهما و قائمة عليهما اقرأ عن ذلك كل قرآن نزل بمكة ٠

و لم يعرف الأسلام نفاقا فى افراده قبل الهجرة لأن الالتحاق بالأسلام يومذاك لم تكن فيه حصيلة دنيوية الآ الاذى و الاستيحاش من المحيط: نعم اخذت طلائع النفاق تتكثر من بعد هجرة النبى (ص) وغرز رجله فى ركاب الرئاسة حتى كان المنافقون فى جيشه الذى ساقه الى تبوك البالغ ثلاثين الف رجل نصف الجيش بالضبط و لكن سعة صدر الرسول (ص) وحنكته هضمتا هذا العنصر المزعج فكان (ص) يعلم بكل ما يكون منهم و يغضى ابقاء على حرمته و تقديما لغرضه وحتى لا ينشق عليه جماعته وهو تحمل عظيم صادر عن عقل كبير و بمثل هذا تعظم الرجال .

* (يخادعون الله و الذين آمنوا وما يخدعون الآ انفسهم وما يشعرون) *

الخدع فى الأصل هو الأخفاء و لذلك قيل فى الجحر و الجحرة انّهما مخدع اى ساتر مخفى للشخص و صيغة فاعل و ان اشتهرت فيما يقتضى المقابلة بالمثل الآ انها ليست كذلك دائما بل تنفك عنه كما يقال عافاك ربك و عاقبت اللصّ و نظير ذلك كثير على انه يجوز هنا تصوير المخادعة ايضا بأن خداع الله لهم و مكر الله بهم ايقاع جزاء ذلك بهم كما قال و جزاء سيئة سيئة فأن جزاء السيئة حق لا سيئة وانما اطلق هذا اللفظ عليه لايقاع المقارنة بينهما :وايقاع لفظ الجلالة موقع المفعول به ليس على حقيقته لأن الذى يعرف الله بسماته و صفاته التى من جملتها علمه بدفائن القلوب لا يعقل منه المخادعة لمثل هذه الذات اذ هو مناقضة لعلمه و الذى لا يعرفه الآ كما يعرف الصنم كذلك لا يخادعه لأنّ الهوامد و ما هو بمنزلتها فى عدم العلم ليست محطة

للمخادعة بل مخادعتهم انما هى للرسول الأكرم (ص) الذى يمثّل دعوة الله و يفرغعنه فيما يبيّن للناس و للمؤمنين به الذين يترسمون خطى نبيّه .

و هدف المنافقين من هذه المخادعة حفظ دمائهم و أموالهم و نسائهم و ذراريهم بكلمة الأيمان يلوكونها حتى يتحصنوا بها فأذا امنوا على انفسهم و اموالهم و اطمأنوا من هذه الناحية وردوا المحيط آمنين من طريق ظاهرة الأيمان فتجسّسوا و دلّوا على عورة وفتنوا ضعفاء المشاعر و فعلوا كل ما يستطيعون من التخريب على الرسول .

و النفس فى الآية هى الذات فمعنى وما يخدعون الاّ انفسهم اى الاّ ذواتهم و ذلك بأنهم وان جحدوا الخالق رأسا او اعتبروه كما يعتبرون الأصنام الاّ ان عقيدتهم هذه لا تزيل الواقع عن منصته فعلاّم الغيوب القادر على كل شئ بالمرصاد لهم يعلم ماخانته ايديهم و أعينهم وما خطر على قلوبهم وما فعلوه من قليل و كثير و سوف يجازيهم على ذلك اسوأ الجزاء طبقا لما يكنّون من خبث عريق و ضمير فاسد فهم بخداعهم لله و للمؤمنين انما خدعوا انفسهم و ان لم يتوجهوا لذلك بناء منهم على انه لا شئ فى البين :و الشعور هو الحسّ الباطنى فمعنى وما يشعرون انهم لا يعلمون .

* (فى قلوبهم مرض فزاد هم اللّه مرضا و لهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) *

المرض بكلا قسميه المزاجى و الروحى ملازم لأصحاب العاهات النفسية من حقد و حسد و غيرهما فأن الروح اذا تدرعت بهذه الأمراض جذبت الجسم اليها فأعدته و لذلك تجد الحسود بمقدار حسده يضعف جسمه و يهزل بدنه و المنافقون الذين تعرض لهم اللّه سبحانه فيهم تحرّق على الرسول و حسد يتكاثر كلمّا قويت شوكته و تقدم امره و زيادة اللّه فى مرضهم تتسبب عن امرين (احدهما) ان اللّه كلمّا زاد رسوله بسطة فى النفوذ ازدادوا بسبب ذلك غيظا و حسدا فبهذا التسبيب زادهم اللّه مرضا (ثانيهما) ان اللّه سبحانه لمّا وجدهم مصّرين على العناد متمردين عن قبول الحق متجافين عن ربهم قطع عناياته عنهم و الطافه بهم و كل ممكن يواجه من الواجب هذه الظاهرة فهو الى نقصان وتدهور قطعى وقد اسلفنا سابقا فى معنى ختم اللّه على قلوبهم ماهو ركيزة لهذا الباب .

و كما ان الأمراض الجسمية لها اطباء يعالجونها بأدوية حاسمة كذلك للأمراض الروحية اطباء يعالجونها بأدوية التهذيب والتثقيف و كما من لازم المريض مزاجا مراجعة الأطباء ليصحّ بدنه كذلك من لازم المريض روحا مراجعة اطباء هذا المرض وهم علماء الأخلاق المثاليون ليخرجوه من سوء هذه العاهة ليصح و يصلح فى نفسه و يأمن الناس جانبه و اذاه .

و الأليم فعيل بمعنى فاعل كجميل و ظريف و وصف به العذاب للتأكيد لأن العذاب فيه الم و الكذب ما كان عن خلاف للواقع المحكّى

عنه وقد كتبنا عن الكذب فصلا عامرا فى الجزء الثانى من كتابنا شرح نهج البلاغة بعنوان بحوث وآراء .

وكذب المنافقين هنا فى ادعائهم الأيمان بالله و الرسول عن غير واقع فيهم .

* (و اذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انّما نحن مصلحون، الا انهم هم المفسدون و لكن لا يشعرون) *

الفساد فى الشىء حدوث نقص فيه يقعد به عن الأستفادة المرادة منه و صلاحه تمام استعداده لما يراد به من وجوه الأستفادة و من هنا يقال فى التمر بدا صلاحه اى اخذ فى النضج المطلوب منه و الأفساد فى الأرض معناه اثارة الفتن و القلاقل و صرف الناس عن الأعمال المفيدة القائمة بالعمران و الأمان ،و المنافقون فى الدين ضدّ الداعى بالحق من اهمّ مهامهم الشاغلة لخواطرهم القاح الفتن بين الناس وتشتيت شملهم بما تجرّه الفتنة حتى لا يتوجهوا الى اعمالهم المعتاده لهم من الهدوء و الطمأنينة و الاستماع للحق و طلب الحقيقة .

و معنى ادعاء كونهم مصلحين عند تأنيبهم و تقريعهم انهم كانوا يجيبون المؤنب بأننّا فى ذهابنا للكفار و المخالفين نحاول تلطيفهم للدخول معنا فى ديننا و نحذّرهم من مغبة الخلاف و الحروب التى تنشأ عنه .

لكن الله سبحانه حصر الأفساد بهم فضلا عن كونهم ليسوا بمصلحين و جهة الحصر ان المفسد تارة يفسد لجهله و تارة يفسد عن عمد و تقصّد لأثارة الغبرة حتى يستفيد منها ولا شك ان المفسد الواقعى

هو الثانى لا المفسد الجاهل بجهة افساده و متعلق لا يشعرون هو العذاب العظيم المعدّ لهم بمعنى ان المنافقين يعملون كل هذه الأفسادات ظانّين انه لا شئ فى البين يؤاخذهم على عملهم الأفسادى فضلا عمّا ارضوا به ضمائرهم و بردّوا غليلهم من ايجادهم الخلاف بين الناس على النبى (ص) و خلقهم المشكلات امام دعوته ·

ولا يجوز ان يتعلق بالأفساد بمعنى انهم لا يشعرون بأفسادهم او لا يشعرون انهم هم الفسدة لاغيرهم لأن اعمالهم كلها عن تهيأة و تدبر و استحضار قوىّ للمفاهيم قبل تطبيقها على الخارج يفعلون ذلك كله عن دقة تامة لأجل ان يستثمروا من مساعيهم ضد زعيم مقتدر آخذ بنفسه و بدعوته و انصاره الى الأمام فالقوم فضلا عن شعورهم بأفسادهم على نبىّ الأسلام يشعرون بأنهم من اشدّ المفسدين عليه و اكثرهم شرا و خبثا و يدركون ان النبىّ و الحساسين من اصحابه واقفون على اعمالهم و لكنهم يصانعونهم مجاراة للوقت ·

* (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا
أنؤمن كما آمن السفهاء الا انّهم هم
السفهاء و لكن لا يعلمون) *

منافقوا المدينة كانوا على اتصال وثيق بمؤمنيها لأنهم كانوا اهل بلد واحد و من أرومة واحدة تقريبا فكان اكثر المؤمنين يعرفون المنافقين وما يدسّونه من دسائس و يقومون به من حركات فكان المؤمنون احيانا اذا خلوا بهم انبوّهم على ما اختاروا لهم من طريق شقاق و دعوهم الى الأيمان بالله و الرسول عن واقع و قالوا لهم انكم لستم اعقل من النفر الذى آمن ولا اكثر دربة ولا اعظم عقولا فالى م هذا التمادى فى الغيّ الذى انتم سادرون فيه .

فكان جواب المنافقين لهم رميهم بالسفه و قلة العقل و ضعف الرأى لمن آمن لاعن عقيدة منهم بسفه المؤمنين جميعا لعلمهم ان فيهم من العقلاء من لا يقعقع له بالشنان و لكن تظاهرا بتضعيف الطرف واعتزازا بالأثم الذى هم مرتكبون له و ترفعا عن الاعتراف بخطأهم و تمرّدهم امام الحقيقة .

و اذا كان السفيه هو قليل العقل ضعيف الرأى سطحى النظر ففى الحقيقة لا سفيه غير المنافقين بعد ما رأوا ان الدعوة الأسلامية اخذت تتقدم الشىء بعد الشىء و تهيمن على الناس و تسيطر على المجامع و تغذ الى الامام بسرعة لأنّ اصرارهم مع كل مشاهداتهم هذه على الخلاف الذى لم ينجح و المشاغبة التى لم تثمر يعدّ نقصانا فى عقولهم و ضعفا فى آرائهم بلاريب .

و لذلك وصفهم ربّ العزّة بأنهم هم السفهاء حاصرا السفه بهم

و لكن لا يعلمون بسفههم لحسن ظنّهم بأنفسهم واعتدادهم بعقولهم فيما يظهر عليه ، و الألف و اللام فى الناس للعهد لأن المنافقين مسبوقون بأيمان من آمن بالنبىّ و لو اجمالا فى معرفة عددهم و وصفهم

* (و اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انّا معكم انما نحن مستهزؤن) *

لقا و لاقاه بمعنى واحد وهو استقبال الطرف مع القرب منه ، والخلوة بالشىء الأنفراد به و شياطينهم نظراؤهم فى الأنحراف و سوء العقيدة و الأستهزاء هو التمسخر و الازدراء بالطرف هذا ومع الألتفات الى ما سبق من مضمون الآية الأولى يجب ان يكون المؤمنون الذين يلقاهم المنافقون غير المؤمنين الذين كانوا يقولون لهم آمنوا كما آمن الناس فيجيبونهم بقولهم أنؤمن كما آمن السفهاء لانهم مع هذه الأجابة لا يستطيعون ان يقولوا لهم آمنّا الاّ باحتمال بعيد و المنافقون انّما يتظاهرون بالأيمان امام من عرفهم بعدم الأيمان اولم يعرف عنهم شيئا من النفاق دفعا لتحامل المؤمنين عليهم من ناحية ولأجل ان يتسع لهم ميدان الانحشار بالمؤمنين حتى ينتهزوا منهم فرصا هم بحاجة اليها فى تمشية شؤنهم ضد الدين و انّما يعربون لشياطينهم بأنهم معهم حذرا من ان يصل اليهم حديث ايمانهم فيكونوا منهم فى شكّ و من صداقتهم فى ريب ٠

و لهذا تكلموا بالجملة الأسمية مؤكدة بأنّ مشفوعة بقولهم انّما نحن مستهزؤن حاصرين قولهم للمؤمنين آمنّا بداعى الأستهزاء لاغير بمعنى ان قولنا لهم آمنّا ليس فيه شائبة من الصدق و انما هو استهزاء محض

فكونوا على اطمئنان من واقعيتنا معكم و نفاقنا معهم ·

* (الله يستهزئ بهم و يمدّهم فى طغيانهم يعمهون) * ·

استهزاء الله تعالى بهم استخفافه بهم و ازرائه عليهم فأن نتيجة الأستهزاء فى الخالق الذى يجلّ عن ابتداء الأستهزاء بأحد و فى المخلوق الذى تأتى منه هذه البوادر واحدة غايته تارة تكون بحق و هى ماتكون جزاء و مكافئة و اخرى تكون بغير حق كالابتداء بالاستخفاف حيث لا داعى مشروع له ·

و الامداد الملاحقة و الأضافة يقال امددت الجيش اذا اضفت عليه باعتبار ماكان اولا و الطغيان هو الزيادة على الحد و التجاوز عنه و لذلك يقال للجبّار العسوف طاغية و للماء المتجاوز عن حدود اجرافه طغيان و العمه هو التردد فى الحيره والضلاله يعنى ان يكن المنافقون يستهزؤن بالمؤمنين فأن ذلك لا يضّرهم و الله آخذ بأعضادهم و انّما المضّر هو استخفاف الله بالمنافقين و حطّه من درجتهم وازدرائه بهم ·

و امّا امدادهم فى غيهّم وتحيّرهم فيكفى فيه اعراض الله عنهم بالطافه فأن العبد الذى يحرم من الطاف مولاه لا شك فى سقوطه وتحيّره فى حياته و ضلاله فى مسيره ولا يحتاج مولاه فى تخفيفه الى اكثر من اعراضه عنه و انّما اطلق الطغيان على المنافق لانه متطرف متجاوز عن حدود طبيعة الانسان العادى و جملة يعمهون حال اى و يمدّهم فى طغيانهم حال كونهم ضلّالا متحيرين مترددين تائهين عن الرشد ·

(اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) *

الأشتراء هو الأستبدال بمعنى اعطاء شيء واخذ شيء في مقابله عوضا عنه والضلالة تقال على مايقابل الهداية وهو التحيّر والأرتكاس والتقهقر والربح هو الزائد على رأس المال والتجاره هي مهنة البيع والشراء لأجل الأستحصال .

شبّه سبحانه حال المنافقين بحال السفيه يتصدى للبيع و الشراء حيث يؤل به خبل السفه الى ان يعطي بضاعته من يده و يقعد محسورا مخذولا ، و ذلك ان الأنسان ببواعث فطرته التي خلقت معه يجب ان يزيد عقله و يقوى بصره وبصيرته كلما تقدم مع الأيام فاذا كان جاهلا في اصل الخلقه فأن الفطره تدعوه الى التعرف فاذا عرف فذاك لأنه مشى مع الفطرة الى الأمام واذا اعطى فطرته من يده فقد فقد بضاعته وخسر رأس ماله جميعا و فطرة الأنسان تهديه الى الأيمان بالمبادئ الواقعيه و في طليعتها الأعتراف بالصانع و بمن ارسل وما انزل فاذا جحد بهذه المبادئ فقد كفر بفطرته وزواها عن نفسه و كل من زوى فطرته عن نفسه فقد اطفأ سراجه الذي به يستنير وعلى ضوئه يسير .

و اذا فقد النور وقع في ظلمة و السائر في ظلمة خابط متحير ضالّ فالمنافقون الذين داسوا ضمائرهم تحت ارجلهم وقدّموا ميولهم على عقولهم قد استبدلوا بالهدى الذي هو من ايحاآت عقولهم و اخذوا في مقابله الضلاله لأنه ليس وراء الهداية الاّ الضلال ، و هؤلاء في متاجرتهم هذه فضلا عن اعطائهم الربح من ايديهم قد فقدوا اصل بضاعتهم والذي يفقد من غير قسر ولا الجاء اصل بضاعته و رأس ماله ليس من

المهتدين قطعا لأن الباعة و الشراه يمزون المجارى قبل كل شئ ثم يقدمون على المعاملة ان ساعدهم التمييز على ذلك و الآ فلا يتحركون قيد شعرة واحدة ·

فالضلالة هى النفاق و الهدى هو الفطرة الداعية للتعالى والتقدم و التجارة هى تصريفهم لفطرتهم فى المجتمع و استبدالهم مكانها بالعمى و التحيّر و الأنهدام ، و كلمة الأشتراء استعارة عن الأستبدال و الضلالة بمكان المثمن و الهدى بمكان الثمن و الربح ترشيح للاستعارة لأنه من لوازم المستعار وهو الاشتراء

* (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلمّا اضاءت ماحوله
ذهب الله بنورهم و تركهم فى ظلمات لا يبصرون) *

المثل هو التعبير الذى يصيب محزّ الواقع فى المناسبة التى يساق لها اكثر من غيره من العبارات و لذلك تسير الأمثال لأنس النفوس بها و انشراح الأذهان لها ، و وقد النار اشعالها والأضائة الأنارة وتقابلها الظلمة ، و لمّا أبان سبحانه عن حال المنافقين ابانات متنوعة جاء بعصارة لذلك ضمن امثال ضربها منها هذه الآية و هى ان حال المنافق بالهدى الذى أوتيه فى أطار فطرته الصحيحة و اعراضه عن هذا الهدى و استبداله بالضلالة عن عمد و قصد نزولا على اهوائه الخاطئة ومرضاة نفسه اللاطئة حال من كان مكتنفا بظلمة حالكة مغمورا بليل دامس فأستطاع ان يستوقد نارا ليزيل عن روحه الوحشة و يتميز بها ماحوله من حشرة مؤذية او دابة مردية ثم عن عمد و اختيار و سفه وعدم اعتبار يطفئ تلك النار و يخمدها فيرتكس فى وحشه اكثر ممّا كان و ظلمة اشدّ ممّا مرّ عليه ·

فأن قيل اذا كان استيقاد النار للمنافق و اطفاؤها منه ايضا فما معنى نسبة الأطفاء الى الله تعالى و تركهم فى ظلمات لا يبصرون قلنا قد اسلفنا ان الضلاله التى بمعنى اذهاب النور و اطفاء النار انّما ساورتهم لتمردهم على الله و على الفطرة التى قرنها بأصل خلقتهم و بذلك انقطعت عصمتهم منه فكأن الله الذى ائتمنهم على هذه الجوهره الغاليه وهى الفطره هو الذى اخذها منهم بأعراضهم عنها و نبذهم لها و استرجاع الفطره منهم اذهاب لنورهم و تغشيه لأبصارهم.

* (صمّ بكم عمى فهم لا يرجعون) *

الصمّ هو السدّ و صمام القاروره ما يشدّ به رأسها و البكم هو الأعتقال فى اللسان و العمى ذهاب ادراك البصر و الرجوع يختلف بأختلاف حرف التعديه فاذا قيل رجع عنه معناه استدبره و رجع اليه معناه استقبله و صمّ بكم عمى ليس خبرا على الحقيقه عن هؤلاء اعنى المنافقين لأنهم ليسوا واجدين لهذه العيوب الخلقيه بل يسمعون بآذانهم و يتكلمون بألسنتهم و ترى اعينهم و لكنه على التشبيه بالصمّ البكم العمى بمعنى انهم لا يستفيدون من هذه الأدوات حق الأستفاده منها فأن السمع ما سمع الحق لا غثاء الكلام و اللسان ما نطق بالحقيقه لا بالهذر والعين ما شاهدت محلّ العبره لا عاديّات المحسوسات و هؤلاء عطلّوا هذه الأجهزه الفخمه عمّا أريد بها من حقائق راهنه و اذا كانوا كذلك فهل ينتظر منهم الرجوع عن الباطل الذى اختاروه قصدا و الأقبال على الحق الذى تركوه عمدا .

* (او كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر المــوت و الله محيط بالكافرين) *

صاب المطر يصوب اذا نزل و السماء من سما يسمو يعنى علا وارتفع و الرعد صوت اصطكاك اجرام السحاب المثقلة و البرق نار تنقدح مــن هذا الأصطكاك و الصاعقة قصفــة رعــد تنقــض معها شقة مــن نــار نتيجه للأصطكاك العنيف بين السحب و الحذر هو الخوف و المــوت ابطال الحياه و التشبيهان فى المثل الأول (كمثل الذى استوقد نــارا ... الخ) و فى هذا المثل تشبيه هيأة مقتنصة من الكلام بهيأة اخرى مقتنصة من الكلام الذى شبّه به و ليسا من باب تشبيه مفردات بمفــردات كما جاء فى شعر امرئ القيس .

كأن قلوب الطير رطبا و يابسا

لدى وكرها العناب والحشف البالى .

و تشبيه هيئه متصيدة بهيأة نظيرها فى الشعر و النثر كثير كما فــى قولــه .

وقد لاح فى الصبح الثريّا كما تــرى

كعنقود ملاحيّة حين نــوّرا .

و قولــــــــــــه

كأن مثار النقع فوق رؤسنـــــــا

و اسيافنا ليل تهاوى كواكبــــه .

و قوله سبحانه مثل الذين حملّوا التوراة ثم لم يحملونها كمثل الحمار يحمل اسفارا ، و مدخول كاف التشبيه فى قوله تعالى او كصيب محــذوف

تقديره كذوى صيب ليصح اعادة ضمير يجعلون اصابعهم اليه و حذر الموت منصوب على انّه مفعول لأجله و نسبة الظلمات الى الصيب باعتبار ما يسبّبه من السحب الثقال التى تحول بين الأجرام المنيرة وما تحتها ·

شبّه اللّه كلمة الأيمان الصادرة من افواه المنافقين المحفوفة بالفتن التى يقومون بها عن طرف خفى و الشقاق الذى يوجدونه فيمن يهيمنون عليه بالمطر الذى يستصحب معه ظلمة شديدة و رعدا قاصفا و برقا خاطفا خالبا للعيون و صواعق متلفة ·

و من تمثيل حال المنافقين و المعاصرين من المؤمنين لهم تستفاد قضية عامة لحال المؤمن الواقعى بين كثرات المسلمين الذين سهمهم من الأسلام مجرد النسبة اليه من دون ان يكون لمعنوياته اثر فى تصرفاتهم فأن المؤمن بين أخوانه هؤلاء محدق به الخطر من كافّة جهاته و جهاتهم فلا يراهم الاّ لاعبين به و بمقدساته يقذف به هذا لذاك و ذاك لهذا كلاعبى الكرة و المسلمون الواقعيون اليوم هذا مثالهم فى ميدان الحياة ·

وكما ان المؤمن الحذر قد يجالس و يمارس المنافقين و لكن على دجل و اشمئزاز و حذر كذلك المحفوف بالمطر الموصوف يسدّ على نفسه مجارى ادراكه حتى لا تتوثب به نفسه من الخوف ·

و جملة و اللّه محيط بالكافرين و ان كانت استثنائية الاّ انها بمنزلة النتيجة لحال المنافق و جريه مع ربّه وخلقه بمعنى ان المنافق و ان قدّر لنفسه بنفاقه و دهائه وتلوّنه احراز حياة قد ادّى فيها ما يرضى باطنه وما يحفظ ظاهره ، ارضاء باطنه بانجرافه مع ميوله و حفظ ظاهره بتأمين نفسه وماله وعرضه من طريق ايمانه المصنوع الاّ انّه محاط به من مقام لا تخفى عليه خافية و يستوى عنده السّر و العلانية فأين يفلت بالمنافق ·

* (يكاد البرق يخطف ابصارهم كلّما اضاء لهم مشوا
فيه و اذا اظلم عليهم قاموا ولو شاء اللّه لذهب
بسمعهم و ابصارهم ان اللّه على كل شيء قدير) *

كاد من افعال المقاربة فقول القائل كاد يكون هذا الشيء بمعنى قارب ان يقع و الخطف هو الأخذ بانتهاب و المشي دون السعي و السعي دون العدو و قاموا بمعنى وقفوا لأن القيام حقيقة في الوقوف و قدير صيغة مبالغة لقادر .

و هذه الآية من تتمّات المثل الآنف و لكنها تستقل بمثل آخر فيراد بالبرق هنا لمعان الحق و الأيمان الذي ينطقون بكلمته و يشاهدون مواقع آثاره من هجوم الناس عليه و انتصار اهله على اهل الباطل و تحلّيهم من طريقه بكل صفة شريفة وخلة منيفة حتى كأن ايمانهم بهذا الدين قد خلق منهم اناسا غير أنفسهم قبل تلبسهم به فاذا جلبوا بصائرهم الى هذه الظاهرة المنيرة حصل لهم ضوء يمشون فيه بلا تعثّر و اذا عادوا الى نفوسهم و اعتزازهم بانانياتهم و طاوعوا حسدهم للنبيّ الذي كانوا يعتبرونه يتيما فقيرا معوزا وقد جاء به الدور الى ان صار سلطانا مطاعا و زعيما متبعا اظلم عليهم الوجود حقدا و حسدا و تحرّقا و غضبا فوقفوا متحيرين ماذا يفعلون لأطفاء تحرّقهم و ارضاء ميولهم .

وقد سبق في الآيات الآنفة انّهم صمّوا عن نداء الحق و بكموا عن اظهاره و عموا عن مشاهدة انواره لا لعطل في اجهزتهم بل ميلا بها عن الحق حتى لا تركن اليه عنادا و بغيا بلا داع سوى الأستجابة للتأزم النفسي البغيض فقال سبحانه تعقبا على ذلك انه تعالى قادر على ان يصيّر تصاممهم صمما و تعاميهم عن انوار الحق عمى و امالتهم

بألسنتهم عن النطق به بكما حتى يستريحوا من هذه المسؤليات و لكنهم بذلك تقل الحجة عليهم و القادر العادل ابدا يحاول اتمام الحجة وتوسعة العبرة وتمديد العظة حتى يحيى من حيّ عن بيّنة وحتى يموت من مات عن مثلها و هذا هو معنى العدل و الأنصاف

فالى هنا أبان سبحانه حال المؤمنين و الكافرين و المنافقين وليس وراء هذه الفرقان الثلاثة فريق حتى يتحدث عنه ،فاذا تميّز الأنسان حال كل من هؤلاء فى الرفعة و الضعة وحسن العاقبة و سوئها بمقتضى البراهين و الأمثال التى سيقت له صار حريا بعد اعطائه الكليات المركزة ان يتوجه اليه بخطاب و تمدّ اليه يد الأشارة الحاضرة بالتكليف النافع الذى يقوم بسعادته و بنيان شخصيته ولازم هذا هو الألتفات من الغيبة التى هى مساق القضايا الكلية المبرهنة الى الخطاب الذى هو مساق تعيين تكليف الطرف الذى سيقت له تلك الكليات ـ ارهاصا ـ و لذلك قال سبحانه بطريق الخطاب .

* (يا ايّها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتقون) *

يا حرف نداء للبعيد و نفس وضعها على ألف فى آخرها مشعر بذلك فأن مدّ الألف ممّا يطيل الصوت و اطالة الصوت بمنزلة التلويح باليد للبعيد ، واعبدوا بمعنى اظهروا عبوديتكم للّه و ابرز ما ينطوى تحت العبودية من معنى هو الأنقياد للمولى فى اوامره و نواهيه بل حتى فى اشعاراته و اشاراته فأن سعادة العبد منوطة بذلك فأن المولى الواقعى كالأستاذ المثقّف الذى لا يألو جهدا فى ارشاد تلميذه و تنمية شعوره و تغذية عقله و اخراجه علما وعملا بصورة جالبة .

و ربكم هو مالككم الحقيقى لأنه الذى خلقكم اى ابدعكم بعد ان لم تكونوا بالمرّة و هذه المالكية لا يستريب فى حقيقتها و واقعيتها احد حتى نفاة المالكية الفردية و ليس خلقه مقصورا عليكم انتم ايّها المخاطبون بل الذين كانوا قبلكم من خلقته ايضا و هكذا العالم كلّه فليس له شريك ولا رقيب ولا مشاكل ولا مماثل بل كل مافى الكون من ابداعه فقط و تحت مالكيته هو لاغير .

و لعلّ كلمة رجاء و اشفاق و تجىء فى كلام اللّه العالم بالغيب لمناسبات كلامية صحيحة منها تبشير الطرف بما لا يخرجه الى البطر او الأنقلاب عن وضعه الحاضر كما يقول التلميذ المبرّز فى امتحاناته لاستاذه الذى اعطاه ورقة امتحانه و وقف عليها بدقة هل ترانى يااستاذ من المقبولين فيقول له ارجو ان تكون مقبولا فأن هذه الكلمة تقف امام غرور التلميذ بنفسه و تستحثّه فى مجارى تلمذه على المطالعة و حسن التفهم عند المحاضرة و هكذا يريد المعبود من عبده .

و كما ان رصيد العباده هو الخوف و التحذر من الأهمال كذلك نتيجتها الخوف من الأنقطاع عن العمل و ارتكاب المعاصى فأن العبادات الشرعيه بلسانها العلمى و العملى ناهيه عن الفحشاء و المنكر ، و التقوى كما اسلفنا هو التحذر من مغبه الورود فى مطلب يعلم بمصيره الوخيم او يشك فأن احتمال الضرر وازع بالنفس العاقلة عن ملابسه ما يحتمل تأديته اليه ٠

اذن فالعبادات بطور مطلق من مصالح العباد انفسهم وبها تناط سعادتهم فى الدارين على الأخص الدنيا منهما فأن الآخره نتيجه للأولى و ليست بهدف مستقل فلم يكن الداعى للرب تعالى فى دعوته العباد الى عبادته الآ امتثالهم لأوامره و نواهيه القائمه بحفظ شؤنهم و الدارجه بهم فى الحياه على احسن مدرج به تحترم الحيثيات و النواميس و الدماء و الأموال و بدونه لا تكون سعاده ولا يحصل نظم وذلك من موجبات التطويح بالحياه البشريه على طولها ٠

* (الذى جعل لكم الأرض فراشا و السماء بناء وانزل
من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا
تجعلوا لله اندادا و انتم تعلمون) *

هذه الآية من توابع الآية السابقة التى استدل سبحانه على وجوب عبادته فيها بأنه هو المتوحد بالخلق فجعل هذه الآية من شوارح الحكمة فى الخلقة و انه تعالى ليس بخالق فقط كالصانع يصنع الصنعه و يلقيها من يده الى زاوية مهملا لها بل هو خالق مدّبر يراعى كل خير لمخلوقه و كل سعادة بها ينجح و يفلح لو طاوع الصانع الحكيم ·

فقال ايّها الناس ان خلقتكم بهذه الصورة مما تحتاج الى بساط تتبسط عليه و ترتاح بالسكون اليه و ذلك هو وجه الأرض المطمئن الذى جعله فراشا لكم و ضرب السماء عليكم كالقبّة تستنيرون بأجرامها وتتمونون من ريّق غمامها و جعل مادة الأرض من الأعدادات المهمّة للنبات وماء السماء لقاحا لها لينتج هذا الازدواج لكم من الثمرات الخارجة عن حدود الأحصاء المختلفة على الذوق والتأثير على المزاج فأذا تميزّتم ان كل عمل من هذه الأعمال الجبّارة يكفى بمفرده دليلا على عظيم الصنعة وعميق الحكمة هان عليكم ان لا تعرفوا فى قبال هذا الخالق اىّ كائن يفرض لأنّه احد مخلوقاته و واحد من مصنوعاته وهل يساوى بين الخالق و المخلوق ، و الأنداد جمع ندّ هى النظائر والأشباه وجملة انتم تعلمون حالية اى و الحال انكم تعلمون انه لا ندّ له بشرط الألتفات الى عالم الخلقة و ما فيه ·

فأن تخبطكم فى اودية الجهل ليس لأنكم فاقدون لمادة العلم بل لغفلتكم عنها فأن من الدواعى المهمّة لكفران الخلق بنعمة الخالق

انهم يرونها كثيرة مبذولة فيحسبونها وجدت من نفسها و انه لا منّه عليهم بها لكنهم متى صدّوا عنها و منعوا منها عرفوا لها من القيمة مالا تأتى عليه الألوف المؤلفة فنسمة من الهواء ترى الأنسان يشتريها لنفسه اذا أخذ منه بالمخنق بكل ما يملك و لو كان ما يملكه قناطير مقنطره من الذهب و الفضة احرازا لحياته ٠

* (و ان كنتم فى ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة
من مثله و ادعوا شهدائكم من دون اللّه ان كنتم
صادقين) *

لمّا ركّز سبحانه قبل هذا اركان التوحيد بأدلة فطرية ما عليها غبار السفسطة ولا عجر فية الأدلة الغامضة انتقل الى المرحلة اللازمة لوجود الصانع الفيّاض وهى النبوّة لأنّ اول الأفاضات المعنويه بعد الأفاضات المادية التى تقوم بأصل الخلقة هو تعديل المخلوقات و تسييرها على نظام به تسعد ومن طريقه تستثمر ما اودع فى خلقتها من اعدادات قابلة للتنمية و انما خصّ الكلام بنبوة نبىّ الأسلام لأنّها كانت معاصرة للمخاطبين بهذا الكتاب العزيز و لأنّها فى نفسها اعظم النبوّات ٠

و ان شرطية تفيد الشك فى مدخولها ولا يرد على علّام الغيوب استعمالها فى كلامه كما لا يرد استعمال غيرها عليه من ادوات التمنّى و الترجّى و نظائرها الفاقدة للجزم بالشئ فأنه سبحانه انّما يسوق حديث نفسه مساق ما يتخاطب به المتخاطبون فى امورهم الدائرة بينهم فأن القرآن كتاب انزل عليهم بلغتهم و بأطوار محاوراتهم لتؤدى به الوظيفة الراجعة اليهم من سرد عبرة و تقنين حكم و سوق دليل ووعد بما يعرفون و وعيد بما يتداولون الى غير ذلك ٠

و الريب هو الشك المخلوط بتهمة يقال رابنى هذا الأمر بمعنى انا متّهم له و العبد هو المملوك من جنس الناس بحكم الشرع لافى اصل الخلقة و السورة بغير همزة قطعة من القرآن تشتمل على آيات مأخوذة من سور البلد لأحاطتها بما تشتمل عليه من الآى و المثل ما شارك غيره فى الهوية و امتاز عنه بالتشخص الخارجى و الشهداء جمع شهيد بمعنى شاهد وهو الحاضر الذى يشهد لحضوره و الصدق هو الموافقة للواقع فى الحكاية عمّا له واقع .

و هذه الآية على بساطتها فى المفاد من اعظم الأدلة على اعجاز القرآن و انه من جانب الغيب فقط ولاحظّ للبشر فى تأليفه ببيان ان هذا القرآن مؤلف من جنس كلامكم و قائم بلغة تحاوركم فأن كنتم تتهمون الآتى به القائل انه من جانب الغيب و تزعمون انه من صياغته وانما نسبه الى الغيب ليعزز به دعواه ففنّدوه بالمعارضة فأن صنعة اللغة ملك لكم تتصرفون بها كيف شئتم فى شعر و نثر و فى انواع الكلام و الأدب بل لا تعرفون سواها فى المفاخرة و المكاثرة و لم يكلفهم ان يصوغوا مثله بتمامه من اوله الى ختامه كى يثقل عليهم ذلك وان كان لا داعى للثقل على اناس متكثرين عددا شديدين عداوة و مناهضة مبارزين بكل اساليب المبارزة بل اكتفى منهم فى مقام المعارضة بصوغ سورة من مثل ما نزّل على عبده ومع ذلك احجموا و افحموا .

و التحدّى آية واضحة فى كل مكان و زمان على صدق الدعوى و مدّعيها و المراد بدعوة الشهداء من دون الله احضار من يساندهم فى تكذيب نسبة القرآن الى الله و يشهد انّه من صنعة نفس محمّد وان لا يكتفوا فى تثبيت دعواهم بما تقوله العجزة عن اقامة الدليل يشهد

الله انى لم افعل او اننى فعلت ـ فأن طالب شهادة الله محيل على الغيب و الشهادة انما تكون فى الحضور بمقتضى اسمها لأنها مأخوذة من الشهود .

* (فأن لم تفعلوا و لن تفعلوا فأتقوا النار التي وقودها الناس و الحجارة اعدت للكافرين) *

فأن لم تفعلوا اى لم تأتوا بسورة من مثل ما نزلنا على عبدنا فكلمة الفعل كناية عن هذه الجملة المستطيلة جيء بها لأختصار الكلام مع قيامه بالمفاد الذى يعطيه التفصيل و لن حرف نفى للمستقبل يفيد التأبيد و معنى ذلك انا تحدينا بهذا القرآن المنزل على عبدنا فلم تحصل منكم المعارضة ولا تحصل ابدا لأن الذين يجيئون فى المستقبل منكم لا يملكون اكثر من بضاعتكم الموجودة عندكم فاذا كنتم مع توفرها لديكم قاصرين عن المعارضة فأن القصور سيماشى اولادكم و احفادكم على الأجيال و كذلك كان الأمر .

فأن المتأخرين من اهل اللسان لم يزيدوا فى حسن الصياغة و السبك على المجيدين من القداما اصلا و المحسنات اللفظية والمعنوية التى دونت اخيرا لها وجود واسع فى لغة العرب و الدليل عليه استشهاد المتأخرين بما صدر عن المتقدمين فى ذلك راجع لما ذكرناه ابواب المعانى و البيان و البديع يتجلى لك صدق ما قلناه بوضوح .

هذا من الوجهة اللسانية و اما من الوجهة المعنوية فأن اهداف القرآن بالنسبة الى الأجيال التى عاصرته منحصرة بها ولا يشركها شيء الا فى طرف ضعيف و اما بالنسبة الى الأجيال الأخرى فهى شرقيها وغربيها المتلمذ على شرقيها فى الادوار الأولى و الوسطى آخذة منه

متفرعه عليه واما القوانين الجاريه بين دول اليوم فجيدها ميراث ما تركه القدامى و رديئها ما لا قيمة له فى المنطق الرزين ، و دليل ذلك ان الأنسان العادى اليوم لا سهم له من القانون و الوجود سهم النافذين كما كان فى الحكومات المستبدة .

فاذا انقطعتم ايها المشركون عن المعارضة ثبت فى نفوسكم قطعا صدق دعوى محمد ومن دعوى محمد انّ هناك معادا على الله و جنّة للمطيع و نارا للعاصى فاتقوا تلك النار التى من صفتها ان مادة ماتوقد به ابدان الناس العصاة و الحجاره التى كانوا يناهضون الله بها و يتخذونها بديلا عنه و فى ذلك من التعجز لبناهم البدنية عن المقاومة لهذه النار التى من شدة تكالبها و حدة توقدها تذيب الحجر الأصم ما يأخذ بروعهم .

و الأعداد هو التمهيد و سيجىء فى مقام آخر هل ان النار والجنّة اللتين يفىء اليهما المتقون و العاصون يوم القيامة بعد تمام الحساب وارجاع كل فريق الى نصابه لايعقل فيهما ان يكونا بالفعل مخلوقين واذا لم تكونا بالفعل كذلك فهل للأعداد و التمهيد بالفعل يكون معنى راشد و مقصد صحيح .

* (و بشّر الذين آمنوا و عملوا الصالحات أنّ لهم جنّات تجرى من تحتها الأنهار كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل و أتوا به متشابها و لهم فيها ازواج مطهّرة وهم فيها خالدون) *

البشارة هى اول اخبار بما يسرّ و الأعمال الصالحة هى الأعمال الحسنة نصّ على حسنها الشرع او قام به العقل السليم و الجنة هى البستان المتكاثف الشجر و النبات حتى انه ليستر الماشى فيه بشجره و نباته ، ومن مادة الجنّة الجنّة للدرقة و الجنين فى بطن الأم والجنون الساتر للعقل و المتشابه المتشاكل والزوج هو المشاكل لمثله و المطهّره المبعدّة عن الأدناس و الخلود الدوام ·

شاكل سبحانه بين ماسلف من ترهيب الكفّار بالنار و بين ما هنا من بشارة الأخيار بالجنان وكما ان المشاكلة تقال حيث يتماثل الشىء مع الشىء تقال حيث يتقابل تقابلا يجرّ ذكر احدهما بحجزة الآخر اليه كما نحن فيه والتبشير و الأنذار بالأصالة للانبياء الذين يعربون عن الباعث لهم وهو من ارسلهم و اتخذهم اداة تعبير و ايصال لمقاصده و بعد ذلك لكل من يملك صلاحية ذلك وهم علماء الدين الأبرار ·

اى يامحمّد اخبر عنّى عبادى الذين آمنوا بى فساقهم الأيمان الى العمل الصالح النزيه عن كل نقص أنّ لهم جزاء اتعابهم منازل ومواطن قائمة بكل ما يسرّ و ينعش شجر خفّاق وماء رقراق و كلّما رزقوا للطعام من تلك الجنان من ثمرة قالوا هذا نظير لما رزقنا من قبل فى الحياة الدنيا فى الجنس فهذا عنب كذاك وهذا تين و هذا رمّان الى ما شاء

اللّه و جيء اليهم به متشابها به هو وما عهدوه فى الدنيا من حيث الجنس و الصورة العامّة حتى يعرفوه ولا يستغربوه ولا شكّ فى لزوم امتيازه عمّا عهدوه من عدّة نواحي كونه اطيب و احسن و اشكل و اذوق و كونه لا مؤنة ولا تعب فى تحصيله و كونه صالحا لا يفسد على كل حال و كونه دائم الحصول متى اشتهوه و كونه فاقدا لمقارنات السوء التى تبطل فائدته .

و ذلك كلّه تحقيقا لمعنى البشارة و حسن الجزاء و امتيازا عن العاصى الذى قد يكون أفان فى دنياه اضعاف ما افاد المؤمن الميسر كما هو كذلك بالفعل فأن المتمّرد الذى لا يقف دين امامه قد يستفيد من لذّات الدنيا مالا يستطيع ان يستفيده المؤمن المقتدر وفرقا بين الدنيا و الآخرة فنعمة الدنيا التى تحتاج الى مؤنة يجب ان تكون فاقدة لذلك فى الآخرة و نعمة الدنيا التى تصلح احيانا و تفسد احيانا اخرى و تتهيأ مرّة ولا تتهيأ مرة ثانية و تقارنها اتعاب البدن و اقلاق الخواطر يجب ان لا تكون نعمة الآخرة مثلها فى ذلك و الاّ لم تتفاوت الحال فلا تكون لمرازه العمل الصالح مزية كما هو واضح .

كما تبشّرهم ان لهم فى دار الجزاء نساء تزاوجهم و تشاكلهم فى اخلاقهم و اذا كن كذلك كنّ محل رضاية و رغبة و هواية للأزواج و هذا معنى تطهيرهنّ فأن مثل السوء القائم على الزوجة انّما هو لتلبسها نوعا بذمائم الصفات الأنسانية من جهل و انحراف و تعنّت وعدم ايمان و بذاءة لسان وعدم تحرّج من ارتكاب الباطل هذا من ناحية اخلاق المعاشرة و أمّا من الجنبة التكوينيّة فيجب ان يكون فيها من الفوارق ما ذكرناه فى نعمة الأستمتاع بالثمر فى الجنّة .

و جعل ختام البشارة لهم بذلك دوام هذه النعم لهم فأن نعم

الدنيا و مهما تمهّدت لأنسان فأنها محدودة بزمن الشبيبة و تتلوها الكهولة وما اقل هذه الفواصل ولا شك فى عالم الأديان بخلود المؤمنين فى دار نعيمهم اذلا مأوى سوى ذلك و انّما الكلام فى خلود غيرهم فى العذاب و سيجيء التحدث عنه فى محله هذا كله بالنسبة الى هواة المادة فى الدنيا و امّا المعنويون فيرون ان رضوانا من الله اكبر من ذلك .

* (ان الله لا يستحى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأمّا الذين آمنوا فيعلمون انه الحقّ من ربّهم و امّا الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضلّ به الاّ الفاسقين) *

الحياء تغيّر يعترى الأنسان من فعل ما يخاف الذّم عليه والضرب يقع على كثير من الأعمال فيقال ضرب فى التجارة و فى الأرض و ضرب بيده الى كذا عمل و ضرب هذا المطلب مثلا و كل هذه الضروب بمعنى العمل نفسه فمعنى ضرب فى الأرض انه عمل فيها بالسير و ضرب فى التجارة بمعنى عمل فيها كذلك وقس الباقى ومعنى ضرب هذا المطلب مثلا انه عمل فيه بما صيّره سائرا بين الناس و ذلك انه اصاب محزّ الواقع فيه اكثر ممّا يصيبه كلام غيره فاستذوقه الناس فطار بينهم و كلمة — ما — بعد مثلا لزيادة الأبهام فأن كلمة مثلا نكرة فلا تشعر بمعيّن فأذا أضيف اليها لفظ ما ازدادت ابهاما و الفرق بينهما معرّاة عن ما و مقرونة بها كالفرق فى قولك اعطنى كتابا و اعطنى كتابا ما فأن التنكير فى كتاب الأول اخفّ منه فى كتاب الثانى و انّما يستعمل هذا الأقتران بما للتنصيص على التنكير بأن المتكلم لا يريد شيئا معيّنا من الكتب

او الأمثال و انّما يريد كتابا و ايّ كتاب كان و مثلا و ايّ مثل فـرض و البعوض يقال انّه صغار البقّ و اشتقاقه من البعض وهو القطع وبعض الشيء هو القطعة منه و نصبه على انّه عطف بيان من ـ مثلا ـ وما فوقها هنا و فى نظائره يجوزان يراد بها التصاعد اى فوق البعوضة فى الكبر كما يجوز ارادة التنازل اى دون البعوضة فى الصغر ، و امّا اداة تفصيل تعطى معنى الشرطية و لذلك يقدّرونها بقولهم مهما يكن من شيء فالأمر كذا و الحقّ هو الأمر الثابت يقال حقّ المطلب اذا ثبت والأرادة هى القصد وكلمة ماذا هنا و فى نظائر الباب استفهامية متعقبة بأسم موصول بمعنى ماالذى او انّها كلمة واحدة لا تتعدّى الأستفهام او ان ذا زائدة و الأستفهام منحصر بما وحدها و الأضلال الأتاهة و الفسق هو الخروج عن القصد المنظور و الفاسق فى الشرع هو المنحرف عن النظام الشرعى كأن لا يأتمر اذا أمر ولا ينتهى اذا نهى هـذا ادب الآية و لغتها .

و امّا جهة نزولها فروى انّ اللّه سبحانه لما ضرب للمنافقين المثلين السابقين (كمثل الذى استوقد نارا) (او كصيّب من السماء) قال المنافقون اللّه اعلا و اجلّ من ان يضرب هذه الأمثال لما دار فى وهمهم ان العظماء لا يسجعون لأن السجع للكهّان ولا يضربون الأمثال لأنّها للقصّاص فهم يتعالون بالعظماء على الأخص الروحيون منهم عن ضرب الأمثال و سرد الأشعار فردّهم اللّه تعالى عن هذا الخطأ المفتضح بأن ضرب المثل انّما هو لتوضيح المطلب وازالة المفهوم بصورة تجسيم المجسّم فأن كل مطلب يقرب الى فهم الانسان و ينشرح الى نفسه يكون به اعلق و بفهمه اوثق و لذلك يستعين البلغاء المصاقع بضرب الأمثال لتثبيت معانيهم الغامضة الدقيقة حتى يفهمها

المخاطبون بجلاء اذن فليس فى ضرب المثل الاّ الحكمة ولا يتعالى على الحكمة احد : و روى ايضا ان الله سبحانه لما ضرب المثل بالذباب و العنكبوت تكلّم فيه قوم من المشركين وعابوا ذكره فأنزل الله هذه الآية منددا بهم بتوضيح انّ القبيح انّما هو ضرب المثل الحقير للمطلب الخطير فأن فى ذلك اهانة له حيث لا تحقّ هذه الأهانة و امّا سوق المثل الحقير بمادّته لما هو مثله فهو عين مراعاه الحق ولا هوان فيه على القائل ولا المقول فيه فأن التعبير عن الصغير بالصغر عين الحقيقه ولا غمط فيه بل ذلك من اللازم .

و امّا معنى الآية فهو انّ الله سبحانه لا يتخوّف ولا يحذر من احد ان ضرب مثلا حقيرا لما هو مثله لا لأنّ قدرته فوق كل قدرة فهو يسيّر ارادته بعنف القوّة بل لأن ذلك حقّ المطلب و من اجله نرى الذين يؤمنون بالحقائق من طريق المنطق يحكمون على ضرب هذه الأمثال بأنه الحقّ من ربّهم لا ماسواه و امّا الذين انستر عليهم وجه الحقيقة لأعراضهم عن التشوّف اليه فيقولون ماذا اراد هذا الوجود العظيم بهذا المثل الحقير الذى ضرب للناس .

فالله سبحانه بهذه الأختبارات الحتّة يميّز الضالّ من المهتدى فأن الضالّ المتعنت دائما يفتّش عن وجه نقص فى قبال ما ضلّ عنه و بان منه و المتحرّى للحقيقة دائما واصل اليها قابض بكلتا يديه عليها مهتد بأنوارها وهو ابدا على طرف نقيض للضال فأن الضالّ بتعنته على الحقّ يزداد فى البعد عنه و المهتدى بقربه له يتدانى منه حتى يؤل به الأتصال منه الى الفناء فيه فيكون محض الخير كما ان الضالّ يعود الى محض الشرّ و الأختبارات كلّها من الله فهى بالمعنى الذى اسلفناه سبب لأضلال كثير و هداية كثير وطبعا لا يضلّ الاّ الخارج عن

لاحب الطريق المنحرف عن القصد القويم و امّا العاقل فيكون الأختبار طريق سعادة له و تقدّم فأنه بالأمتحان يكرم المرء او يهان ٠

* (الذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر اللّه به ان يوصل و يفسدون فى الارض اولئك هم الخاسرون) *

النقض يقال فى مقابل الأبرام وهو حلّ المبرم بعد فتله و العهد هو العقد و الموثق المأخوذ من الطرف و نسبة النقض الى العهد كنسبة المخالب الى المنيّة فى قولهم مخالب المنيّة نشبت بفلان ممّا يدلّ على ان العهد قد شبّه بالحبل فكما ان الحبل سبب و اصل بين الطرفين الآخذين بطرفيه كذلك العهد بين المتعاهدين فلما حذف المشبه به و ابقى المشبّه وحده نسب الى المشبّه ماهو من لوازم المشبّه به وهو النقض وهذا ما يسمّيه اهل البيان استعارة بالكناية ٠

و الميثاق هنا بمعنى التوثق و الأحكام و القطع هو ايجاد الفصل بين المتصلين و يقابله الوصل و الأفساد ايجاد الفساد وهو هدم صلاحيات الشيء عن الأنتاج و الخسران هو النقصان ٠

وعهد اللّه هنا هو الوثيقة العقلية التى زوّد بها المكلفين لتكون مصباحا يستضيئون بها و يعملون على موجب انارتها فنقض هذا العهد اطفاء هذا المصباح بالأعراض عنه : و الذى امر اللّه به ان يوصل هو الأيمان بالحقائق كلّها ومن نتائجه مواصلة الأنبياء و العلماء والصلحاء و الأرحام و المؤمنين و كل من يبعد عن عقله يبعد عن هؤلاء بالأسر كما يجيء من طريق جهله خابطا عابثا مفسدا لأن الأصلاح ليس من مظان الجهلاء و كل من خسر عقله فهو بالحقيقة خاسر لكل شيء وهو الخسران

المبين : واذا راعينا نظم هذه الآية بما قبلها جعلنا الذين ينقضون صفة لقوله فى السابقة الاّ الفاسقين فتكون جملة اولئك هم الخاسرون جملة بحيالها فى التركيب وليست خبراً للذين ينقضون وان ارتبطت بها معنى .

* (كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون) *

كيف اداة استفهام يسأل بها عن الأحوال والأعراض وهى هنا لأفادة التعجّب والأنكار بأن الذين يظهرون عقيدة الكفر بالله كيف ساغ لهم ان يتبطّنوا هذه العقيدة وكل واحد منهم ادرك من نفسه انه قبل تنزّل نطفته كان عدما خالصا وبعد تنزّل نطفته وانعقادها كان عادما للحياة الفعلية وان كان فى طريقه اليها ثم بعد الحالين جاء واجدا لمجموعة جهازات حيّة فعالة منتجة لآثار لا تعد ولا تحصى ويعلم ان كل ذلك ليس منه ولا من ابويه ولا من انسان آخر فلابد حينئذ ان يدلّه عقله على فاعل وراء هذه الأمور الطبيعيّة القاصرة عن خلقه وايجاده وذاك ما يصطلح عليه (الله) .

ففى كونهم امواتا ثم تلبّسوا بالحياة دليل واضح على لزوم الخالق ووجوده وامّا انه يميتهم للمعاد عليه والحساب بين يديه فهو اخبار منه لا تتم الحجة به الاّ على من يعتقد به لا على الكافر فهذه القطعة من الآيه ليست من الأدلة القائمة للمخلوق العاقل ومن اجلها استنكر عليه الحاده بالمبدأ الفعّال .

* (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسوّاهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم) *

الخلق هو الأبداع واللام فى لكم للعلّية وشبه الملكية اى ابدع من اجلكم مافى الأرض جميعا لتتمتعوا به ولتتخذوا منه اداة تقدّم لكم فى الحياة الفضلى وهذا يدلّ على ان الأصل فى الأشياء الأباحة : وثمّ للترتيب مع التراخى فى الزمن هذا اصلها وقد تستعمل لغير ذلك كما فى تعداد المنعم نعمه على آخر حيث يقول له اننى جلبت لك كل خير ثم اننى منعت عنك كل مريد لك بسوء ثم لحظت حالك فى الأشياء فكلمة ثمّ هنا لم يرد بها التراخى ولا الترتيب بكون اللاحق فى اللفظ لاحقا فى الوجود ايضا وانّما اريد بها ايجاد فواصل فى تبيين النعم وتعديدها.

والأستواء هو الأعتدال يقال فلان استوى قصده اى اعتدل فلم يمل به التردد من جانب الى جانب بل ثبت واستقرّ فمعنى استوى الى السماء قصد اليها بالخلق او بالتوزيع فسوّاهنّ اى صيّرهن سبع سماوات اى سبع فواصل ولم يفعل ذلك سفها وعبثا بل عن علم وتقدير حكمة .

فعلى هذا المجرى الذى رسمناه لا يلزم من الآية ان يكون خلق الأرض قبل خلق السماء او قبل توزيعها الى سبع سماوات ولا يفهم من السبع السماوات اكثر من توزيع العالم العلّوى اليها كما يقال وزّع الملك بلاده الى سبع مناطق لكن ماهى تلك المناطق وعلى ايّة حال هى وما المنظور بها هذا مالا يستفاد من التركيب المذكور اذن فلا منافاة بين ما تقوله الهيأة الجديدة ان ثبت لها معيار صحيح وبين ماجاء فى الكتاب المجيد .

* (و اذ قال ربّك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة
قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء
و نحن نسبّح بحمدك و نقدّس لك قال انى اعلم
مالا تعلمون) *

اذ ظرف زمان للماضى ملازم للأضافة الى الجمل و القول موضوع للحكاية عن النفس او الغير فقال زيد كذا بمعنى حكى وربّ الشيء صاحبه المتصرف فيه و الجعل يستعمل بمعنى الأبداع و التصيير فيقال جعله اى ابدعه و يقال بمعنى صيّره و حوّله من صورة الى صورة والملائكة جمع ملك و قال الأكثرون فى اشتقاقه انّه من الألوكة وهى الرسالة وانّما سميت بذلك لأنها تلاك فى الفم و يقال الكنى اليه اى ارسلنى وكان الحق ان يقال فيه مآلك و لكنهم قلبوه الى ملائك و خفف الملك بحذف همزته و الحقت التاء بالجمع لتأنيث لفظه و خليفة الأنسان من يخلفه مكانه و يقوم مقامه و سفك الدم اراقته و الدّم منقوص الآخر واصله دمى بدليل تثنيته (حيث يقال : دميان) والتسبيح التنزيه و الحمد هو المدح و الثناء و التقديس التطهير .

لمّا ذكر سبحانه فيما سبق نعمه على عباده بأحيائهم بعد موتهم و ابداعهم الى الوجود و خلق مافى الأرض جميعا لهم امر نبيّه بأن يذكر لهم عن لسانه اصل خلقتهم و بدئها و كيفية تسلسلهم فى الأجيال .

و الداعى الذى دعى الربّ سبحانه ان يظهر للملائكة جعله فى الأرض خليفة امّا لأختبارهم ماذا يكون منهم على اثر هذا الحادث وامّا تقريرا لحسن المشورة فى الأعمال التى يقوم بها من لاعلم له بغيب

الأمور حتى لا يتورط فى المشاكل و خليفة النكرة لا يشعر بمفاد معيّن فقد يكون معناه اننى جاعل فى الأرض خليفة للجيل المنقطع قبله او خليفة يخلفنى فى الأرض و يقوم مقامى فى الأمر و النهى وهو دليل نبوّة آدم على هذا التقدير و الذى يلوح من قول الملائكة اتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء — انهم رأوا جيلا سابقا كان على هذه الصفة :كما لا يشعر قولهم و نحن نسبّح بحمدك و نقدس لك : ارادتهم للأنفراد بأنفسهم فى الأرض :و قول الربّ تعالى لهم انى اعلم ما لا تعلمون يفيد لزوم التسليم للمصالح الخفيّة اذا كان الطرف حكيما وان لم يؤد ظاهر الشور اليه .

* (وعلم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة
فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) *

اختلفت الأقوال فى المراد بالأسماء و لكنّ الذى ترشد اليه الحكمة هو انّ الله سبحانه ألهم آدم ماله خلقت البشرية وما عليه تتوقف حياتها الفضلى ومن ذلك اللغة التى تبيّن المقاصد و تقوم بموضوع التفاهم و العارض على الملائكة يجوز ان يكون هو الربّ تعالى كما يجوز ان يكون هو آدم بأمر منه ولا شكّ ان هذا العرض لا يمكن ان يكون من طريق طبيعى لأن الطبيعة قاصرة عنه الاّ فى زمان مديد جدّا فلابد ان يكون العرض الهاميا اى انّ ما علمناه آدم هو هذا الذى نقشناه فى نفوسكم ففصّلوا اسماء هذه المسمّيات ان كنتم صادقين فيما دار فى انفسكم ان الذى اخلقه خليفة للماضين جيل مفسد سفّاك و آدم ان كان اسما اعجميا فلا يدرى ما معناه و ان كان عربيا فقيل اشتقاقه يناسب ان يكون من اديم الأرض او من الأدمة فى الألوان .

* (قالوا سبحانك لاعلم لنا الاّ ما علّمتنا انك انت العليم
الحكيم) *

يعنى ان الملائكة بعد ما وقفوا على جليّة الأمر وان الذى خلقه الله خليفة للجيل الماضى او خليفة له فى الأرض خلقة ممتازة بالعلم و الثقافة العالية وكان سبق منهم ان قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء رأوا من لازم الوظيفة الانابة الى الله بالأعتراف بعدم العلم وان ماصدر منهم ما كان يحق ان يصدر و انهم لا يملكون من العلم الاّ ما علّمهم ربّهم فسبحانك اسم مصدر من سبّح تسبيحا بمعنى تنزيها لك يارب من العيوب و النقص فانك انت العليم بكل شئ ولاعليم سواك و انت الحكيم الذى يضع الأشياء موضعها و يحكم خلقتها ويتقنها.

* (قال ياآدم انبئهم بأسمائهم فلمّا انبأهم بأسمائهم
قال الم اقل لكم انى اعلم غيب السموات و الأرض
و اعلم ماتبدون وما تكتمون) *

يعنى انّ آدم (بأمر الله) لمّا عرض مسمّيات الأسماء (وانّما جاء بالضمير المضاف اليه اسماء) مذكرا بأعتبار تغليب العقلاء الذين فى غمار ما عرض عليهم من الأسماء على الملائكة وقال لهم انبئونى بأسماء هؤلاء و اعترفوا بأنهم لاعلم لهم الاّ ما علّمهم ربّهم امره سبحانه بأن يطبّق لهم اسم كل شئ على مسمّاه و ان مرتفعات الأرض جبال مثلا و منخفضاتها اودية وما الى ذلك ففعل آدم و بان لهم فضله وعلمه و تفوّقه عليهم و ان الذى قصده مقصد له ثمنه و قيمته فهناك التفت اليهم و ذكّرهم بما سلف من قوله حيث قال انى اعلم ما لا تعلمون وغيب

الشئ سرّه و الأبداء الأظهار و الكتمان الأسرار ٠

* (و اذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الآ ابليس ابى و استكبر وكان من الكافرين) *

اذ هنا عطف على اذ السابقة حيث قال تعالى و اذ قال ربّك للملائكة و السجود فى اصل اللغة الخضوع و التذلل وفى اصطلاح الشرع وضع الجبهة على الأرض بكيفية خاصة : والسجود كان لآدم بأمر من الله تعظيما و تكرمة له لا انّه كان لله و آدم قبلتهم فى ذلك بدليل ان ابليس انّما امتنع حيث كان السجود لآدم لا للربّ تعالى و ابليس اسم اعجمى و ليس بمشتق و الأباء الأمتناع و الأستكبار طلب الكبر و التظاهر به ممّن ليس بأهل له و انّما حكم الله سبحانه بكفر ابليس حيث امتنع عن السجود لآدم فى حال ان مخالفة الأمر انما توجب فسقا لا كفرا لأنه استكبر على الله وردّ عليه و تعاظم على امره و جادله بأنه خير ممّن امره بالسجود له ومثل هذه الحالات من اىّ مكلف صدرت حكمت بكفره لأن الفاسق من فسق بعمله لا بعقيدته و استثناء ابليس من الملائكة استثناء منقطع لأنه من غير جنسهم كما سينص القرآن عليه انه كان الجنّ و يجوز ان يكون متصلا باعتبار كونه فى غمار الملائكة و محشورا معهم و انه واحد بين من لا يحصى عدّه منهم ٠

* (و قلنا يا آدم اسكن انت و زوجك الجنّة وكلا منها
رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا
من الظالمين) *

السكنى من السكون و الأطمئنان و انت ضمير منفصل اكّد به الضمير المستتر فى اسكن ليكون رصيدا فى صحة العطف عليه بقوله و زوجك و الرغد السعة فى العيش و نصب على انّه صفة لمصدر محذوف اى اكلا رغدا او مصدر منصوب على الحالية و القرب الدنوّ و الشجر ما قام على ساق و الظلم انتقاص الحق ٠

يعنى بعدما تمّ خلق آدم و زوجه منه او انه خلقة ابتدائية ويسمّى هذا الزوج بحوّاء امره سبحانه بأن يسكن هو و زوجته الجنّه و الألف و اللام فى الجنّة للعهد الجنسى كما تقول لصاحبك ادخل السوق و اشتر اللحم و المراد ما اعدّه سبحانه لسكناهما من الجنان او ما كان معدّ الجهة لا نعلمهما بالفعل و ليس العهد فيها لجنّة الخلد لأن كل شيء قبل يوم القيامة هالك الاّوجهه اذن فليس قبل الآخرة جنّة خلد و امرهما بالأكل امر اباحة بمعنى انكما مسوّغان من الأكل كيف شئتما و حيث ظرف مكان للأبهام بمعنى فى اىّ مكان منهما اردتما و الشجرة التى نهيا عن قربها قيل هى شجرة الحنطة وقيل هى الكرمه وقيل هى التينة و المنظور من استثناء هذه الشجرة هو الأختبار وهو اوّل اختبار و وجه به المكلف من الناس ٠

و بناء على نبوّة آدم و لزوم اعتبار العصمة فى الأنبياء يكون النهى فى لا تقربا نهى نزيه لا نهى تحريم و بأعتبار ان مقام النبوّة مقام عظيم يعتبر ان ارتكاب خلاف الأولى من النبىّ كالمعصية تستوجب عتابا مرّا

و انّما سمى تعالى القرب من هذه الشجرة ظلما لأن النعيم الواسع اذا جعله المولى تحت اختيار العبد ومنعه ان يقرب من شئ طفيف لا اثر له بالنسبة الى تلك السعة ومع ذلك تعلقت نفس العبد به عدّ ذلك العبد متطرفا جدا ·

* (فأزلّهما الشيطان عنها ،فأخرجهما ممّا كانا فيه ،
و قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ،ولكم فى الارض
مستقر و متاع الى حين) *

زلّة الرجل زوالها عن مكانها المطمئن بها،الهبوط ما كان من اعلا الى اسفل و منه قولهم هبطنا مكان كذا اى نزلنا عن رواحلنا الى هذا المكان و كذلك معنى اهبطوا مصرا و العدوّ مقابل الولى وهو الذى تجاوز مقام المحبّة الى ضدّها و القرار الثبات و المتاع ما يتمتع به ويتلذذ و الحين قطعة من الزمان مبهمة ·

يعنى ان الشيطان بوسوسته لهما سبّب لهما انجرافهما معه عمّا كانا مطمئنين فيه فكان تسبيبه هذا سببا فى اخراجهما ممّا كانا فيه من النعمة و الرفاهية و العيش المتسع و الاّ فالفاعل للاخراج هو اللّه سبحانه حيث لم يأتمرا بأمره استصلاحا لهما بهذا التأديب ·

و اذا كنت عرفت معنى الهبوط فليس معنى اهبطوا انزالهم من السماء الى الأرض بل قد تكون الجنّة التى اسكنا فيها ليست خارج الأرض وقد يراد بالهبوط التنزّل المعنوى من حيث الدرجات و واو الجمع فى اهبطوا حال ان المخاطب اثنان لا جماعة جوّزها ارادة آدم وحواء وما يحملان فى اعدادهما من ذرّية واولاد او ان المراد بها آدم وحواء و ابليس فاذا كان المراد بها هذا المعنى الثانى كان معنى

بعضكم لبعض عدّو واضحا جليا فأن عداوة ابليس لآدم نشأت من امر الله له بالسجود له و استكباره عن ذلك بما سبّب له الطرد و اللعنة وعداوة آدم و حوّاء له نشأت من تنزّل درجتهما عند الله بسببه و وسوسته .

و ان كان المراد بواو الجمع هو المعنى الأول فالمعنى انكم بتسبيبات بعضكم لبعض سوف تتحاسدون و يبغى فريق منكم على فريق فيكون ذلك سبب عداوتكم و جملة بعضكم لبعض عدّو حالية و لكم ضمير خطاب للجمع فأن اريد به الثلاثة آدم و حوّاء و ابليس فمعنى استقرارهم فى الأرض الى حين هو فراق الأستقرار و التمتع بالموت و ان كان المراد مجموعة بنى آدم فمعناه الى حين حلول الآجال .

* (فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه انّه هو التواب الرحيم) *

التلقى هو الاخذ بالقبول و الكلمة اسم جنسها كلم و الكلم بفتح فسكون هو الجرح وجهة التناسب بينهما ان كلا من الكلام و الجرح له تأثير فتأثير الجراحة فى البدن و تأثير الكلام فى النفس و تاب اذا رجع و التوبة فى علوم الشريعة معناها الندم على ماسلف و تدارك ماهو قابل للتدارك و الأقلاع عن المعاصى حالا و توطين النفس على عدم المعاودة للذنب استقبالا و التوّاب صيغة مبالغة لقبول التوبة امّا بمعنى انه يقبل التوبة بعد التوبة او انه يقبل التوبة حتى عن المعاصى العظام و الرحيم هو المتفضل بقبول التوبة .

و الآية فيها اختصارات غير مخلّة و بسطها ان آدم لمّا انجرف مع وسوسة الشيطان فزّل من اجل ذلك توجه الى ربّه متضرعا و طلب من

الله تعالى ما ينجوا به فعلّمه هو و زوجه ان يقولا ربّنا ظلمنا انفسنا الى آخر الآيه فتلقيا عن ربّ العزّة هذا القول برحابة صدر و اقبال نفس فلمّا تاب آدم تاب الله عليه لانه تعالى رحيم بعباده يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ·

* (قلنا اهبطوا منها جميعا فأمّا يأتينّكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) *

الآتيان و المجيء نظيران و الهدى ما يهتدى به من نبّى مرسل و نظام واضح و الخوف يقابل الأمن وهو هيجان النفس و اضطرابها و الحزن يقابل السرور وهو انقباض النفس كرّر سبحانه قوله قلنا اهبطوا منها تأكيدا لما سلف و تدليلا على التذمر ممّا صدر و ارصادا لقوله فأمّا يأتينكم منى هدى اى رسول هادى او نظام مصلح فمن تبع رسلى و اطاع تكاليفى فلا خوف عليهم من اهاويل يوم القيامة ولا هم يحزنون من ويلات ذاك اليوم ·

و واو الجمع فى اهبطوا مع تعقبه بقوله فأمّا يأتينّكم منى هدى تفيد ان المنظور بها وراء آدم و حوّاء من فى اصلابهما من ذريات كما يستشعر ان التكاليف اقترنت بهم بعد الهبوط و ان منشأها الأختبار الذى صدر مع آدم بالنسبة الى الشجرة و نفى الخوف كما يتناول الآخرة يتناول الدنيا ايضا فأن الماشى على وضح الحق آمن فرح ·

* (والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار
هم فيها خالدون) *

الآيات جمع آية و هى العلامة على كل شئ سيقت له و هذه الآية فى قبال قوله آنفا فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وتكذيب الآيات نفيها من اصلها و ادّعاء تمويهها و الخلود فى النار لمن يبقى الى الموت مصرّا على كفره و تكذيبه لآيات ربّه مستفاد من الآية و سيأتى لهذه المسئلة تعرض اوفى من هذا ·

* (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم
و اوفوا بعهدى اوف بعهدكم و ايّاى فارهبون) *

الأبن هو الولد الذكر و جمعه بنون و اسرائيل اسم اعجمى ليعقوب بن اسحاق بن ابراهيم و اذكروا معناه ارجعوا الى ذاكرتكم و حفظكم و الوفاء هو العمل على موجب العهد المقرر بين المتعاهدين و الأرهاب الأخافة و جهة ارتباط هذه الآية بما قبلها هى ان الآيات السالفة تتحدّث عن آدم ابى البشر و بنيه بطور مطلق و هذه الآية وما بعدها الى عدّة آيات تتحدث عن فصيلة من بنيه لها دوىّ فى تاريخ الأمم فهى من ذكر الخاص بعد العام : و المراد بالنعم التى ذكّر اللّه بها بنى اسرائيل هى تكثير الأنبياء فى زمرتهم و النبوّة من اعلى مقامات الأفتخار و انجاؤهم من الطغاة الذين حاولوا القضاء عليهم بالمرّة و اتياؤهم الملك و السلطان فى جملة من افرادهم و المراد بالعهد الذى امروا بالوفاء به قيل فيه ان اللّه تعالى عهد اليهم فى التوراة انه سوف يبعث نبيّا اسمه محمّد فمن تبعه منكم كان له اجران بأتباعه لموسى

قبل ظهور محمّد وباتباعه لمحمّد بعد ظهوره ومن كفر به كانت النار جزائه ·

و قيل هو الميثاق المشار اليه بقوله تعالى و لقد اخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا و قال الله انّى معكم لئن اقمتم الصلاة و آتيتم الزكاة و آمنتم برسلى الى آخر ما ذكر و قيل انّه جميع الدساتير التى القيت اليهم فى الشريعة و كل ذلك محتمل ·

و تقديم المفعول فى قوله و ايّاى فارهبون يفيد الأختصاص بمعنى ان كل رهبة لها جهات تدفعها عن وجه الأنسان امّا رشوة وامّا شفاعة و امّا فرار عن منطقة المرهوب الاّ رهبة الله فأنها لا تندفع بالوجوه المذكورة فالذى يجب ان يرهب حقا هو الله المقتدر على كل شىء المحيط بكل شىء ·

* (و آمنوا بما انزلت مصدّقا لما معكم ولا تكونوا اوّل كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا و ايّاى فاتقون) *

هذه الآية تشير الى العهد الذى امرهم سبحانه بالوفاء به لانّه تعالى امرهم بالأيمان بالقرآن وهو الكتاب الذى انزله مصدّقا بحقيّة التوراة المنزلة على موسى و بما فيها ومن جملة مافيها البشارة بأرسال رسول يسمّى محمّدا فأيمانكم بالتوراة يستلزم ايمانكم بالقرآن الذى اشارت التوراه اليه و الى الجائى به من الله ولا تكونوا اوّل كافر به تسبقون الناس الى الألحاد به ومن حقّكم ان تسبقوا الى الأيمان به لأنكم مسبوقون به فى شريعتكم خلافا لعرب الجاهلية الذين لم يسبقوا به اذ لم يكونوا من اهل الكتاب ولا تأخذكم العزّة ببعض المطامع

فتطوّحوا بهذه الآيات و تسدلوا عليها حجاب التناسى و الأهمال ٠

٠ و تلك المطامع هى ان العارفين من أهل الكتاب الواردين فيه الدارسين لمضامينه لهم مقام بين العامّة منهم قطعا و المقام لا يعدم آثاره من الشخوص و الرياسة و تحصيل المال و هؤلاء يحسبون انّهم متى انضووا تحت راية النبىّ الجديد اصبحوا اتباعا بعد ان كانوا متبوعين فتفوتهم تلك المزايا و هذا معنى ولا تشتروا اى تستبدلوا بآياتى و القرآن الذى انزلته على محمّد ثمنا قليلا هو ذلك الشخوص الذى تتمتعون به بين عامّتكم و خافونى خوفا لا تخافونه من احد لأنّكم فى قبضتى على كل حالة ٠

* (ولا تلبسوا الحقّ بالباطل و تكتموا الحقّ و انتم تعلمون) *

البسه الثوب اذا جعله لباسا له و الباس مطلب بمطلب ستر الاوّل بالثانى و التلبيس هذا هو معناه ، ستر الواقع بغيره حتى ينحجب الواقع، و ربّ العزّة نهى أهل الكتاب ان يغطّوا الحقّ بالباطل و يجرّوا عليه ثوب التعمية و الغطش فيحذفوا التباشير برسالة محمّد من التوراة ويحرّفوا الكلم عن مواضعه و يخفوا الحقّ الذى الزموا بأظهاره ، و انتم تعلمون جملة حالية بمعنى انكم تفعلون ذلك و انتم عالمون بتحريفكم و انحرافكم و المخطىء عن عمد غير المخطىء عن جهل بمسافات فى كل شىء ومن جملته الجزاء المترتب عليه ٠

* (و اقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و اركعوا مع الرّاكعين) *

بيّنا فيما سبق انّ اقامة الصلاة معناها الأتيان بها على الوجه الأكمل الذى يكون ترويجالها و تشييدا و تثبيتا كأقامة البنيان ويشير قوله و اركعوا مع الراكعين الى الأتيان بها جماعة و ان كان يحتمل غيره فأن الصلاة جماعة من مقومات الصلاة و مشيّداتها: فأن قلت هل المنظور بأقامة هذه العبادات اقامتها على ماكانوا يسلكونه معها طبق طريقتهم او انّهم أمروا بها طبق القرآن وما جاء به محمّد (ص) قلنا لا شك ان المنظور هو الثانى لأن الله سبحانه امرهم بالأيمان بالقرآن وحرّم عليهم الكفر به كما سبق عن قريب فكيف يأمرهم مع ذلك بالصلاة و الزكوة على ماكان رائجا بينهم .

* (اتأمرون الناس بالبرّ و تنسون انفسكم و انتم تتلون الكتاب افلا تعقلون) *

البرّ هو فعل الخير و الأحسان و النسيان عزوب النفس وهو فى الآية يشمل ما كان عن غفلة وما كان عن تغافل و تلاوة الكتاب قرائته و العقل هو القوة المدركة للحسن و القبيح المميزة بينهما و الآية ملاك عام يشمل بنى اسرائيل و غيرهم و ان كانت فى سياق الآيات المربوطة بهم و الأستفهام فى اتأمرون فى معنى الأستنكار و التوبيخ اى انكم يابنى اسرائيل تأمرون اتباعكم بالتوراة و العمل بها و فيها نعت محمّد (ص) و ابتعاثه و قد بعث و تعتزلون بأنفسكم عن التوراة ومافيها او اتأمرونهم بفعل الخير و الأحسان و تتباعدون عنها و الحال انكم تقرؤن فى كتابكم تقبيح ذلك افلا تعقلون قبح ما تصنعون ولو كنتم كأحد

عوامكم لما توجه اليكم من اللوم ما توجه اليكم بالفعل ·

* (و استعينوا بالصبر و الصلاة و انّها لكبيرة الاّ على الخاشعين) *

الأستعانة طلب الأعانة و الصبر هو حبس النفس على جزع كامن و روى انّه اريد به الصوم هنا فأنه صبر عن الأكل و الشرب و سائر المفّطرات و الكبيرة هنا الثقيلة و خشوع النفس تطامنها ·

و هذه الآية كالسالفة ملاك عام يشمل بنى اسرائيل و غيرهم و ان كانت فى سياق ما سيق لهم امّا الأستعانة بالصبر الذى هو حبس النفس على تمشية الحياة فواضح لأن الصبر ممّا يخفف ويلات الحياة واما الأستعانة بالصلاة فأمر تعبدى ورد الأثر به فقد روى عن الصادق عليه السلام انّه قال ما يمنع احدكم اذا دخل عليه غم من غموم الدنيا ان يتوضأ ثم يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو اللّه فيهما اما سمعت اللّه تعالى يقول و استعينوا بالصبر و الصلاة : هذا وكل امر تعبدى لا صلة له بالمادة الدنيوية فأنه ثقيل على النفس حتى لو لم يكلف صاحبه مؤنة و الصلاة من جملة ذلك و انّما استثنى اللّه الخاشعين من الناس لأن انفسهم لما اطمأنت بما اعدّ للمتعبدين سهّل عليها كل صعب على النفس لحسن عاقبة ما يؤدى اليه ·

* (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى إنعمت عليكم وانّى فضّلتكم على العالمين) *

تقدّم القول فى تذكير الله سبحانه لبنى اسرائيل بنعمه و انّما كـرّر لمزيد التأكيد حتى يترتب عليهم اللوم اكثر بكفرانهم لأنعمه وعدم قيامهم بواجب اوامره و نواهيه و ليس المنظور بتفضيلهم على العالمين تفويقهم على تمام العوالم لأن ذلك انّما يتم اذا كان فيهم ملاكه وهو مفقود فيهم سابقا ولاحقا لأننا نرى الله سبحانه انّبهم و وبّخهم فى اشياء كثيرة بل و لعنهم و غضب عليهم ٠

* (و اتقوا يوما لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يأخذ منها عدل ولا هـم ينصرون) *

اليوم الموصوف بأنه لا تجزى فيه نفس عن نفس الى آخر الآية هو يوم القيامة و تجزى نفس عن نفس بمعنى تتحمّل عنها جزائها الذى تستحقّه و شفع له بمعنى جعل نفسه ثانيا له حتى يساعده و يعاونه و العدل بفتح العين الفداء و بكسرها المثيل و العديل خاطب سبحانه بنى اسرائيل بلزوم خوفهم من يوم لا تحضر نفس ان تتحمّل مضارّ شخص آخر فيه وعلى فرض حضورها لذلك فلا يؤخذ هذا الفداء منها بل لابد من مؤاخذة المذنب نفسه ولا تقبل منها شفاعة شفيع لو ساقته معها كما لا يحصل لها ناصر ينصرها و اذا حصل فلا يقبل انتصاره لها كل ذلك ربطا للمذنب بجزائه و قبول الشفاعة فى حدود مشخّصة يأتى الكلام عليه ٠

* (واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب
يذبّحون ابنائكم و يستحيون نسائكم وفى ذلكم بلاء
من ربّكم عظيم) *

الأنجاء التخليص وآل الرجل قرابته وعشيرته ومنسوبوه و الأهل اخصّ من ذلك فى نسبته الى الأنسان فلا يقال أهل الرجل لعشيرته و فرعون عنوان لملك العمالقة ككسرى لملك الفرس و قيصر لملك الروم و سامه هوانا اذا ادخله عليه و كلّفه به و سوء العذاب من باب اضافة الصفة للموصوف اى العذاب الأسوأ و بيانه قوله تعالى يذبحون ابنائكم و يستحيون نسائكم و التذبيح هو التقتيل و الأستحياء الأبقاء على صفة الحياة و البلاء المحنة : و قوله تعالى واذ نجيناكم عطف على قوله آنفا يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى و جملة يسومونكم سوء العذاب حال من ضمير الخطاب اى نجيناكم حال كونكم مسومين سوء العذاب و انّما فعل فرعون ببنى اسرائيل ذلك لمّا اخبره الكهنة انّه سيولد لهم من يكون سبب ذهاب لسلطانك ٠

* (واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون) *

تقول فرقت هذا عن ذاك اذا حجزت بينهما وفصلت ونظيره قولك فرقت شعر رأسى بالمشط فكما انّ المشط هو الفارق بين الشعرين اللذين يكون احدهما الى جانب اليمين والآخر الى جانب الشمال كذلك بنو اسرائيل كانوا هم الفارق بين المائين فأنجيناكم من فرعون لمّا تبعكم يريد اهلاككم واغرقنا منسوبى فرعون ومناصريه واعينكم تنظر اليهم كيف يغرقون وهذه الجملة الحالية تفيد زيادة مسرّتهم حيث رأوا بأحداقهم المفتحة كيف استؤصل عدوّهم وكم من فرق للنفس بين معاينه نزول العذاب بالعدوّ وسماع وقوعه عليه : وقوله واذ فرقنا بكم البحر عطف على قوله واذ نجّيناكم وكل ذلك من تفصيل النعم التى تكون رصيدا قويا للأنحاء عليهم باللأئمة لما جازوا ذلك كلّه بالكفران ٠

وعصاره ما جاء فى الأثر عن هذه القصة ماذكره ابن عباس انّ اللّه اوحى الى موسى ان يسرى ببنى اسرائيل من مصر الى ديارهم التى كانت مسكنا لهم قبل قضايا يوسف ابن يعقوب فسرى بهم موسى فأتبعهم فرعون بجيش هائل وكان موسى فى ستمائة وعشرين الفا فلما عاينهم فرعون قال ان هؤلاء لشرذمة قليلون وجاء موسى ببنى اسرائيل حتى هجموا على البحر فالتفتوا فاذا هم برهج دواب فرعون فقالوا ياموسى قد اشتدّ بنا البلاء هذا البحر امامنا وهذا فرعون قد رهقنا بمن معه فقال موسى عسى ربّكم ان يهلك عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض فأمره اللّه ان يضرب بعصاه البحر فانفلق وظهر اثنا عشر طريقا لكل سبط منهم طريق وجعل فى فواصل الماء كوى حتى ينظر بعضهم الى بعض حال

استطراقهم فيأمن الجميع على سلامتهم و لمّا انتهى فرعون الى ساحل البحر وكان على حصان ادهم هاب دخول الماء فتمثّل له جبرئيل على فرس انثى وديق و تقحم البحر فلمّا رآها الحصان تقحّم خلفها و تبعه قومه فلمّا خرج آخر من كان مع موسى من البحر و دخل آخر من كان مع فرعون فيه اطبق الله عليهم الماء فغرقوا بأسرهم و نجا موسى ومن معه جميعا و هذه نعمة ما فوقها نعمة .

* (و اذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده و انتم ظالمون : ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلّكم تشكرون) *

المواعدة ضرب الموعد و الليلة تقال فى مقابل اليوم وهو الزمان الذى لا شمس فيه بحكم الطبيعة و انّما ضرب الوعد على الليالى دون الأيام لان العرب كانت تراعى فى حسابها الشهور و الأيام مجارى الأهلة و الهلال من خصائص الليل دون النهار و الأتخاذ هو الأختصاص و العجل ولد البقرة و اذ ههنا كأخواتها السالفة ظرف زمان للماضى بمعنى اذكروا الزمان الذى واعدنا فيه موسى بأتيائه التوراة بعد تمام اربعين ليلة و ذلك بعد تخليصكم من فرعون و اهلاك فرعون و قومه و استتباب الأمور لكم وخلوّ مصر فى اوجهكم ومع هذه الآيات العظام التى شاهدتموها بأعينكم و النعم الجسام التى اسبغناها عليكم اتخذتم العجل الاها من بعد غيبة موسى عنكم و الحال انكم ظالمون لانفسكم بصرفها عن عبادة الله الى عبادة العجل و مع هذا الأنحراف الفظيع الذى كان منكم لمّا تبتم الى الله سبحانه انعم عليكم بالعفو حتى تقوموا بواجب شكره و معرفة امره .

جاء فى الآثار ان السامرى الذى تنسب له قضية العجل كان فى جملة بنى اسرائيل الذين صدفت لهم هذه المجارى من انجاء موسى واتباعه واهلاك فرعون واصحابه وكان من قوم يعبدون البقر وكان حبّ عبادة البقر ثابتا فى نفسه فلما ذهب موسى الى ميعاد ربّه واستخلف هارون فى بنى اسرائيل قال هارون لقومه قد حملتم اوزارا من زينة القوم يعنى آل فرعون وذلك انّهم كانوا استعاروا حليا من القبط واستبدّوا بها فقال هارون طهّروا انفسكم منها فأنها نجسة واوقد نارا وقال اقذفوا ماكان معكم فى النار فكانوا يأتون بما كان معهم ويقذفونه فيها وكان السامرى فى واقعة عبور البحر من بنى اسرائيل وآل فرعون رأى اثر فرس جبرئيل فأخذ ترابا من اثر حافره ثم اقبل الى النار فقال لهارون يانبى الله القىمافى يدى قال نعم وهو لا يدرى مافى يده ويظن انّه من الحلى الذى تأتى به بنو اسرائيل لتقذفه فى النار فقذفه فيها وقال كن عجلا جسدا له خوار فكان البلاء والفتنة ٠

وفى سياق هذا الأثر موارد للنظر (الاوّل) ما الذى الفت نظر السامرى الى ان الذى تقدّم فرعون فى دخوله البحر هو جبرئيل (الثانى) كذلك ما الذى الفت نظره الى ان يأخذ من اثر حافر فرسه قبضة من التراب ومن الذى اشعره بأن فى ذلك مزيّة وانّها متى القيت على شىء اثّرت فيه اثرا اعجازيا (الثالث) ان عمله هذا اعجاز لا يجوز صدوره عن غير نبىّ وفى القرآن تعرض لبعض ما فى هذا الآثر يجىء فى موقعه ٠

* (واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) *

الكتاب الذى اوتيه موسى هو التوراة و سمّى الكتاب كتابا لجمعه بين متنوعات المطالب و سمّى فرقانا لأنه يفرق بين الحق و الباطل والأسمان لمسمّى واحد هو التوراة ٠

* (واذ قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم انفسكم
باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا
انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه
هو التوّاب الرحيم) *

لمّا رجع موسى من ميقاب ربّه و وجد قومه عاكفين على عبادة العجل تأثر منهم كثيرا بعدما شاهدوا تلك الآيات العظام التى لا تدع فى نفس المرتاب اقل ريبة و تدفعها الى جانب اللّه دفعا قويا لا اضطراب معه و وبّخهم على فعلهم ذلك و امرهم بالتوبة الى اللّه سبحانه و كان من حكمة اللّه فى تطهيرهم من دنس تلك الرذائل و مقارفة تلك الآثام الأقتصاص منهم بالأرواح فأن الروح الخبيثة لا قيمة لها ولا حرمة فى كل وقت فأمروا بقتل انفسهم و ذلك بأن يقتل البرئ منهم الذى لم يعبد العجل المجرم الذى لابس هذه العبادة و اختارها لنفسه ٠

فروى ان موسى امرهم ان يقوموا صفّين و ان يغتسلوا و يلبسوا اكفانهم وجاء هارون بأثنى عشر الفا ممّن لم يعبدوا العجل و معهم الشفار المرهفة فصاروا يقتلون فيهم فلمّا قتلوا سبعين الفا وقف موسى وهارون يدعوان اللّه ويتضرعان اليه حتى نزل الوحى برفع القتل وقبلت

توبة من بقى ·

* (و اذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى اللّه جهرة فأخذتكم الصاعقة و انتم تنظـرون) *

الخطاب لمعاصرى نزول القرآن من الاسرائيليين وهم لم يقولوا هذا القول لكنّ الذى جوّز نسبة ذلك اليهم كون الحاضرين على رويّـــة الغابرين فى التذبذب و التلوّن و الخروج عن جادة متابعة الكتـــاب و الرسل و لن نؤمن لك اى لا نصدّق بك كما لا نصدقك فيما تقول عــن اللّه ابدا حتى ترينا بأحداقنا المفتحة لا بسرد الدلائل العقليـــه او الآثار الحسية من تسمّيه لنا (اللّه) فاذا رأيناه جهرة وعيانا صدقنا به و بك و بما جئت من لدنه ولا شك انّ من يؤمن بأن حقيقة الواجب مــن جنس هذه الموجودات المادية فقد نفاه رأسا وكان هو و المنكر لـــه اساسا على حدّ واحد لان واجب الوجود يستحيل عليه ان يكون جسمـا اوعرضا قائما بجسم و متى فرض كذلك كان ممكنا و الممكن لا يكون علّــة العلل و واجب الوجود و هذا معنى النفى له اساسا ·

و كما ان عبدة العجل حكمهم الحقّ بلزوم القتل حكم هؤلاء بما هــو متحد المآل مع اولئك و الصاعقة التى اصبتهم اما نار سقطت عليهـــم فأحرقتهم او سلبت ارواحهم بالموت او العذاب المهلك ·

قيل القائل لهذا القول هم السبعون الذين اختارهم موســـى لميقات ربّه و قيل قاله عشرة آلاف منهم و الجملة الحالية وهى قولــه تعالى و انتم تنظرون تفيد ان الذين لا بسهم بلاء الصعقة شاهـدوا اوّل نزول ذلك بهم و يجوز ان يكون معهم فى الحضور آخرون لم يسألـوا مسألتهم و شاهدوا ما حلّ بهـم ·

و فى هذه الآية صراحة بعدم امكان جواز رؤية الله سبحانه كما هو اوضح الواضحات من طريق العلم و المنطق و امّا الخرافيون الذين جوّزوا ذلك من طريق بعض الظواهر الكتابية التى لا ظهور لها واقعا فيما يحاولونه من رؤية الله فى يوم القيامة وتعزيز اخبار مختلقة لدجّالين عبثوا بكرامة الأسلام من هذا الطريق ومن غيره فيحجّهم العقل قبل كل شىء و المستحيل عقلا لا يثبته الاّ فاقد العقل ·

و تخصيصهم ذلك بيوم القيامة لا يخفّف حدّة هذا الاشكال فأن واجب الوجود فى كافة النشئأت وعلى تعاقب الحالات ذو هوية واحدة فاذا امتنع ان يكون فى جهة او جسما او عرضا امتنع على الأبصار ان تدركه ·

* (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون) *

البعث اثارة الشىء من محلّه فيقال بعث فلان عبده لهذا العمل بمعنى اثاره عمّا كان عليه من حالة لهدف لم يكن منبعثا له قبل هذا البعث و بعثه الله من مرقده اثاره من موضع رقوده نوما كان ام موتا والآية تصرّح بأن الله اماتهم بالصاعقة التى اخذتهم ثم بعثهم احياء من بعد اماتتهم بعثا فى هذه الحالة لعلّهم يشكرون الله بالعمل الصالح فيما بقى لهم من عمر يعيشونه فيها :و القائلون بجواز الرجعة فى هذه الدنيا احداد لتهم عليها نص هذه الآية ·

* (و ظللنا عليكم الغمام و انزلنا عليكم المنّ و السلوى
كلوا من طيّبات مارزقناكم وما ظلمونا و لكن كانوا
انفسهم يظلمون) *

ظلّل فلان على فلان اذا اوقع عليه الظلّ و الظلّ يقال فى مقابل الشمس و الغمام السحاب و القطعة منها غمامة مأخوذة من الغمّ وهو الستر لأنها تحجب الشموس و الأقمار عمّا دونها وغمّنى هذا الأمر اذا ستر علىّ الراحة و الأنزال انما يكون من علوّ الى سفل و المنّ يجوزان يراد به معناه المصدرى و كذلك السلوى من السلّو بمعنى انزلنا عليكم مننا لتستفيدوا لحياتكم منها فهى اذن لفظ عام لكل نعمة و قيل ان المنّ شىء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد و العسل و قيل هو الترنجبين مثل الثلج وقيل غير ذلك و المنظور بالسلوى بناء على معناها المصدرى انه سبحانه فى التيه انزل على قلوبهم السلوان من تصوّر ادامة هذا التيه بهم و انزعاج قلوبهم منه وقيل السلوى طائر كالسمانى فيذبح الرجل منها ما يكفيه .

كلوا يا بنى اسرائيل من طيبات مارزقناكم من المنّ و السلوى وما ظلمونا بتجافيهم عنّا و كفرهم بأنعمنا مرة بعد مرة و لكن كانوا انفسهم يظلمون بتحرّى مظان الأذيّة لها .

ذكر فى مسألة التيه ان بنى اسرائيل لمّا قالوا لموسى اذهب انت و ربّك فقاتلا انّا ههنا قاعدون حين امرهم بالسير الى بيت المقدس و حرب العمالقة ابتلاهم بالتيه فصاروا كلّما ساروا تاهوا و بقوا يتخبطون فى حيرتهم لأنّ اللّه سبحانه اخذ منهم ذاكرتهم فما كانوا يعرفون مسيرا ولا مصيرا و بقوا فى هذا التيه اربعين سنة فيها توفى موسى

و هارون ثم خرج بهم يوشع ابن نون و لمّا حصلوا فى التيه بعد ما حكم عليهم به ندموا على ما فعلوا فألطف اللّه بهم بالغمام تظللهم لمّا شكوا حرّ الشمس و انزل عليهم المنّ و السلوى وكان ينزل عليهم فى الليل عمود من نور يستضيئون به وكانت ثيابهم لا تتّسخ ولا تبلى ٠

* (و اذ قلنا ادخلوا هذه القريّة فكلوا منها حيث
شئتم رغدا و ادخلوا الباب سجّدا وقولوا حطةٌ
نغفر لكم خطاياكم و سنزيد المحسنين) *

الدخول هو الولوج و الورود فى الأمر و القرية و المدينة نظائر فى اللغة و اصل ذلك الجمع لأنهما تجمعان الناس يقال قريت الماء فى الحوض بمعنى جمعته والسجود الأنحناء و حططت الحمل عن الدابة حطّا و حطّه بكسر الحاء نظير رددت ردّة و جددت جدّة بكسر الراء و الجيم و يلوح انه اسم مصدر لمخالفته بهيأته لصيغ المصادر القياسيّة من هذه الأفعال والغفر هو التغطية ومنه المغفر لأنه يغطّى العنق فأن المغفرة هى سحب غطاء التغاضى على وجه الخطيئة والخطيئة هى الزلّه و جمعها خطيئات و خطايا و المحسن الفاعل للأحسان ٠

القرية ههنا هى اريحا كانت على عهد موسى عليه السلام وهى تقرب من بيت المقدس وكان فيها بقايا من العمالقة فأمر اللّه تعالى بنى اسرائيل بعد رفع التيه عنهم ان يدخلوا هذه القرية و يطّهروها من الكفرة و يأكلوا ما يشاؤن موسعا عليهم بعد ان سأموا المنّ و السلوى و الباب هو محل الورود للقرية و سجّدا حال من ضمير الجماعة بمعنى انّكم اذا دخلتم الباب فقعوا للأرض ساجدين شكرا للّه سبحانه على تخليصكم من التيه و تمكينكم من القرية و قولوا حطّة اى ادعوا ربّكم فى

ان يحطّ عنكم ذنوبكم و خطاياكم فاذا تذللتم للّه بذلك غفر لكم خطاياكم تمننا و زاد المحسن منكم على ما يقتضيه احسانه تكرما و تفضلا ٠

* (فبدّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانـــــوا يفسقون) *

التبديل التعويض و التغيير و الرجز هو العذاب و الفسق هــــو الخروج عن الطاعة و المعنى انّهم لمّا امروا بالأستغفار عند دخول باب القرية لم يمتثلوا فلم يستغفروا و ظهر منهم التعنت و قول غير ما اريــــد منهم امّا استهزاء فأنه روى انهم قالوا بدل حطّة حنطه حمراء اوتعريجا على شهوات النفس بأنهم واقعا كانوا يريدون الحنطة الحمراء وعلى كلا الوجهين و لتمردهم المتتالى المتعاقب على ربّهم المحسن اليهم حكموا بأنزال العذاب عليهم فروى انّه مات منهم فى ساعة واحدة بالطاعـــون اربعة وعشرون الفا و قيل سبعون الفا ٠

* (واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر
فأنفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم
كلوا و اشربوا من رزق اللّه ولا تعثوا فــى الأرض
مفسد يــن) *

الأستسقاء طلب السقيا و الضرب هو القرع و الأنفجار هو متّسـع الأنبجاس وهو الفوران و عين الماء الينبوع و المشرب محلّ الشرب وعاث افسد .

كانوا فى التيه فأرادوا من موسى عليه السلام الماء لشربهم فأمر نبيّه ان يضرب بعصاه المعروفة التى انقلبت ثعبانا و التى ضرب بها البحـر فانفلق امّا حجرا من الأحجار فتكون اللام للجنس و امّا حجرا خاصـا دلّ عليه فعندما ضربه خلق اللّه على اثر الضربة فيه عيونا فوآرة كل عين لسبط من الأسباط يستقون منها ومتى اكتفوا اضربه موسى ضربة اخـرى فعادا الى جموده و كل شئ ممكن فى ذاته قابل لتعلق القدرة بـه و مفروضنا من هذا القبيل .

ولا عجب من امر اللّه فأن كل معجزات الطبيعة كهذه الأختراعات العجيبة كانت قبل حدوثها مستغربة للعقول اشد الأستغراب وقـد حصلت و ألفها الناس .

فيا بنى اسرائيل كلوا المنّ و السلوى و اشربوا الماء العذب مـن هذا الحجر و ليكن ما ترونه آية اعتبار لكم تزعكم عن العبث و الأفسـاد و مفسدين حال مؤكدة لقوله تعالى لا تعثوا فأن قيل ما فائدة هـذا التأكيد اجيب بأنه ربّما يكون افساد ظاهرى و لكنه فى الواقع قد يقـوم بمصلحة و مثل هذا الأفساد لا يعدّ افسادا بل الأفساد ما كان كذلـك

ظاهرا و باطنا و تأكيد لا تعثوا بمفسدين يعطى هذا المعنى

* (و اذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فأدع
لنا ربّك يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها
و قثائها و فومها وعدسها و بصلها قال
اتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير
اهبطوا مصرا فأن لكم ما سألتم و ضربت عليهم
الذلّة و المسكنة و باؤا بغضب من الله ذلك بأنهم
كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون النبيين بغير
الحق ذلك بما عصوا و كانوا يعتدون) *

الطعام مادّة الغذاء و الطعم بضمّ الطاء الأكل و بفتحها مذاقه و الواحد هنا غير المتنوع او اللازم لحالة واحدة و لو كان متعددا متنوعا و الدعاء هو النداء بالأصل ثم استعمل لما هو اعمّ من ذلك بما يشمل النجوى كما يدعو الأنسان ربّه خفية و الأنبات اخراج النبات و البقل كل نبات لا ساق له و القثاء الخيار و الفوم قيل هو الحنطة و قيل هو الثوم و الأدنى بمعنى الأنزل المفضول فى قبال الأعلا الفاضل و الهبوط هو النزول سواء كان من ارض مرتفعة الى منخفضة ام بمعنى النزول من المركب الى الأرض و مصر بمعناه الأشاعى هو البلد فى قبال القرية و الريف و بمعناه العلمى الأرض المعروفة و انما صرفت مع احتمال ان تكون علما للأرض المعهودة وهو اسم اعجمى و العلمية و العجمة سببان مانعان من الصرف لكونها ساكنة الوسط و سكون الوسط فى الثلاثى يجيز الصرف و منعه مثل نوح و لوط كما يجرى ذلك فى العلم المؤنث كهند و رعد و ضربت عليهم الذلّة معنى استعارى بأعتبار ان الذلّه لما شملتهم من

جميع جهاتهم كانت كالقبة المضروبة عليهم الشاملة لهم و الذلّة هى الأنحطاط و الهوان و المسكنة. مأخوذة من السكون بمعنى التطامن وهو من الصفات اللازمة لفقراء النفوس فأنهم يتطامنون ذلة لا وقارا كتطامن المساكين الفاقدين للتعفف و باء بمعنى رجع و الغضب حالة تهيّج فى النفس نتيجتها الأنصباب بالمكروه على الطرف و اللّه سبحانه يتصف بها بأعتبار الأثر الصادر عنها وهو الأيقاع بالمجرم و آيات اللّه براهينه وحججه واعجازاته والنبىّ وان كان ينطق به غير مهموز لكن اصله الهمز بمعنى المنبىء عن اللّه سبحانه والمخبر عنه و الحاكى لأقواله والعصيان هو التمرد عن الطاعة و الأعتداء هو التجاوز عن الحدّ المضروب .

و المعنى اذكروا يابنى اسرائيل اذ قلتم (و القائلون و ان كانوا بمفازة زمنية عن هؤلاء المخاطبين للّه فى آيات القرآن لكنهم باعتبار احتذائهم لما كان عليه آباؤهم من الأخلاق و المشارب كأنهم كانوا هم البارزين بما صدر عن آبائهم) لنبيكم موسى فى زمان التيه لن نصبر على لون واحد من الطعام وهو المنّ و السلوى بل انفسنا تتوق الى التنوع فى الأغذية و كيفية تهيأتها و التبادل بينها فادع ربك القادر على كل شىء ان يشقّق لنا الأرض بانباتها ماكنّا نتداوله قبل التيه من البقل و القثاء و الفوم و العدس و البصل و غير ذلك مما عهدوه واكلوه فى فترات اعمارهم و الذى ذكرته الآية مثال عمّا كانوا يريدونه لا انّه هو لا غيره .

و انّما قبّحهم سبحانه بقوله اتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير لا لأنه لا يعلم اشمئزاز النفوس من المكررات و مهما كانت المادة المتكررة فى طيبها و حسنها و انّما فندّهم بأختيارهم المشقة بحرث الأرض و زرعها و الأعمال الشاقة التى تعانى فى طريق الاستنبات

و الفلاحة على الراحة بأنزال المهيأ من غير مؤنة ٠

فأن قيل انهم فى طلبهم من موسى لم يظهروا له ان هذه الأطعمة التى يريدونها تكون نتيجة لزحماتهم بل ظاهر الآية مشعر بأن الأرض تنبتها لهم من نفسها بأمر ربّها كما كان المنّ و السلوى كذلك قلنا الظاهر و ان كان كما ذكر لكن الربّ سبحانه لم يجبهم اليه لمصلحة هو اعلم بها و لذلك علّق ما ارادوا على هبوطهم الى مصر المعهودة اوالى مصر من الأمصار حيث تكثر انواع المراد المذكورة فيها بين الباعة و الشراة فيكونون كسائر الناس فى معائشهم و نتيجة لتلوّيهم على ربّهم و تعاميهم عن آياته وركوسهم فى المعاصى و الخطايا ضرب اللّه عليهم الهوان و الأنحطاط محيطين بهم كأحاطة الآفاق و كذلك عاش اليهود اجيالا لاطئين اذلاء بعيدين عن العزّة و الكرامة ظاهرين بالفقر و الأعواز و ان كانوا اثرياء و رجعوا بعد اعزاز اللّه لهم بتخليصهم من الفراعنة و تمليكهم و تسليطهم مغضوبا عليهم لكفرانهم أنعما جساما لا يكفر بها الآجلف لئيم وعبد اثيم و انما فعل اللّه بهم هذه الأفعال و شدّد عليهم هذا الأيقاع لأنهم كانوا يكفرون بالآيات البينات و المعجزات الباهرات و يضيفون الى هذه السيئة جرائم لم يرتكبها غيرهم من قتلهم انبياء اللّه و سفرائه كأشعيا و زكريا و يحيى و غيرهم وعصيانهم بما جاوزوا به امثالهم من عصاة الأمم ومتجاوزيهم و معنى بغير الحق ان ضمائرهم مع اجرامهم تعترف بالجريمة لا انها تجهلها او تتجاهل بها و ذلك أبلغ فى المعصية و التجرىّ و تكرير ذلك مرتين مرّة بقوله (ذلك بأنهم كانوا يكفرون) و مرّة بقوله (ذلك بما عصوا) انما حصل بداعى تثبيت اهداف الأيقاع بهم هذا الأيقاع الشائن و التنكيل الشديد ٠

* (انّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى
والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل
صالحا فلهم اجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا
هم يحزنون) *

يقال هاد يهود وتهوّد اذا دخل فى اليهودية وقيل هاد يهود بمعنى تاب وانّما سمىّ اليهود بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل وقيل سبب التسمية نسبتهم الى يهوذا اكبر ولد يعقوب غايته ان العرب نطقوا بالذال دالا : والنصارى جمع نصران كسكارى وسكران وهو الممتلئ نصرا وقيل منشأ التسمية قرية الناصرة التى ولد فيها المسيح او سكنها والصابئ المنحرف عن دينه الى دين آخر وقيل انّهم عبدة النجوم وقيل انهم لا دين لهم بعد انحرافهم عن دينهم الأول المعترف بالتوحيد والمعاد ٠

ومعنى الآية ان الذين آمنوا بنبىّ الاسلام وهكذا من آمن باللّه واليوم الآخر ممّن يسمّى يهوديا ونصرانيا وصابئيا وشفع الأيمان العقيدة بالأعمال الصالحة فكلّ هؤلاء على اختلاف اسمائهم وعناوينهم فى أطار الأيمان بالمبدأ الصحيح لا خوف عليهم من ربّهم ولا هم يحزنون يوم الوفود اليه والوقوف بين يديه فاليهودى فى اطار دينه الصحيح وهو ما كان قبل المسيح والنصرانى فى مثل ذلك الأطار وهو ماكان قبل بعثة النبى والصابئى قبل ان ينسخ دينه كل هؤلاء فى حدودهم المزبورة مؤمنهم باللّه واليوم الآخر وعاملهم للصالحات لا خوف عليه من اللّه سبحانه وهكذا لا خوف على هؤلاء فى عصر نبوّة الأسلام اذا اندمجوا فيها ورجعوا اليها فان كافة هذه التشقيقات من معطيات

الآية فأن الأيمان بالله بمعناه الدقيق قائم بذلك بلا محاولة تأويل او تعسّف تحوير و تبديل .

* (و اذ اخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطور خذوا ما
آتيناكم بقوّة و اذكروا مافيه لعلّكم تتقون :ثمّ توليتم
من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم و رحمته لكنتم
من الخاسرين) *

اخذ الميثاق يكون بأخذ الوثيقة او الضمين من الطرف كما يكون بأخذ العهد و الوثيقة المأخوذة هنا امّا قول اخذ من نقباء بنى اسرائيل بانزال التوراة عليهم للعمل بها او انّه العقل الذى عليه يحاسبون فى كل شىء كما يحاسب كل عاقل من طريق عقله .

و الطور هو الجبل اذا.كانت الألف و اللام جنسية و اذا كانت عهدية فهو جبل بعينه و القوة ابراز القدرة و التولّى الأعراض و فضل الله لطفه المبذول من غير سابقة استحقاق .

و المعنى اذكروا الموثق الذى اخذناه منكم على العمل بما نزله عليكم لأجل نظام حياتكم و تعديل اوضاعكم و تحديد اعمالكم على برامج هى وفق واقعكم فلما جائكم موسى بالألواح و رأيتم ما فيها من تكاليف مخالفة لميولكم ابيتم قبول ماجاء به فقلعنا الطور من اصله و رفعناه فوق رؤسكم حتى اذا لم تذعنوا و لم تقفوا للعهد القيناه عليكم فحذرتم هذا البطش فقبلتم اذن فخذوا ما انزلنا على نبيّنا اليكم بهمّة نشيطة و عزيمة قوية قويمة و اجعلوا مافيه نصب قلوبكم و اعينكم فأنكم اذا فعلتم ذلك قرب فيكم رجاء التقوى وملابسة الفلاح لكن هذا القبول منكم لم يطل معكم فقد اعرضتم عنه من بعد ذلك و لولا ان منّ الله عليكم فألفت

انظاركم الى التوبة و قبلها منكم لكنتم من الخاسرين لأنفسكم و مصائرها .

* (و لقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا
لهم كونوا قردة خاسئين : فجعلناها نكالا لما
بين يديها و ما خلفها و موعظة للمتقين) *

المعرفة تقع على شخص الشىء فيقال عرفته و العلم يقع على احواله فيقال علمته و الأعتداء هو التجاوز عن الحدّ المقرّر و السبت هو القطع و يختلف باختلاف متعلقه فأسبات اليهود قطعهم العمل فى ذلك اليوم و تخصيصه بالعبادة و نوم سبات قاطع لمواصلة الأعمال ، و قيل فى وجه تسمية يوم السبت بهذا الأسم انه قطع فيه خلق كل شىء و فرغ منه و القردة جمع قرد و الأنثى قردة و الخاسىء المطرود و النكال الأيقاع بالطرف ارهابا له وما بين يديها يعنى معاصرها وما خلفها هو الآتى بعدها الكائن ورائها و الموعظة التبليغ بتخويف

و المعنى انكم يا يهود عصر النبوّة قد احطتم من طريق كتبكم ورجال طريقتكم بأحوال اسلافكم الذين اعتدوا و تجاوزوا ما حدّ لهم من تجريد انفسهم للعبادة يوم السبت فكان هذا اليوم يوم أمن للحيتان ـ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعا و يوم لا يسبتون لا تأتيهم ـ فأضطربت اعصابهم لهذا النفع الفائت من ايديهم فأخذوا يفتشون عن وجه حيلة تجمع لهم امتناعهم من الصيد يوم السبت و احراز هذا الصيد لغيره فحفروا حياضا عند البحر و شرعوا اليها الجداول لتدخلها الحيتان يوم السبت ثم لا تستطيع الخروج منها فيأخذونها يوم الأحد ، وهؤلاء هم اهل ايلة قرية على شاطىء البحر لا اليهود بأسرهم كما يظهر ذلك من قوله تعالى ـ اعتدوا منكم ـ فعاقبهم الله على هذه المراوغة والخديعة

بأن مسخهم قرودا مطرودين عن رضاه و رحمته و لم يعيشوا بعد ذلك اكثر من ثلاثة أيام حتى هلكوا .

اوقع الله ذلك بهم ارهابا لحاضريهم و معاصريهم و عبرة جاهرة لمن خلفهم من الأمم و الأجيال و موعظة للمتحذرين حتى يتورعوا فى مسيرهم مع الحياة ورعا يبعد بهم عن الفشل فيها كما فشل اهل ايلة .

* (و اذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا
بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال اعوذ بالله ان اكون
من الجاهلين :قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لناماهى
قال انّه يقول انّها بقرة لا فارض ولا بكرعوان
بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون :قالوا ادع لنا ربّك
يبيّن لنا ما لونها قال انّه يقول انّها بقرة صفراء
فاقع لونها تسرّ الناظرين :قالوا ادع لنا ربّك
يبيّن لنا ماهى انّ البقر تشابه علينا و انّا ان شاء
الله لمهتدون :قال انّه يقول انّها بقرة لا ذلول
تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلّمة لا شية فيها
قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا
يفعلون :واذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها و الله
مخرج ما كنتم تكتمون :فقلنا اضربوه ببعضها
كذلك يحى الله الموتى و يريكم آياته لعلكم
تعقلون) *

البقرة اسم للحيوان المؤنث من الجنس المعروف و مذكره ثور كالرجل و المرأة فى الناس و يقال ان اصل اشتقاقه من البقر وهو شقّ

الأرض بالكراب و نظائره و الهزء السخرية و العياذ هو الألتجاء و الجاهل نقيض العالم و الفارض الكبيرة السّن و البكر هى الفتية و العوان هى المتوسطه التى ولدت بطنا او بطنين ومن ذلك الحرب العوان و هى التى لم تكن اوّل حرب و اللون عرض من مقولة الكيف و الصفرة لون معروف و الفاقع تأكيد له كما يقال احمر قانى و ابيض يقق و اخضر ناضر و السرور الفرح و ذلول فعول من الذّلة وهى التى ذللّها العمل و اثارة الأرض تقليبها و الحرث نوعا يقال لمّا هو مبذور و مسلّمة من السلامة وهى البراءة من العيوب و الشية من وشيت الثوب اشيه شية اذا طرزته بالوان تخالف لونه ومعنى ذلك انها صفراء خالصة الصفرة و الذبح هو فرى الأوداج فى قبال النحر الذى هو طعن الثغرة من الأبل و ادّارئتم تدافعتم و اختلفتم من الدرء بمعنى الدفع ومنه ما جاء فى الحديث الحدود تدرء بالشبهات ٠

و أصل القضية ان شيخا فى بنى اسرائيل كان مؤسرا فقتل بنو اخيه ابنه الوحيد ليرثوه وطرحوه على باب المدينة وجاؤا يطالبون بديته فأمرهم الله سبحانه ان يذبحوا بقرة و يضربوه ببعضها ليحيى فيخبرهم بقاتله فطلبوا البقرة بوصفها فوجدوها عند فتى من بنى اسرائيل فقال لا ابيعها الاّ بملء مسكها ذهبا فأشتروها ٠

و جاء فى الأثر ان بعض اصحاب النبى (ص) قال له ما شأن هذه البقرة فقال انّ فتى من بنى اسرائيل كان بارّا بأبيه و انّه اشترى سلعة فجاء الى ابيه فوجده نائما و الأقليد تحت رأسه فكره ان يوقظه فترك تلك المعاملة فلمّا استيقظ ابوه اخبره فقال له احسنت خذ هذه البقرة فهى لك عوض عمّا فاتك فقال رسول الله (ص) انظروا الى البرّ ما بلغ بأهله ٠

و المعنى اذكر يامحمّد للناس ،للعبرة و الموعظة و بيان آيات اللّه اذ قال موسى لقومه بعد ان عرضوا عليه مسألة القتيل و ارادوا منه كشف الواقع و طلب موسى من ربّه و اجاب اللّه طلبته ان اللّه يأمركم ان تذ بحوا بقرة فى هذا الشأن فقالوا اتتخذنا سخرية ،اذ لا ربط لما اجاب بما طلبوه بحسب الظاهر المعمول قال معاذ اللّه ان اكون من الجاهلين لأن الذى يسخر من غيره جاهل قطعا فأن السخرية و السباب من حيل العجزة بل الذى اجبت به بيان واقع فلم يكتفوا بهذا الجواب لنقص فى معرفتهم شأنهم فى ذلك شأن العوام فأنهم لو عمدوا الى اية بقرة شاؤا لكان امتثالا لما أمروا به لكنهم لم يكتفوا بالواحد النوعى العام و سألوا عمّا يخصّصه فقالوا ادع لنا ربّك يبين لنا ماهى تلك البقرة فى اوصافها فقال بعد رجوع منه الى اللّه انه يقول ان البقرة التى تراد منكم وسط بين البكر و المسنّة فافعلوا ما يقتضيه هذا الأمر ولو وقفوا عليه و اتوا بواحد من هذا النوع المخصوص لامتثلوا لكنهم لم يفعلوا وعاودوا السؤال مرة اخرى غافلين عن ان تحرّى الأوصاف بالدقّة ممّا يشدّد عليهم تحقيق الأمتثال بتضييق دائرة النوع حتى ليؤدى بهم اذا اصرّوا على الأستفسارات المتتالية الى مأزق حرج فقالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا مالونها فقال لهم بعد مراجعة ربّه عزّ وجلّ انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين فلم يكتفوا بذلك حتى قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ماهى فى اوصافها الأخر غير لونها و سنّها ان البقر تشابه علينا و نحن نريد من الأوصاف مالا ينطبق الاّ على واحد و انّا ان شاء اللّه بعد بيان الوصف المزبور لمهتدون .

ولعمرى ان الأهتداء كان حاصلا لهم من اوّل أمر ولكنهم لأغراقهم فى الجهل عموا عنه و بعد مراجعة البارى تعالى قال لهم انه يقول

انها بقرة لم يذللها العمل ولا اثارة الأرض ولا سقى الحرث سالمة من كل عيب ذات لون واحد خال من الخليط و التخطيط فقالوا بعد. ان جائهم بهذه الأوصاف الآن جئت بالحق و هذه الكلمة منهم لا مقيل لها من الصحّة لان المقام ليس بمقام اخبار عمّا يكنّونه و يضمرونه حتى يكون بيان مافى ضميرهم هو الحقّ دون غيره بل المقام مقام انشاء و جعل لا يعلمون منه شيئا و لذلك قالوا له فى بادء الأمر اتتخذنا هزوا اذ لم يفقهوا مناسبة بين ما طلبوه من موسى وما اجيبوا به فلما اكتفوا من السؤال بعفو خاطرهم لا انّهم صادفوا بذلك بغيتهم ذبحوا البقرة الموصوفة بعد أن عانوا فى سبيل تحصيلها كل مشقّة من حيث التحرّى و الفحص وبذلوا فى سبيله اطايب اموالهم وما كادوا يفعلون لان تلك المماطلة كانت تشعر بالمساهلة ٠

و يجىء هنا سؤال يلزم منا توضيحه وهو ان هذا الأمر المستفاد من قوله ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة هل هو امر مولوىّ او ارشادى فنقول بل هو ارشادى محض بدليل سياق القصة الواردة فى اصل الموضوع و مساق قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادّارءتم فيها فأن طلبهم من اللّه كشف الواقع لهم و جوابه تعالى بما اجاب امر خارج عن موازين التشريع ولاحق بحلّ المشكلات والمعمّيات واذا كان المطلب كذلك فهو خارج عن موضوع النسخ حتى يبحث عنه و الترقى من مرحلة ادنى الى مرحلة اعلا فى هذا الباب كان داعيه كما جاء فى الأثر انّهم شدّدوا على انفسهم فشدّد اللّه عليهم تأديبا لهم وقد يكون سبحانه انما ابان لهم الواقع من طريق هذه البقرة ابرازا لمواقع البرّ كما اسلفناه ان رسول اللّه قال فى شأن البقرة المذكورة انظروا الى البرّ كيف بلغ بأهله ولولا ذلك السبب او مالا نعلمه من الأسباب لأبرزه بطريق ابسط فاقد لأيّة مؤنة ٠

و المراد ببعضها بعض نكرة فضربوا القتيل ببعضها فحيى بـأذن الله و قال قتلنى فلان و فلان لأبنى عمه ثم سقط ميتا و لم يورث قاتل بعد ذلك: و القائل لـ (كذلك يحى الله الموتى) يجوز ان يكون موسى قال ذلك لقومه تثبيتا لعقيدتهم فى المعاد بأن الذى حتم على البشرية البعث بعد الموت قد اراكم نموذجا منه بما رأته اعينكم و يجوز ان يكون هو الله سبحانه خاطب به معاصرى نزول القرآن و كل من يصح معه الخطاب بأن الله هكذا يحى الموتى و كون القائل هو موسى ابلغ فى الأستدلال لأنه احالة على شهود محسوس لا على خبر يقال ·

و الآيات هى المعجزات من ذبح البقرة و موتها بالذبح وصيرورتها بعد ذلك سببا فى احياء ميت و نطقه عما خفى على الجميع: و انما اسند القتل الى بنى اسرائيل فى حال ان القاتل واحد منهم لأنهم قومه و القتل وغيره من الأفعال و ان صدر عن واحد فى العشيرة يجوز اسناده اليها باعتبار ملابستهم له و تعاونهم معه فى مهام الأمور كما هو متداول معروف بين العشائر و الأسر ·

و انما اخرج الله ماكتم الفاعل بطلب منهم و لم يفعل ذلك فى جملة من الخفايا لدفع الخلاف الحاصل بينهم و الشقاق الكائن فيهم فأن هذه الواقعة احدثت فيهم ضجة عظيمة :فأن قيل كان من لازم السياق ان تتقدم هاتان الآيتان و اذ قتلتم نفسا ـ الى ـ لعلكم تعقلون على آيات البقرة فلم تأخرتا عنها قلنا ايراد وارد لو اراد الله سبحانه سوق فريق آيات البقرة والآيتين الأخيرتين فى مساق واحد اما اذ اراد بيان مسألتين و الحديث عن موضوعين موضوع القتل وما جر من خلاف وموضوع البقرة وما معها من مقارنات فلا حزازة قدم ام أخر و الله سبحانه هو العالم ·

* (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة او
اشدّ قسوة وانّ من الحجارة لما يتفجّر منه
الانهار وانّ منها لما يشقّق فيخرج منه الماء
وانّ منها لما يهبط من خشية اللّه وما اللّه
بغافل عمّا تعملون) *

القسوة هى الشدة و الحجارة هى المادة المتصلبة من الأرض و التفجر هو الأنبعاث بدفع و النهر هو المجرى الواسع و التشقق هو التمزّق و الهبوط النزول و الخشية هى الخوف و استعملت ثمّ هنا بمعناها المنسوب لها من التراخى بمعنى انكم بعد مامرت عليكم تيك الآيات العظام متتالية و شهدتموها الواحدة بعد الثانية معاينة كأنكم لم تشهدوها ولم تأخذ من ابصاركم ولا من بصائركم فى حينها مأخذا لما يلوح عليكم من آثار المهملين المسيّبين الذين لم يقم على تأديبهم مؤدب ولا على تربيتهم مهذّب فها هى قلوبكم كقلوب الوحش قاسية و تصرفاتكم عن الموازين نابية حتى كأنكم لستم ببشر يتأثر بما يلزم ان يؤثر فيه من آية واضحة وعبرة طافحة فأنتم كالجماد الهامد بل اكثر صعوبة و اشدّ قسوة فأن من الحجارة وهى من قسم الجمادات مايكون منبعا ثرّا للمجارى الواسعة من المياه وان منها على شدّته و استحكامه لما يشقّق و يتفطر و ينبعث من بينه الماء و ان منها لما ينهدّ من اعالى قممه متلاشيا على سفوحه من خشية اللّه ٠

امّا تفجر الحجارة بالأنهار الواسعة و تشقّقها عن الماء فمحسوس متضح وامّا تدهدهها من خشية اللّه فغير جلىّ الاّ من طريق اخبار اللّه الصادق عنها وقد يحمل ذلك على سبيل قضية فرضية بمعنى ان

الحجارة لو كانت تملك ما تملكون انتم من جهازات عقلانية جبّارة لتدهدهت امام عظمة ما يتجلى لها من آثار البارى تعالى على سفوحها متهافتة و الحال ان ذلك لم يثن منكم عاطفة و لم يؤثر فيكم اثرا و لستم فيما يصدر عنكم من تغافل و تناسى لآيات الله بمغفول عنكم بل كل اعمالكم مدّ النظر و تحت رعاية البصر ·

هذا وقد يكون المراد بما تعقبته كلمة (ثم قست قلوبكم) هو ماقصّه سبحانه من احياء القتيل بضربه ببعض من البقرة بعد ذبحها وهم ينظرون و كفى بقساوة قلوبهم بعد رؤية هذه الآية العظيمة جلادة وعزوبا عن العاطفة البشرية ·

و بالنتيجة الآية تشعر بأمر لازم تدبره للبشر فى حفظ تعادل حياته وهو ان الأنسان لابدّ له من التغافل عن الخير و الشرّ معا و ذلك لتكاثر الحوادث النافعة و الضارة عليه وكل حادثة جديدة تغمر سابقتها من اىّ طراز كانت لكن اللازم على الأنسان ان يتناسى حوادث الشّر حتى لا ينخذل فى الحياة و ان يتذكر حوادث الخير حتى ينشط و اذا اعطى هذا الميزان من يده انهارت حياته ·

* (افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) *

بعد ما وصفهم سبحانه بقساوة القلوب الى درجة تفضيل الحجر عليها التفت الى المؤمنين بدين الأسلام الحريصين على اقناع اليهود وقودهم لدين الأسلام بساطع البيان وقائم البرهان شبيه موبّخ لهم على طمعهم فيهم ورجائهم الأيمان منهم بأن هؤلاء فضلا عن نكرانهم للمحسوس الصادر على يد نبيّهم الذى هو منهم لحمة نسب كان جمع منهم يسمعون كلام الله امّا سماعا حقيقيا وهم الحاضرون مع موسى فى الطور حين كلّمه الله تكليما فيحرفونه عندما يرجعون الى قومهم شارحين لهم مالمسوه او سمعوه وامّا قراءة فى التوراة حيث حرّفوها فجعلوا الحرام حلالا والحلال حراما انقيادا لأيحاآت الهوى النفسى والغرض الشخصى وهم يعلمون بتحريفهم او يعلمون بما يحلّ بهم سواء فى الدنيا ام فى الآخرة ومفاد الآية يأس لا مطمع فيه .

وبالنتيجة الذى يطمع فى اقناعه بالحقيقة هو المتعرى عن النزعات العاطفية من اىّ لون كانت حتى ينطبع فى نفسه مايراد طبعه منها وامّا اذا علقت نفسه بطمع او تعصب او بأتكال على ذاتها وما تعقلت فمن المستحيل اقناعها مع هذا الحجاب لأنها ليست جاهزة له والأقناع لا يحصل بالأكراه .

* (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا و اذا خلا بعضهم
الى قالوا أتحدثونهم بما فتح اللّه عليكم ليحاجّوكم
به عند ربكم أفلا تعقلون) *

الملاقاة هى التقابل مع التقارب وخلامعه اذا لم يكن هناك من يحتشم او لم يكن غير قبيله الذى يريد ان يفيض عليه بكل ماعنده وفتح الشيء ابرازه من الكمون و المحاجّة المناظرة .

و المعنى انّ من اليهود من لم يكونوا من المعاندين الأشدّاء فيلقون المسلمين فيقولون لهم نحن نؤمن بمحمّد كما انتم مؤمنون به لأنّنا نجده فى كتابنا مبشّرا به مدعوا من ناحية اللّه اليه فلزمنا الأيمان به لذلك واذا خلا هؤلاء الى المعاندين منهم اخذهم اللوم العنيف من هؤلاء الأشداء بأنكم كيف ساغ لكم ان تحدثوهم بما كشفه اللّه لكم من نبوّة محمّد وانه خاتم النبيين يجب اتباعه والأئتمام به بما لم يكشفه لغير أهل الكتاب اذ لا رابطة لغيرهم بحديث السماء فأنكم بفعلكم هذا تحكمون كل يهودى لهم بأقامتهم الحجة عليهم من طريق كتابنا فيقولون لهم نحن نحاكمكم الى ربكم الذى تدعون الأعتقاد به و الأنتساب لدينه تعالى يقول ـ باعترافكم ـ بنبوّة محمّد و لزوم اتباعه و الأنقياد له و الدخول فى حوزته افلا تعقلون انكم بأفشائكم اسرار التوراة الى اتباع محمّد تحكمون انفسكم ببطلان لزومكم لليهودية بأنفسكم .

وحصيلة البحث ان الأنسان فى الأعم الأغلب فى تفسيره للمفاهيم يحرز الواقع كلّه و يحسن الكلام عليه فلسفة لكنه فى مقام التطبيق ينخذل انخذالا واضحا ومن هنا يعرف ان العلم فضله مقرون بالعمل به و امّا العلم بالشيء و العمل بضده كما هو شيمة الكثيرين فهو من اعظم مواقع

البلاء وقد يكون الجاهل فى هذه المرحلة اخفّ جريمة من العالم واقلّ عتابا على الأرتكاب .

* (او لا يعلمون انّ اللّه يعلم ما يسرّون وما يعلنون) *

يعنى ان هؤلاء الأشداء من اليهود ان اعتقدوا ان محمّدا واتباعه لا يعلمون من امرهم الاّ ما اعلنوا به فهل يعتقدون ان اللّه تخفى عليه سرائرهم وما يبثّونه فى خلواتهم ـ لا شكّ انّهم ان كانوا يعتقدون ان اللّه تخفى عليه سرائرهم فهم جزما لا يعتقدون بربّ التوراة ربّ اسرائيل و موسى و هارون ومع هذه العقيدة فهم ليسوا بيهود : اذن فمن لازم نسبتهم هذه ان يعتقدوا ان اللّه يعلم سرّهم و نجواهم وما تكنّه قلوبهم و انّه تعالى يجازى العبد على كل خير وشر اظهره فى الشهادة ام زواه عن اعين الناس فاللّه لهم بالمرصاد يؤاخذهم على كل سوء يباشرونه او يسببونه على الأخص ماكان فى قبال نبىّ من اعظم الأنبياء .

* (و منهم اميّون لا يعلمون الكتاب الاّ امانىّ و ان هم الاّ يظنّون) *

الأمىّ فى اصطلاح اهل اللغة هو الأنسان الضعيف المعرفة لعدم دربته فى المعارف وكل ما يملك منها ما يطرق سمعه من العوام و اشباههم و الأمانى جمع امنية و الظن هو ترجيح احد جانبي الأمر المتصور و المعنى ان من اليهود اناسا و ان ادّعوا المعرفة بالدين لأنفسهم لا يعلمون من كتاب ديانتهم الاّ ما توحيه مشتهياتهم و نوع عقائد العوام كذلك و الأمانى هى نزعات النفس و مشتهياتها فأذن هؤلاء يأخذون دينهم بالظنون لا باليقين ومن يكن كذلك فى دينه وعقليته فليس هو بمطمع لكم حتى تحوزوه الى حوزتكم فأن الأيمان الصحيح لا يركن اليه الاّ العاقل الفطن الذى يتحرى الحق ليأخذ به و هؤلاء عائشون على تقاليد اسلافهم و تمنّيات انفسهم .

و حصيلة البحث ان السعادة العامّة و اقرار النظام بين المجتمعات و احراز كيان البشرية انما يكون بعاملين قويّين (الاوّل) العلم بالحقائق من طريق المنطق (الثانى) الأيمان الراسخ به و نتيجة العاملين اندفاع الجوارح لتحقيق ذلك العلم وما يثمره من ايمان و اذا اندفعت الجوارح نحو ذلك سعدت الحياة و الأحياء وجاز ان يقال لهذه المجتمعات انّها مجتمعات بشر و الاّ فلا حكومة الاّ للجهل والعامية و الجهل و العامية لا ينتجان سوى التبلبل والأنهيار كما ان ذلك شارة اغلب الأزمنة و الأمكنة .

* (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم ممّا كتبت ايديهم و ويل لهم ممّا يكسبون ٠

كلمة ويل يسندها الناطق لغيره فتفيد التقبيح و لنفسه فتفيد التأسف فاذا قال ويح فلان فمعناه قبحاله و اذا قال ياويلى او ياويلتا كان معناه وا أسفى و الأشتراء الأستبدال والكسب هو العمل الذى تجتلب به المنافع ٠

ثم انحى سبحانه على الوضاعين من علماء اليهود الذين يستأجرهم انتهازيوا دورهم و شياطين عصرهم اولئك الذين يستخدمون الديانات فى تمشية مقاصدهم الفاسدة فيضعون للواهنين من علماء الدين جعائل ليزيدوا او ينقصوا فى زبر الدين و لوائح نظمه بما يؤمّن رغبات من استخدمهم :فقبحا لأولئك الذين يكتبون كتب الله المنزلة و يحوّرونها بالدواعى التى اشعرنا بها ثم ينسبون ما كتبوا الى السماء و انه من عند الله ليستبدلوا بهذا الأجرام العظيم و الخيانة العظيمة ثمنا قليلا و مهما كثر فرضا فأن الثمن الذى تباع به العاقبة من ناحية و الضمائر من ناحية ثانية ضئيل فى قبال مابذل فى سبيله :فقبحا لأيديكم الخائنة ياجماعة اليهود و لكل من كان على شاكلتكم و سحقا لمكسبكم هنذا : و تفيدنا هذه الآية لزوم اخذ الحذر فى عالم النقل لكثير مافيه من الدّس او لكونه مظنّة لذلك فى طول الأجيال وفى مختلف الأوقات ٠

* (و قالوا لن تمسّنا النار الاّ ايّاما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ام تقولون على الله مالا تعلمون : بلى من كسب سيئة و أحاطت به خطيئته فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون : و الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك اصحاب الجنّة هم فيها خالدون) *

المسّ اللصوق و وصف الأيام بالمعدودة اشعار بقلّتها و اخلاف العهد نقضه وكسبه جرّه اليه و الأحاطة الأستيعاب و السيّئة الخطيئة و استعمالهما معا فى موضوع واحد تفنّن فى التعبير و الخلود الدوام .

و قالوا اى اليهود حال كونهم راضين عن انفسهم مدلّين بأنسابهم للأنبياء مستصغرين للسيئة تكون منهم مسيئنا حتى لو دخل النار لا تمسّه الاّ اوقاتا قصيرة ثم يمضى للنعيم الخالد فأستفهمهم اللّه تعالى استفهام هزء بأنكم اتخذتم من الله عهدا بذلك فالله لن يخلف عهده لكن الله لم يعهد اليكم ولا الى غيركم به ولا فرق عنده بين مسىء و مسىء بل انتم فى قولكم هذا تقولون على الله بالتشهى و الأفتراض لاعن علم و اطلاع: بلى :اثبات لأمساس النار لكل مسىء :من كسب سيئة والمراد بها الجنس :واحاطت به خطاياه فلم تدع للخير منفذا الى عمله فأولئك اصحاب النار و ملازموها ولازم ذلك فيهم خلود هم فيها لأنهم بأستيعاب الخطايا لهم لا يملكون ما يمونهم من النعمة قليلا او كثيرا و بحكم المقابلة يكون المؤمنون العاملون للصالحات من ملازمى الجنّة اذ لا صارف لهم عنها من سيئة و خطيئة و ملازمة الجنّة معنى آخر للخلود فيها .

قال بعض المفسرين قدم رسول اللّه (ص) المدينة و اليهود تزعم ان مدة الدنيا سبعة آلاف سنة و انّما نعذب مكان كل الف سنة يوما واحدا ثم ينقطع العذاب فأنزل اللّه هذه الآية .

* (واذ اخذنا ميثاق بنى اسرائيل لاتعبدون الاّ
اللّه و بالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى
و المساكين و قولوا للناس حسنى و اقيموا
الصلاة و آتوا الزكاة ثم توليتم الاّ قليلا منكم
و انتم معرضون) *

القربى احد مصادر قرب قربا وقرابة وقربى و اليتامى جمع يتيم وهو من الناس من مات ابوه وهو صغير و المسكين هو الذى اسكنه الفقر و التولّى الأدبار و الأعراض و يؤكد احدهما بالآخر لتثبيت المضمون .

و المعنى اذكر يا محمّد لقومك و لكل من يتأتّى معه الخطاب اذ اخذنا ميثاق بنى اسرائيل من طريق الأنبياء الذين ارسلنا و الكتب التى انزلنا فقلنا لهم بلسان الرسول و الكتاب جميعا لا تعبدون الاّ اللّه انشاء بصورة خبر وهو آكد فى افادة المقصد لأنه بصورة الحكاية عن الواقع بأنهم لا يفعلون العبادة مع غير اللّه و الأنشاء انما يفيد الحاكمية لا اكثر وربّ محكوم عليه غير قائم بوظيفة الحكم امّا المخبر عنه بالفعل او الترك فكأنه لا تخلف فيه امّا لحسن الظن بالطرف بأنه لا يعرّض خبر من اخبر عنه للكذب و امّا لقوة الحكم فى نفس الحاكم حتى ان قوّته لتسرى الى المحكوم فينثنى لها من غير مماطلة ولا تعلّل .

و هكذا قلنا لهم احسنوا بالوالدين الأب و الأم احسانا او و تحسنون على غرار لا تعبدون و بالأرحام لانهم اقرب الناس اليكم

و انتم اكثر مسؤلية بالنسبة اليهم و باليتامى لقصورهم عن جلب المنافع لأنفسهم و فقدهم للمحامى عنهم و الكفيل لهم و بالمساكين لانقطاع الأسباب الظاهرية بهم و قولوا للناس فى المعاشرات و الأنذارات قولا بعيدا عن السوء و القذر لان ذلك يحجرّ العاطفه اكثر و اقيموا الصلاه التى هى رابطتكم بربكم فى خلواتكم و جلواتكم و آتوا الزكاه التى هى ركيزة المواساة و امّ الخيرات و رأس المساعدات و بها يؤمن الكثير من الحاجات ٠

و بعدما أبان سبحانه عن هذه التكاليف و الآداب فى سياق خبر وغيبة التفت الى الخطاب لانه اثبت و أبعد عن الأبهام لان المقام مقام اخذ نتيجة و افحام فقال انكم يابنى اسرائيل بعد ما واجهتم تلك التكاليف بالقبول اد برتم عنها فى مقام العمل الآ قليلا منكم وفى بميثاقه وقام بواجب عهده ولم يكن تولّيكم عن غفلة و نسيان و ذهول وعزوب نفسى بل كان عن اعراض وجفاء :وفى ذلك من التقبيح لهم مالا يبلغه خطاب غيره ٠

* (و اذا اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دمائكم ولا تخرجون انفسكم من ديارکم ثم اقررتم و انتم تشهدون : ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم و تخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالأثم و العدوان و ان يأتوكم اسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الاّ خزى فى الحياة الدنيا و يوم القيامة يردّون الى اشدّ العذاب وما اللّه بغافل عمّا تعملون) *

سفك الدم اراقته و الدم اصله دمى بحذف اللام و الدار منزل المقام لا منزل الأرتحال و الأقرار الأعتراف على النفس و الشهادة اخبار عن المشهود اوما هو بمنزلته و المظاهرة المعاونة و ظاهر بين درعين اذا جعل احديهما فوق الأخرى و الأثم الفعل القبيح و العدوان التجاوز و الأسر الأخذ بالقهر و المفاداة اعطاء الفداء و الخزى هو السوء .

اخذ الميثاق كان من اسلاف اليهود المعاصرين للنبىّ و بما ان هؤلاء كانوا على رويه آبائهم نسب ذلك اليهم ومعنى لا تسفكون دمائكم لا يقتل بعض منكم بعضا تنزيلا للأسره منزله الشخص الواحد اولأن القتل يسبّب على القاتل القصاص فكأنه بقتله لغيره قاتل لنفسه .

ولا تخرجون انفسكم من ديارکم معناه لا يبغ احدكم على الآخر لقوّة فى نفسه و ضعف فى قبيله فيعتزّ بقوته و ينتهز ضعف طرفه فيطرده عن حقوقه كما تفعله الحيوانات الضارية القوىّ منها مع الضعيف .

ثمّ اقررتم : تعقّب الأقرار انّما هو لأخذ الميثاق بمعنى انكم مقرّون بأخذ الميثاق المذكور منكم و انتم تشهدون على انفسكم باقرارها و اعترافها بما اخذ منها و قيل معنى تشهدون انكم تحضرون سفك دمائكم و اخراج انفسكم من دياركم كما قيل ان الآية نزلت فى بنى قريظة و النضير فيكون الخطاب على اصله الاّ فى خطاب ميثاقكم فأنه باعتبار سلفهم .

ثم انتم : تعقب للأقرار بأخذ الميثاق و ــ هؤلاء ــ يجوز ان يكون تأكيدا لأنتم كما يجوز ان يكون منادى محذوف حرف النداء بمعنى انتم ياهؤلاء و اسم الأشارة مشعر قوىّ بأن القاتلين للأنفس المخرجين من الديار هم المعاصرون من اليهود لزمان الأسلام : تظاهرون عليهم : بمعنى يتعاون بعض منكم مع بعض فى اخراج الفريق الذى هو منكم يهودية و مبغوض لكم روية آثمين فى مظاهرتكم عليهم متجاوزى الحد فى الأيقاع بهم .

كان الأسرائيلى ملزما اذا وجد اسيرا من قومه ان يفديه و يخلصه من الأسر كما كان محرّما عليه فعل القتل و الأخراج من الديار فأنبهم ربّ العزّة على تفكيكهم بين الوظيفتين حيث استباحوا القتل و الأخراج من الديار و اذا وجدوا اسارى منهم فادوهم قيل ان بنى قريظة كانوا حلفاء الأوس و بنى النظير كانوا حلفاء الخزرج فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه و اذا غلبوا خرّبوا ديار المغلوبين و اخرجوهم و اذا اسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه فعيب عليهم بذلك .

و : هو : امّا ضمير شأن اومبهم يفسره اخراجهم : افتؤمنون ببعض الكتاب : وهو التوراة و البعض الذى يؤمنون به هو فداء الأسرى وتكفرون ببعض وهو تحريم القتل و الأخراج ولا شك ان ذلك منهم تناقض فى

العقيدة او في العمل على موجبها : وخزيهم في الحياة الدنيا قيل هو اخذ الجزية منهم مع الذّل والصغار او يقال هو مطلق الهوان الذى تلبسوا به طيلة اجيال ثم ان هذا الذل والهوان غير مكفر عنهم ماصدر منهم بل انهم يوم القيامة يردّون الى اشدّ العذاب مكافئة لهم على ما ارتكبوا من جرائم واقترفوا من مآثم : وما الله بغافل عمّا تعملون : لأن الله ناظر كل جريان وضابط عمل كل عامل .

* (اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) *

اولئك اشارة الى الأسرائيليين الذين تحدّث عنهم فى الآيات السابقة بأنهم ارتكبوا جملة ممّا حرّم عليهم من قتل بعضهم بعضا بغير حق واخراج بعضهم لبعض عدوانا ارضاء لأهوائهم فى هذه الحياة على انّ حياتهم الدنيوية المشار اليها ليست بموقوفة على ذلك ولا على اىّ محرّم يفرض حتى يلتجؤا لتأمينها الى ارتكاب ما هو محظور عليهم وليست الدنيا ضرة للأخرة كما قيل فأن الله سبحانه ما خلق فى الدنيا شهوة وحرّم جميع ما يؤدى اليها من طرق وباستطاعة المؤمن العاقل ان يجمع بين دنياه واخراه وليس من لازم ايمانه ان يبيع دنياه لأخرته كما انه ليس من لازم الشهوة وتأمينها بالمشروع ان يبيع آخرته بدنياه .

والذى عبّر به من بيعهم الآخرة بالدنيا قصد فيه الى ما يعتبرونه حياة دنيا من سفك دم محرّم واخراج المتوطن عن الوطن بغيا بغير حق ونظير ذلك من الجرائم التى يقودها الجهل بمعنى الحياه ولا شك ان مايعتبره هؤلاء السفهاء حياة يتناقض هو والآخره ولايجتمع معها : هذا وجهلم بالحياة الدنيا كما ينبغى وبالآخرة كما يراد

لا يخفف عنهم العذاب المعدّ لمتلف آخرته بعمل دنياه ولا ينتصرون من طريقه على الحجة التى تقام عليهم يوم الحساب وما ذلك الاّ لأن جهلهم كان عن تقصير لا قصور وعن عمد لا خطأ

* (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل
وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وايدّناه بروح
القدس افكلّما جائكم رسول بما لا تهوى انفسكم
استكبرتم ففريقا كذّبتم وفريقا تقتلون) *

الأيتاء الأعطاء والكتاب هنا التوراة والتقفيه هى المتابعة يقال قفوت فلانا اذا صرت خلف قفاه والرسل جمع رسول وايدّناه اعطيناه الأيد بمعنى القوّة والقدس الطهر والتقديس التطهير والقدّوس مبالغة فى الطهارة والهوى الرغبة والشهوة ٠

التأكيد بقوله (لقد) تثبيت لأسباغ نعمه تعالى على بنى اسرائيل فأن ارسال الرسل واعطاء النظم المعدّله للحياه من أهمّ النعم على الأنسان فى مجارى حياته الصحيحة فاذا طغى هذا المخلوق على مصالحه وثار على ما يضمن له سعادته ويطرد عنه شقائه فقد كفر بأعظم النعم عليه ومن هنا لمّا عدّد سبحانه على بنى اسرائيل نعمه السابغة التى اولاهم بها من ارسال موسى اليهم وقيامه بالأعمال الجبّارة التى واكبت حياته واثمرت لهم الثمار العظيمة من استخلاصهم من فراعنة مصر وتمكينهم فى الأرض واعلاء شأنهم بين الناس وتقفيته برسل كثيرين منهم وانبياء وفيرين من سلالتهم كان خاتمتهم عيسى بن مريم الذى آتاه المعجزات البيّنات من احياء الموتى بأذن الله وابراء الأكمه والأبرص وغير ذلك وعزّز قواه النبوية بجبرئيل اخذ يوبّخهم مستنكرا

عليهم ماقابلوا به هذه النعم من استكبارهم على الحق بتكذيبهم فريقا من هؤلاء الآباء الروحيين و قتلهم لفريق آخر منهم كيحيى كل ذلك مجاراة لأهوائهم الضالّة و رغباتهم الفاسدة بقوله أفكلّما جائكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم و الحال ان وظيفتكم امام الرسل الأستصغار كما هو من لازم التلميذ فى مقابل استاذه و متى تكبّر التلميذ على استاذه فقد ابرز جهله .

و كلمة روح القدس لجبرئيل لقب تشريف له على سائر الملائكة : وانّما فاوت سبحانه بين الفرقتين فى التعبير فقال ففريقا كذبتم بالفعل الماضى على الأصل و فريقا تقتلون بالفعل المضارع فى حال انّهما من رعيل واحد ابرازا للقتل الذى هو اعظم بمراتب من التكذيب مبرز الأمر الحاضر المشهود ليكون ابعث على تعقله و اقرب الى احضاره فى الذهن و ادعى الى استقذار فعله فى النفس .

و حصيلة البحث ان الأنسان لسعادة دنياه و اخراه يجب ان يقف من ميوله موقف المتحذر المتيقظ لأنّه متى احسن ظنّا بها مشى ورائها مشى اعمى فأوردته فى المتناقضات فتراه بعد ان يصّر على تحصيل الشىء و يتحمل من طريق ذلك اضرارا مهمّة فاترا عنه جدّ الفتور بل مبغضا له اشد البغض امّا مسايرته لعقله و رشده فلا يعدم منها اعتداله الدائم و قلة توارد الحوادث عليه و ذلك امر مرغوب فيه مطلوب لكل انسان و ان كان جاهلا .

* (و قالوا قلوبنا غلف بل لعنهم اللّه بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) *

الغلف بضمّ الغين و سكون اللام جمع اغلف اى كان فى غلاف كغيبة الحشفة فى الغلفة و اللعن و الطرد و الأبعاد وما زائده تؤكد مفاد ما تدخل عليه فأذا قيل كثيرا ما أفادت تأكيد الكثرة و اذا قيل قليلا ما أفادت تأكيد القلّة .

يحتمل فى حكاية قالوا التحديث عن الماضى كما يحتمل التحديث عن حاضر المعاصرين للأسلام من اليهود بأنّهم كلّما وجّه اليهم عتاب او لوم فى ارتكاب مالا يليق او ترك مالا ينبغى ان يترك قالوا نحن قليلوا الأدراك بطيئوا الفهم لأنحجاب اجهزة ادراكنا بأكنّة غامرة ساترة لها و منشأ قولهم هذا امّا ما يدركونه فى انفسهم من بطؤ الفهم او يقولونه شبه مستهزئين وعلى كلا الحالين اجابهم اللّه سبحانه بأن هذا التغلّف الذى تنطقون به نتيجة طرد اللّه لكم عن لطفه و ابعاده لكم عن رحمته بسبب تجافيكم عنه و الباء فى بكفرهم للسببية و معنى قليلا ما يؤمنون انّهم قل ما يؤمنون بواقع من واقعيات الكون لتشكيكهم حتى فى الواقع نفسه و بعدهم عن الصفاء .

و حصيلة البحث ان الأعتذار انّما يقبل اذا كان عن دواعى مشروعه بأن يكون فى الأنسان نقصان خلقة يقف به عن الفهم او يفقد المبلغ رأسا و ليس بأستطاعته ان يجتلى الواقع بنفسه و بسوى ذلك تكون اعذاره قشرية لا ترفع عنه لائمة ولا تسقط عنه تكليفا .

* (ولمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم
وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا
جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) *

جاء فى اسباب نزول هذه الآية عن ابى عبد الله (ع) قال كانت اليهود تجد فى كتبها ان دار هجرة محمّد بن عبد الله رسول الله ما بين عير وأحد فخرجوا يطلبون الموضع فمرّوا بجبل يقال له حداد فقالوا حداد واحد سواء فتفرقوا عنده فنزل بعضهم بتيماء وبعضهم بفدك و بعضهم بخيبر فاشتاق الذين بتيماء الى بعض اخوانهم فمرّ بهم اعرابى من قيس فتكاروا منه وقال لهم امرّ بكم ما بين عير وأحد فقالوا له اذا مررت بهما فآذنّا بهما فلمّا توسط بهم ارض المدينة قال ذلك عير و هذا احد فنزلوا عن ظهر ابله وقالوا قد اصبنا بغيتنا فلا حاجة بنا الى ابلك فأذهب حيث شئت وكتبوا الى اخوانهم الذين بفدك وخيبر انّا قد اصبنا الموضع فهلمّوا الينا فكتبوا اليهم انّا قد استقرّت بنا الدار و اتخذنا بها الأموال وما اقربنا منكم فاذا كان ذلك فما اسرعنا اليكم و اتخذوا بأرض المدينة اموالا فلمّا كثرت اموالهم بلغ ذلك تبّعا فغزاهم فتحصّنوا منه ثم امّنهم فقالوا له ليس هذا المقام لك ولالغيرك فأنه دار هجرة نبىّ فقال لهم انّى مخلّف فيكم من اسرتى من اذا كان ذلك ساعده و نصره فخلّف عندهم حيّين هما الأوس و الخزرج فلمّا كثروا فيها كانوا يتناولون اموال اليهود فكانت اليهود تقول لهم اما لو بعث محمّد لنخرجنكم من ديارنا و اموالنا فلمّا بعث الله محمّدا (ص) آمنت به الأنصار و كفرت به اليهود وهو قوله تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ـ الخ ـ

و لمّا جائهم :اى جاء كافة المكلّفين ومن جملتهم اليهود كتاب من عند الله لا شك فيه يحقّ الحقّ و يصدّ ق بكتب السماء المنزلة على من سبق من الأنبياء كنوح و ابراهيم و موسى وعيسى ،وما معهم هو التوراة ، وكانوا من قبل مجيء هذا الكتاب وظهور صاحبه الذى انزل عليه وهو نبّى الأسلام يطلبون الفتح على من يناوئهم من الله تعالى بسبب هذا النبىّ ومن طريق اتباعهم له فلما جائهم رؤية عين كفروا به و جحدوه و أصبحوا من اعظم المجلبين عليه و الواقفين فى صد ره فلعنة الله على الجاحدين لما عرفوا و المنكرين لما تحقّقوا .

* (بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغيا ان ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب و للكافرين عذاب مهين) *

نعم وبئس فعلان جامدان على المنضى صيغا للمدح والذم والأكثر فى استعمالهما ان يجاء لهما بأسم جنس امّا معرّفا بأل يكون مرفوعا على الفاعلية لهما وامّا نكرة يكون تمييزا مفسرا للضمير المستتر فيهما بعنوانه فاعلا لهما ومن بعد اسم الجنس يؤتى بالمخصوص بالمدح والذم ويجوز اعتباره مبتدأ مؤخرا والجملة قبله خبر مقدّم كما يجوز اعتباره خبرا لمبتدأ محذوف وجاء بقلّة نعم زيد وبئس عمرو بدون اسم جنس ،و(ما) فى بئسما اشتروا به انفسهم نكرة موصوفة بالجملة الفعلية بعدها بتقدير بئس شيئا اشتروا به انفسهم فهو نظير قولنا بئس رجلا و ان يكفروا بما انزل الله كلام يسبك بمصدر يكون هو المخصوص بالذم على معنى بئس شيئا اشتروا به انفسهم كفرهم بما انزل الله والبغى هو الأفساد الناشيء عن التعدى ونصب بغيا على

المفعول له وان ينزل الله كلام يسبك بمصدر مجرور بحرف جر مقدّر والأشتراء افتعال من الشراء لأن الأكثر فى الكلام ان يقال شريت بمعنى بعت و اشتريت بمعنى ابتعت وباء بمعنى رجع و الأهانة الأذلال .

النفس الأنسانية جوهر قيّم جعله الله تحت اختيار من ينعم عليه به اختبارا له كيف يصنع معه فتارة يبعده عن ذاته بتقريب اضداده وهى الرذائل اليه و اخرى يقرّبه منها بأختياره ما يلائمه وهى الفضائل فيعتبر هذا التقريب و التبعيد بمثابة معاوضة و مبادلة ومعنى ذلك فى الآية ان اليهود بئسما اختاروا لأنفسهم من طرد خيراتها عنهم و تقريب اضدادها اليهم امّا خيراتها فهى الأيمان بالحق و اتباعه و الأبتعاد عن الحسد و التعصب البغيض و امّا اضدادها فهى الكفر بالواقع و اتباع الباطل و المحرومية من نعم الحق و الأتسام بالحسد و مناوءة اهل الفضل .

و المراد بالفضل الذى انزله على من شاء من عباده هو الوحى الذى اختصّ به نبىّ الأسلام و النبوّة التى تَوجّه بها و المراد بتكرر الغضب عليهم حيث قال سبحانه فباؤا بغضب على غضب الغضب الذى استحقوه ازمان نبيّهم موسى بن عمران و بعده من عبادة العجل و قصورهم عن المسير معه الى حرب الطغاة وصيدهم يوم السبت وغير ذلك و الذى استحقوه بكفرهم بنبىّ الأسلام و وقوفهم امام دعوته اشدّ خصوم و الدّ اعداء و الكافرون بالحق الجاحدون له شاملون بسعة نطاقهم لليهود لأنّهم من هذا القماش فهم محكومون بالعذاب المهين كما حكم به كل كافر .

وحصيلة البحث ان الأنسان عند بلوغه عاقلا كالمادة الغير

المصنوعة وهو باستطاعته من هذا التاريخ ان ينزل بنفسه حيث يسترذل وان يصعد بها حيث يشرف نزولا وصعودا لهما حسابهما الدقيق وكل ذلك بأختياره الا ّ فى النادر القليل ولا ريب انه اذا نزل بها فقد اساء اليها و فرّط فى حفظها و المفرّط ضامن و اذا تعالى بها فقد احسن اليها و المحسن له جزاؤه الموفور ٠

* (و اذا قيل لهم آمنوا بما انزل اللّه قالوا نؤمن بما انزل علينا و يكفرون بما ورائه وهو الحقّ مصدّقا لما معهم قل فلم تقتلون انبياء اللّه من قبل ان كنتم مؤمنين) *

كلمة ما وراء تستعمل بمعنى غير وسوى الأستثنائيتين فمعنى ماوراء ذلك ماسواه ومعنى الآية واذا قيل لليهود آمنوا بجميع ماانزل اللّه لأن الأيمان باللّه يلزمه الأيمان بجميع ما انزل بلا فرق بين قديمه وجديده اجابوا بأننا انّما نؤمن بخصوص ما انزل علينا من التوراة ومفهوم هذا الحصر هو الكفر والجحود بكل ماسوي التوراة كالأنجيل المنزل علي المسيح والقرآن المنزل على محمّد (ص) وان كان نظر الآيه الى القرآن اقرب بدليل قوله تعالى وهو الحقّ مصدقا لما معهم وضمير هو يرجع الى ماورائه فى قوله تعالى ويكفرون بماورائه بمعنى ان ماكفروا به هو المتقرر الثابت نزوله من قبل اللّه تعالى الذى لم يحرف ولم يعبث به بخلاف ماسواه من كتب السماء التى حرّفت وعبث بها ومن جملتها التوراة نفسها ومصدّقا حال مقرر للجملة قبله نظير زيد ابوك عطوفا بمعنى ان ماوراء التوراة هو الحقّ المتقرر مع كونه معترفا بها لا منكرا لها ومن لازم ذلك اعترافكم به لأعترافه بواقعيتكم واصالتكم ٠

ثم حكمهم سبحانه بحجة اخرى حيث قال لهم اذا اختصصتم بما انزل عليكم و كفرتم بما ورائه فلما ارتكبتم اعظم جريمة فى الديانات مصرح بها فى نصوص التوراة نفسها وهى قتل الأنبياء فأين مكان ايمانكم بما انزل عليكم :فأن قيل كان من اللازم ان يقال فلم قتلتم انبياء الله من قبل لا ان يقال فلم تقتلون قلنا كل عمل اذا اتخذ عادة جاز ان يؤتى به بصفة الحال فيقال لمن سبق منه عمل التلصص مكررا فلان يتلصص و يسرق و هكذا يزنى و يقتل لمن تكررت منه هذه الأعمال بحيث صارت عادة له فنسبة تقتلون لليهود بصيغة المضارع وردت على هذا الملاك .

و هكذا يشكل ايضا بأن اليهود الذين هم محط نظر الآية اليهود المعاصرون لنزول القرآن و هؤلاء لم يصدر عنهم قتل لنبى و انما صدر ذلك عن اسلافهم الأسبقين قلنا ان كل مصحح لأعمال غيره مشارك له فى عقيدته مؤيد لسيرته محكوم بحكمه فأن الراضى بفعل قوم كالداخل معهم فيه و اليهود المعاصرون للأسلام انما تعبدوا بسيرة اسلافهم لا بدعوة موسى بن عمران ولا توراته .

و حصيلة البحث ان النفوس نزاعة الى التظاهر بالأمتياز ولو كان بالأوهام و الأدعاآت الفارغة لكن الذى يميز بين الوهم، و الحقيقة يتحاشى عن ذلك ومن هنا طرد الأسلام الأمتياز بالألوان و الأنساب و اللغات و الأمصار بل و تعدى الى ما هو حقيقة فى نفسه لكنه منفك عن صاحبه كالمال و الجاه الكاذب و انما اجاز الميز بمكاسب الأنسان المعنوية وهى الفضائل صرفا بلا تخصص بلون او نسب او بلغة او بمكان خاص او بمال لا فضيلة معه او بجاه استفاده صاحبه بالتملق او الخدمة عند الظالم .

* (ولقد جائكم موسى بالبينات ثم اتّخذ تم العجل من بعده وانتم ظالمون) * .

هذه الآية رصيد واضح على ما جاء فى الآية السابقة حيث قال سبحانه مفندا فيها مزاعم اليهود :قالوا نؤمن بما انزل علينا قل فلم تقتلون انبياء اللّه من قبل ان كنتم مؤمنين :ومعنى هذا الرصيد انكم لم تؤمنوا حتى بما انزل عليكم فضلا عمّا سواه ولم تأخذوا بقليل منه ولا كثير وليس انحرافكم عمّا انزل عليكم منحصرا بقتلكم لأنبياء اللّه وان كان هو فى نفسه من اعظم الموبقات فقد جائكم موسى بآيات بيّنات دالة على صدقه كاليد البيضاء وتفجر الماء عن الحجر وفلق البحر وقلب العصا ثعبانا وعشرات سوى ذلك ومع كل هذه الآيات اتّخذ تم العجل معبودا من دون اللّه ولا شكّ انكم فى كل حركة وسكون من انحرافاتكم هذه ظالمون لأنفسكم متجاوزون عن كل حدّ لكم .

وحصيلة البحث ان محتويات الجوانح انما تبرزها اعمال الجوارح وان ظاهرة الصلاح انما يستدل عليها بالفضائل التى تحققها فليست الصلاة مثلا دليلا على صدق الرجل حيث يدعيه لنفسه وانما الدليل عليه تجربته العملية فى مظان الصدق والكذب وكذلك الصلاه ليست دليلا على وفاء الرجل وحيائه كما ان كثرة الصدقة لاتدل على عفته ونجابته وانما يكون اللسان دليلا على مادته فقط وهى كون الأنسان ناطقا او حصورا مبينا اوعييا ولا يكون دليلا على ما سواها فاليهود الذين ادعّوا انهم يؤمنون بما انزل عليهم قد برهنوا على تدليسهم.هذا بأتخاذهم العجل المنهى عن عبادته طبعا بمقتضى العقيدة باللّه وبرسالة موسى وانزال التوراة فأن هذه العقيدة تنافى

عبادة العجل بل تنافي اي عمل آخر يناقض ما جاء عن الله وصدع به الرسول و تكفّل بذكره الكتاب نعم قد يفسق المكلف حينا في حواشي التكاليف لا الرئيسي المهمّ منها امّا مع الأصرار على المعاندة والمناوءة والتحدّي بالعمل المضاد فهو كافر لا شك فيه .

* (و اذا اخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطور خذوا ما
آتيناكم بقوّة و اسمعوا قالوا سمعنا وعصينا
و اشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما
يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين) *

تقدّم القول على صدر هذه الآية وهو قوله و اذا اخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوّة و انما كرر للتثبيت و التقرير كما جاء في شعر الحماسة .

قربا مربط النعامة منّي

مكررا في ابيات عديدة وقد جاء فيما سبق عقيب قوله خذوا ما آتيناكم بقوّة قوله واذكروا مافيه وجاء هنا واسمعوا والجملتان بالمآل مفادهما واحد لأن المنظور بالسمع هنا هو التدبر و التعقل المشفوع بالعمل وعين هذا المعنى يقال في التذكر للشيء فأن تذكر الشيء احضاره في الذاكرة ليتجسّم في النفس حتى يشعّ على الحواس كلها فتخضع له ومعنى قوله قالوا سمعنا وعصينا يجوز ان يكون محمولا على الحقيقة نفسها بأنهم لما قيل لهم اسمعوا قالوا بجدّ حاكين عن انفسهم سمعنا بآذاننا وعصينا بجوارحنا كما يجوز ان يكون عن لسان حال بمعنى ان ما يصدر عنهم سبيله سبيل من يقول لمولاه سمعا وطاعة و لكنه في مراحل العمل لا يصحر من ذلك بشيء .

و الأشراب هو التغلغل و نسبة الأشراب الى العجل موقوفة الصحة على تقدير مضاف اى حبّ العجل فأن الحبّ هو القابل للتغلغل كقبول الماء لذلك و المراد بأشراب قلوبهم حب العجل انهم بعيدون عن المنطق منشمرون عن المعنويات فى مفازة عن الأمور المعقولة قريبون من الوهم و الخداع شأن كل منحرف فى العالم وليس حب العجل الذى عبدوه بما هو منظورا لله سبحانه بل المنظور به الكناية عن كل امر مسترذل ساقط لا قيمة له ولا وزن و الباء فى قوله تعالى بكفرهم للسبب بمعنى، ان جحودهم للحقائق من طريق الجهل للأعراض عنها هو اشرب فى قلوبهم حبّ كل ساقط مسترذل عند العقلاء اذن فقل يامحمّد لهؤلاء الذين بعدوا عن المنطق هذا البعد ومع ذلك ادّعوا الأيمان بما انزل عليهم بئسما يأمركم به ايمانكم اذ لم ير من نتائج اعمالكم الآ كل معصية وكل انحراف فأى ايمان هذا ان كان لكم ايمان بشئ .

و حصيلة البحث ان الأنشمار عن الحقيقة دائما له داع من داعيين اما الجهل بها وعدم التدبر لها كما ينبغى و امّا المطاوعة لرغبات النفس ولو كانت واضحة الضلال ثم الجهل بالشئ وعدم التدبر له تارة يكون بصرف النفس عن الحقيقة و تفهمها و اخرى يكون لعدم الوسيلة التى من طريقها يكون الفهم وكل هذه المراحل متحققة الوجود فى الأجتماع البشرى بفشوّ وكثرة فأن جهل اعراب البوادى و سكان الأهوار و الغابات منشؤه عدم الوسيلة و امّا حضار المدن فالجاهل منهم منشؤ جهله صرف نفسه عن كل ماسوى نفسه المادية و العالم منهم منشأ انحرافه انجرافه مع الميول الضالّة مع علمه بضلالها * (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) *

الدار الآخرة هى النشأة الثانية الكائنة بعد البعث و الخالص الصافى الفاقد لكل شوب و التمنّى هو اظهار التمايل لوجود ما ليس بكائن او لعدم ما كان فيقال ياليتنى كنت ملكا او ياليتنى لم اكن :كان اليهود وكل جاهل يكون على هذه الروية معجبين بأنفسهم و أصالتهم و انّه لا موجود يحاذيهم و يساويهم سواء فى اصالة العنصر ام طيب الصفات ام الحظوة عند اللّه ومن جملة ذلك ادعاؤهم ان النشأة الثانية وما فيها من نعيم مقيم خالص لهم من دون الناس لا يشركهم فيه احد لذلك امر اللّه نبيّه محمّدا ان يقول لهم انّ ما تدعونه ان كان حقا فتمنّوا على اللّه ان يميتكم حتى تنتقلوا من هذه النشأة المكتضة بالآلام و الأسقام والمنغصات الى تلك النشأة الخالدة الفاقدة للألم و السقم الواجدة لكافة النعم .

و حصيلة البحث ان جملة من الناس يحبون انفسهم و يحسنون الظنّ بها اكثر من اللازم فيرون ان بينهم و بين الناس فجوة واسعة و لكنهم لا يحسبون لهذه الفجوة حسابا انها لأىّ شىء حصلت فهل ذلك للعمل المثمر الذى يكون منهم وهو مفقود عند غيرهم فى حال ان الأمر ليس كذلك بل قد يكونون اخسّ من السائرين عملا و اكثرهم بمستقبلهم املا حيث لا شىء وهذا الداء علاجه حسن التوجه لهذا الغلط ومع التوجه الدقيق يعافى صاحبه منه وعلى ميزان الأعتزاز بالطبيعة الصرفه قال امير البيان عليه السلام ما لأبن آدم و الفخر واولّه نطفة قذرة و آخره جيفة نخرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة نعم يفخر ابن آدم بالفضيلة يكتسبها اولا و يبذلها فى صالح المجتمع ثانيا فمثل هذا الأنسان يجوز له ان يفخر فى الدنيا و يأمل مستقبلا زاهرا عند اللّه لكن لا بنحو الأختصاص دون سائر الناس .

* (ولن يتمنوه ابدا بما قدّمت ايديهم و الله عليـــم بالظالميـــن) *

يقول تعالى ان اليهود مع ادعائهم ان الدار الآخرة خالصة لهم عند الله لا يتمنون الموت ابدا لعلمهم بما يرتكبون وما ارتكبوا فى هذه الحياة من جنايات و خيانات و الأنسان لا يخادع نفسه وان تظاهـــر بخلاف ما يعلمه من نفسه •

* (و لتجدنّهم احرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا يودّ احدهم لو يعمّر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمّر و اللّـه بصير بما يعملون) *

وجدان الشيء اصابته و الحرص عليه شدة الطلب فيه و المـــودة الحبّ وعمّر بالبناء للمجهول طال عمره و كلمة (الف) تقال لما بلـــغ عدده عشر مئآت و كأنها مأخوذة من التأليف وهو ضمّ شيء الى شـــيء و البصير مبالغة فى المبصر و الزحزحة التنحية و اللام فى لتجدنّهـــم تأكيدية توطئة للقسم و انما جيء بلفظ حياة نكرة لأفادة انهم يحرصـون على طول العمر ولو كان مع بؤس و شقاء و يودّ احدهم جملة فعلية صفة لموصوف محذوف تقديره من الذين اشركوا اناس يودّ احدهم لو يعمّـــر الف سنة وضمير هو فى قوله وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمّر يجوز ان يرجع الى احدهم فى قوله يودّ احدهم بتقدير وما احدهم بمزحزحه من العذاب ان يعمّر وجملة ان يعمّر تسبك بمصدر يكون مبتدأ خبـــره بمزحزحه يعنى و ما احدهم تعميره الف سنة او اكثر بمزحزحه مـــن العذاب كما يجوز ان يكون هو ضميرا بمعنى التعمير يفسّره قولـــه ان يعمّر بتقدير وما التعمير بمزحزحه من العذاب ويكون ان يعمّر لا محلّ

له من الأعراب حينئذ .

و مفاد الآية اخبار من اللّه لنبيّه نبيّ الأسلام ليبيّن له حقيقة اليهود بأنهم حراص على الحياة اكثر من غيرهم حتى لو عاشوا مع بؤس ماحق و ذل شامل ومن اجل هذه الصفة يراوغون و يحتالون و يخادعون ليؤمنوا انفسهم فيما يرون وهذا منهم دليل واضح على ضعف عقيدتهم بالمعاد وعلى سوء ظنّهم بأنفسهم وبما تستقبل لو حشرت وحوسبت وعلى عدم شهامتهم فى الحياة فأن الشهم يميل الى الصراحة و الحرية ولا قيمة للحياة عنده مع الموهنات .

ثم انه تعالى بمناسبة ماذكر من حرص اليهود على الحياة استطرد فقال ان جملة ممّن اشرك باللّه ــ ولازم عقيدة الشرك نوعا نفى المعاد بعد الموت ــ يود ان يعيش الف سنة ليستفيد من حياته وطول عمره اذ لايعتقد وراء هذه الحياة حياة اخرى يعيشها و لكنه سبحانه خطّأ هذا الرأى من هذا المرتئى بأن حياته التى يعيشها فى الدنيا ان كانت سالمة من الموهنات فقليلها وكثيرها بعد الأستئمان من مستقبل مصون لااهمية له لأنه يستقبل حياة فضلى فى النشأة الأخرى فلا كثير جدوى فى طول حياته فى الدنيا الاّ ان يكون من منابع الخير والأفاضة والأفادة وان لم تكن سالمة من الموهنات فطولها فى هذه النشأة وعدم عقيدة صاحبها بنشأة اخرى لا يمحوان الآثار الوضعية التى رتّبها خالق العالم على اعمال و اعمار بنى آدم بأن المسىء يعذّب و المحسن ينعّم وهو سبحانه أخبر الخبراء وأبصر البصراء بما يعمل الأنسان فى ثنايا حياته و مضامير عمره .

و حصيلة البحث انّ حبّ الحياة بما هى حياة سواء اقترنت ببؤس ام لابست سعادة امر ينتقد عليه العاقل بما هوعاقل لابما انه ذو دين

وعقيدة بالمعاد لان الحبّ المذكور يقود الأنسان الى رذائل الصفات من الخنوع و الذلة و التملق و الطمع و الأستخذاء و الخديعة و المكر و السرقة وما اليها من كل صفة يظن معها صاحبها انّها تمدّ فى عمره و تدفع خوارم اجله لكّن الحياة اذا فقدت صفات الفضيلة من العزّة و الحرية و الترفع عن الموهنات كانت وبالا و نزلت بصاحبها من اعلا العلالى الى ادحض الأماكن وهذه الظاهرة ممقوتة فى الذائقة الأنسانية حتى لو لم يعتقد صاحبها بنشأة ثانية و تزيد مقتا و ذّما مع العقيدة بالدار الأخرى لأنّ للحر بعد اعطائه حياة دنياه من يده عوضا عنها وهو العيش الأخروى عند الله سبحانه هذا مضافا الى انه لا ربط لطول العمر بملابسة الرذيلة ولا لقصره بالاعتزاز بالفضيلة بل قد يقصر عمر الذليل و يطول عمر العزيز ·

* (قل من كان عدوّا لجبريل فأنه نزّله على قلبك بأذن الله مصدّقا لما بين يديه وهدى و بشرى للمؤمنين : من كان عدوّا لله و ملائكته ورسله وجبريل وميكال فأنّ الله عدوّ للكافرين) *

جبرئيل و ميكائيل اسمان علمان لملكين معروفين من بين الملائكة في عالم الديانات وهما لفظان اعجميان قيل في معناهما ان جبرئيل بمعنى عبد الله و ميكائيل بمعنى عبيد الله و الهدى هو الأرشاد و البشرى هو اوّل خبر سارّ يرد على سمع المخاطب :قيل في شأن نزول الآية ان النبيّ لما قدم المدينة سأله جماعة من اليهود فقالوا يامحمّد كيف نومك فقد جاءنا من صفة نبيّ آخر الزمان ما يعيننا على معرفته فقال تنام عيني ولا ينام قلبي (ومعنى عدم نيام القلب شدّة تشعشع الروح و قوّة فعلها) قالوا صدقت :ثم قالوا يامحمّد اخبرنا عن الولد يكون من الرجل او من المرأة فقال امّا العظام و العصب و العروق فمن الرجل و امّا اللحم و الدم و الظفر و الشعر فمن المرأة (لا شك ان تكوّن الجنين انما يكون من مزيج النطفتين المذكرة و المؤنثة ولا يحصل من دونهما وما جاء في هذا الأثر لا يزاحم هذه الكليّة) قالوا صدقت ثم قالوا فأخبرنا عن ربك ماهو فأنزلت سورة التوحيد قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا احد فقالوا له خصلة واحدة ان قلتها اتبعناك ايّ ملك يأتيك بما ينزل الله عليك فقال يأتي جبرئيل قالوا ذاك عدوّنا ينزل بالقتال و الشدّة و ميكائيل حبيبنا ينزل باليسر و الرخاء فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنا بك فنزلت الآية السالفة جوابا عن ذلك بهذا المفاد قل يامحمّد لهؤلاء اليهود من كان منكم

عدّوا لجبريل مع اعترافه به انّه ملك مأمور من ناحية اللّه فأنه لأقيمة لاستنكاره لأن اعترافه المذكور حجة عليه فأن الهدف من ثبوت الرسالة السماوية لأنسان اعتراف الطرف بأنّ هذا الأنسان يوحى اليه من اللّه والوسيط فى الوحى بعد ثبوت كونه واسطة ايصال بلا مرية لا يشترط فيه كونه مأمور حرب وشدّة او مأمور يسر ورخاء فأنّه يبلّغ و يحقّق مايوظف عليه وعواطف المكلفين لا ربط لها بالحقائق فربّ ملوم لا ذنب له ٠

نعم الذى يزع الأنسان عن التصديق برسالة من يدّعى رسالة السماء تردده فى اصل ذلك والمفروض ان اليهود لم يترددوا فيه وانما ذكروا امرا عاطفيا هو ان النازل بالوحى عليك يامحمّد من لا نهواه من الملائكة لانه لا ينزل من السماء الاّ بالقتال و الشدّة فلو كان النازل به ميكائيل لآمنا بك من غير توقف وهذا منطق سخيف للغاية لما عرفت ان المنظور فى المقام واقعية النازل على من يدعى نزوله عليه وهذا امر لم يترددوا فيه فأن جبرئيل نزّل القرآن على قلبك بأذن اللّه و امره ولم يأت به من كيسه حتى يستراب فيه و انما جعل تعالى محل النزول هو القلب لانه مكان التعقّل و التفقه و المعرفة وكلمة مصدقا حال من ضمير نزّله الراجع الى القرآن بمعنى انّ هذا الكتاب الذى نزّله جبرئيل على قلبك كتاب يصدّق بكافة كتب السماء التى سبقت على نزوله لان الجميع من عند اللّه فهى من حيث الثبوت والواقعية سواء وان امتاز بعض على بعض بخصوصيات روعى فيها مقتضى الحال وما يلزم به المقام كما امتاز القرآن على جملة كتب السماء بان فيه من الهدايات و البشارات لمن وضع نفسه موضع التفهيم و المفاهمة ما يأتى الكلام عليه عند وصف اللّه له بشىء من خصائصه ٠

و بعد ان كبح اللّه اليهود بالحجة الآنفة سمّج عواطفهم فى عدائهم

لجبرئيل و قولهم فى سبب ذلك انه ينزل بالقتال و الشدّة و الحرب بأن كلّ منفّذ لأوامر اللّه يجب احترامه اجلالا للّه و انّما يعادى المتمرد على اوامره كالشيطان الذى امره بالسجود لآدم فأبى و استكبر : اذن فمن يعاد جبريل او ميكال اوغيرهما من الملائكة المؤتمرين بأوامر ربّهم او يعاد رسل اللّه القائمين بتبليغ رسالاته فكأنما عادى اللّه سبحانه و انحرف عنه ووقع منه فى حيّز مقابل وكل من عادى اللّه فهو كافر به جاحد له و بحكم المقابلة المنطقية ان اللّه عدوّ للكافرين .

* (ولقد انزلنا اليك آيات بيّنات وما يكفر بها الاّ الفاسقون) *

الآية العلامة و البيّنة الواضحة والفاسق المنحرف وهو بمعناه العام يشمل الكفر قال ابن عبّاس فيما روى عنه فى شأن نزول هذه الآيه انّ زعيما من زعماء اليهود قال لرسول اللّه يامحمّد ما جئتنا بشيء نعرفه وما انزل اللّه عليك من آية بيّنة فنتبعّك من اجلها فردّ سبحانه هذا الزاعم بقوله ولقد انزلنا اليك آيات واضحات من اهمّها القرآن الذى لا يشابهه كتاب سماويا كان ام غيره وما يجحد بهذه الآيات الاّ المتحيزون الجاحدون للحق عن تعنّت فارغ .

* (او كلّما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل اكثرهم لا يؤمنون) *

النبذ هو الطرح والهمزة فى او كلّما للأستفهام الأنكارى وقد قرأت آنفا الحديث عن العهود التى اخذت من بنى اسرائيل وعقّبوها بالنقض ازمان انبيائهم واما زمان نبىّ الأسلام فقد عاهد بنو قريظة والنضير محمّدا (ص) ان لا يعينوا عليه احدا فنقضوا ذلك واعانوا عليه قريشا ودسّوا له الدسائس الكثيرة : ولمّا ذكرهم سبحانه بنقض العهود ابان من حقيقة امرهم ماهو اهمّ وهو انّ الأنحراف المتوفر الذى يصدر عنهم فى طول مشيهم مع التاريخ منشؤه الوحيد فقدان الركيزة الاولى فى بواطنهم وهى الأيمان بالمبدأ .

وحصيلة البحث ان الأنسان المادّى جبان فى كل شىء فكما انه فى مقام احراز حرّيته واستقلاله والدفاع عن حيثيته وكيانه حرصا على حياته وسلامته يتحمل الخسائر المعنوية فيستعمر مكان التحرّر ويستذل مكان الأعزاز كذلك فى مقام المنافع المادّية المحتملة من قليل مال ووجيز جاه جبان ايضا فتراه يعاهد انسانا على شىء وهو فى حين المعاهدة قد يكون صادقا فى عهده لكنه اذا عرض له امر مادّى يرى معاهدته السابقة هادمة له غدر وفجر وانكر وهذا كلّه غاية فى الجبن والرذالة والتسفّل والأسفاف فى حبّ المادة فأن المادة انما تراد لتحصيل الكيان واحراز العزة لا ان ذلك يكون ضحية للمادة .

* (ولمّا جائهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم
نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء
ظهورهم كأنهم لا يعلمون) *

ضمير المفعول فى جائهم يرجع لليهود المعاصرين لنبوّة الأسلام والمراد بالرسول هو محمّد (ص) وما معهم هو التوراة قبل التحريف وانما قال نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب وهو التوراة ولم يعمّم لأن جملة من اليهود اظهروا الأيمان بدين الأسلام ويجوز ان يراد بكتاب الله التوراة نفسها ويكون المعنى ان التوراة المبشرة بنبيّ الأسلام نبذها اهل التوراة انفسهم بجحدهم لمحمّد فأن الكفر به يستلزم النبذ للتوراة المبشرة به كما يجوز ان يراد بكتاب الله القرآن ونبذ اهل الكتاب له ظاهر وانّما اتّبوا على نبذه لانه مصدّق لما معهم لا مكذّب معارض واليهود مع انهم عالمون بصدقه لتبشير كتابهم به تجاهلوا بواقعيته كأنهم لا يعلمون .

* (و اتّبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما
كفر سليمان و لكنّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس
السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت
وما يعلّمان من احد حتى يقولا انّما نحن فتنة فلا
تكفر فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه
وما هم بضارّين به من احد الاّ بأذن اللّه
و يتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن
اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق و لبئس ما شروا
به انفسهم لو كانوا يعلمون) *

هذه الآية ليست من الظواهر الجلية المكشوفة ولا من المتشابهات المستورة المعنى بل مع الأمعان فيها يظهر منها المفاد التالى و اتبع اليهود ما كانت تتلوه الشياطين على عهد حكومة سليمان بن داود من النيرنجات و السحر و الشعوذة هذه الأمور التى تلبّس على الناس جملة المطالب فى الحياة و لذلك حكم الشرع بكفر الساحر اذا كان يعانى من مهنته هذا الهدف الأزعاجى الأنتهازى المرموز كما حكم بحرمة تعلّم السحر وحرمة الثمن الذى يؤخذ عليه وبما ان اشاعة هذه النيرنجات كانت على عهد سليمان كان ذلك مدعاة لتوهم ان سليمان هو الذى يؤيد هذه الطريقة و يمشّيها بين الناس او انه يستفيد منها لملكه و زعامته فدفع القرآن هذا التوهم عنه بقوله وما كفر سليمان ولكن الشياطين القائمين بالأعمال المذكورة كفروا لأنهم يعلّمون الناس السحر و يدربونهم على هذه الأنحرافات الواضحة التى تسحق الحقائق بين المجتمعات و تبطل بينهم العمل بالمنطق اساسا .

وكذلك يعلّمونهم ما انزل على الملكين ببابل العراق اوغيرها كما سيجيء البحث عنه وهما هاروت و ماروت فقد كان هذان الملكان لا يعلّمان احدا شيئا ممّا كان عندهما من الطلاسم و السحريّات حتى يقولا له انّما نحن فى اعمالنا هذه فتنة و اختبار للناس ليظهر لهم محقّهم و ثابتهم على الطريقة الصحيحة و منحرفهم فلا تكفر يا هذا المتعلم للسحر بل يلزمك ان تجعل تعلّمك له آلة دفع لمن يريد بك و بمقدساتك سوء لا آلة اغواء و انتهاز فكان الناس يتعلّمون من الملكين هاروت وماروت ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما كان باستطاعة هؤلاء المتعلمين للسحر ان يضرّوا احدا الاّ اذا شاء اللّه ذلك كما هو الشأن فى كافة العوارض الكونيّة التى تواجه البشر فى حياتهم لا يضرّ او ينفع منها الاّ ماشاء اللّه النفع به او الضرر ٠

و يتعلّم هؤلاء المتعلمون للسحر ما يضرّهم فى مسيرهم الأجتماعى العام لان كل نيرنج وان نفع مؤقتا نفعا شخصيا فأنه مضرّ بالحالة الأجتماعية و الضرر الأجتماعى كالنفع الأجتماعى لا يفلت منه احد هذا من ناحية الحياة الدنيا و امّا من ناحية الآخرة فارتكاب الذنوب ومقارفة المحرّمات ملزوم لأضرار اخروية لابدّ منها ٠

و امّا النفع الآنىّ الذى يترتب على استعمال السحريات وغيرها فهو نفع منقطع قليل لا اثر له حيويا و لذلك قال تعالى ولا ينفعهم ولقد علم المعلّم لهذه الأنحرافات و المتعلّم لها بقصد الأنتهاز و الأهداف الخاطئة انه لا نصيب له من الآخرة بهذا العمل الأنحرافى ولا قيمة لما باعوا به انفسهم فى قباله لو كان له علم يبعث الى العمل ٠

هذا ما يرتبط بالمجرى الظاهرى للآية وهناك تفاصيل لابد من التعرض لها اجمالا ٠

(١) السحر كلمة تقال على الأعمال التى تؤثر فى المسحور ما اراده الساحر له وهو يكون بالكلام و الأعمال الرياضية و استعمال موادّ تدنى اوتسقى اوتطعم للمسحور بعد العمل فيها او التلاوة عليها وقد تضاربت الأقوال فى نفى السحر و اثباته و نحن لسنا من اهله حتى نبتّ فى ذلك و لكن لا نستطيع انكاره لأننا لمسنا بابصارنا المفتحة انواع الشعوذة من اهلها بما يحيّر العقول و الشعوذة من رديف فنون السحريات و القرآن اثبت انّ هناك ما بأعماله تحصل التفرقة بين المرء و زوجه .

(٢) ان قوله و اتبعوا عطف على قوله فى الآية السابقة نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب .

(٣) وقد اختلفوا فى المراد بالشياطين فى الآية هل هم شياطين الجن او الأنس اوعموم من تلبس بالشيطنة من الكائنات العاقلة .

(٤) محل يعلّمون الناس السحر من الأعراب يجوز ان يكون حالا بتقدير لكن الشياطين كفروا حال تعليمهم للناس السحر كما يجوز ان يكون خبرا بعد خبر و الخبر الأول هو جملة كفروا .

(٥) قيل فى قوله تعالى وما انزل على الملكين ببابل انّ ما نافية و الواو عاطفة على قوله وما كفر سليمان لكن ذلك يحتاج الى ان يكون فى الآية تقديم و تأخير بهذا اللون وما كفر سليمان وما انزل على الملكين جبرئيل و ميكائيل سحر كما تزعم اليهود ان ملك سليمان بما فيه من التسخيرات العظيمة المقرونة به ما هو الاّ نتيجة ما نزل به جبرئيل و ميكائيل من السحر على سليمان و لكن الشياطين وهم هاروت وماروت فى عهد سليمان كفروا يعلّمون الناس السحر فهاروت و ماروت بدل من

الشياطين وعبّرعنهما بالجمع باعتبار انفسهما ومن يستتبعان من معاونين و مؤازرين كما عبّرعنهما بالتثنية فى قوله تعالى وما يعلّمان من احد باعتبار ذاتيهما .

وعلى هذا المبنى يكون معنى قوله وما يعلّمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنةٌ فلا تكفر هو الأستهزاء بمن كان يقول للناس احذروا هؤلاء السحرة فأنّهم دجالون يسوقونكم للكفر و ليس معهم حقّ ولا صدق و امّا اذا حملنا (ما) على الأثبات و قلنا ان ما انزل على الملكين عطف على السحر فى يعلّمون الناس السحر كما هو الحقّ لأنه الظاهر من الكلام يكون اصل انزال السحر الى الأرض توسط هذين الملكين وهما هاروت و ماروت من فتن السماء و اختباراتها للمكلفين كقضية العجل لبنى اسرائيل كما هو صريح قول الملكين انفسهما انّما نحن فتنة فلا تكفر ايّها المكلف بهذا الأختبار .

وعلى مبنى الأختبار يكون الانزال على المكلفين حاصلا من ناحية اللّه تعالى و ان الملكين ليسا بمنحرفين و انّما قاما بأشاعة ماارادہ اللّه و يجوز ان يكون الأنزال بمعى استراق السمع وان المراد بالملكين مخلوقان جنيّان وتسميتهما بالملائكة نظير ادماج ابليس فى زمرتهم ويكون السحرمن المعانى المخلوقة لموجود علمها فى الملأ الأعلى لان السحر يعدّ من عالم الروحانيات التى تستخدم فى الأمور الباطلة كما يجوز ان يكون الملكان المذكوران على حقيقتهما ملكين طردا لبادرة فنزلا الى الأرض و استفاداً ممّا يعلمان وعاشا يرتزقان من هذا السبيل و لولا ان حمل (ماانزل على الملكين) على النفى فيه تقديم و تأخير لكان هو الأولى من حمله على الأثبات .

(٦) قيل فى بابل انها العراق او نهاوند او نصيبين او المغرب.

(٧) وفى الآية اقوال و آثار طويلة لا طائل تحتها ٠

(٨) صدر الآية تابع للحديث عن اليهود و تلوّنهم فى الحياة و ذيلها استطرادى بمناسبة المقام ٠

و خلاصة نقول خالق العالم و منظّمه خلقه خلقة بطرز متشابك العرى سببه مستتبع لمسبّبه و هذا فى الأمور التكوينية جلىّ واضح فأنه تعالى جعل الرواء نتيجة لشرب الماء و الشبع لتناول الغذاء والتلقيح نتيجة التوالد و اعتبر ما وراء ذلك امّا مرضا او اعجازا فاذا اكل ولم يشبع فلابد وان يكون لداء فى الجهاز الداخلى او لهدف اعجازى كما انه اذا لقّح ولم ينتج او نتج بدون لقاح كان ذلك لواحد من الداعيين المزبورين و المرض و الأعجاز امرهما خارج عن برنامج النوع ٠

و امّا فى الأمور التشريعية فقد جعل كافة المعاملات بمعناها الأعم مسببات عن اسباب يراها لازمة فى ايفاء نتائجها فلم يركل اخذ وعطاء مشروعا بل اذا كان وفق برامج القوانين الشرعية المدونة فجلب المحبة او ايجاد الفرقة انما يصحّان بالأسباب المشروعة المباحة لا بالسحر و نظيره ٠

* (ولو أنّهم آمنوا واتّقوا لمثوبة من عند اللّه خير لو كانوا يعلمون) *

المثوبة الأجر وتقابلها العقوبة ويقال اثاب فلان فلانا اذا ارجع اليه عوض صنيعه معه ويقال ثوّب الداعى اذا كرّر دعائه وهذا بمثابة ذاك اى ان مرجعه اليه فهو من نظائره وامثاله وكلمة خير افعل تفضيل و تقابلها كلمة شرّ والمعنى ان اليهود وكل متحيّز الى انتهاز ومن جملتهم معلّموا السحر و متعلموه لو اخلدوا الى الأيمان بالمبادئ الصحيحة الخالصة من كل شوب و اتقوا اللّه فيما يأمر به و ينهى عنه لكان فى اثابة اللّه لهم ما يسدّ ابعد فراغ يحاولون ملئه بنتائج هذه الأعمال الخاطئة من سحر و شعوذة وغيرهما لو كانوا يعلمون الواقع ويعملون له .

* (ياايّها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا و للكافرين عذاب اليم) *

راعاه احسن معاملته و تفقّده و يقابله قولهم اغفله و اهمله واصله من الرعاية وهى بذل التوجه فيما يسوسه الأنسان من حيوان وغيره وارعاه سمعه اذا احسن الأستماع اليه و اذا قال انسان لآخر راعنى او ارعنى سمعك كان معناه توجّه الىّ وهذه الكلمة فى اصل اللغة العربية لاحزازة فيها حتى ينهى اللّه المسلمين عنها فى خطاباتهم لنبيّهم حيث يحاولون منه التوجه اليهم وحسن الأستماع لكلامهم ولكن جاء فى الأثر ان كلمة راعنا فى العبرية سبّ كانوا يذهبون اليه اذا تكلموا بها فلما وجد اليهود ان المسلمين يكثرون من هذه الكلمة فى

خطاب النبيّ استغلوها فرصة وألحدوا فيها الى ماهو فى لغتهم فنهى الله المؤمنين ان يخاطبوا النبى بذلك حتى لا يتسع لليهود ميدان الأنتهاز واذا اخذنا انظرنا من النظركان تعدية للفعل من غير واسطة وان كان الأكثر فى استعمالها التوسيط حيث يقال انظر الينا واذا اخذناه من باب الأفعال فهو بمعنى الأمهال وعدم الأستعجال واسمعوا ايها المؤمنون ما تؤمرون به وللكافرين من اليهود وغيرهم عذاب موجع جزاء انحرافهم والحادهم ٠

* (ما يوّد الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين
أن ينزّل عليكم من خير من ربكم والله يختص
برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) *

ودّ الشيء اذا احبّه واختص به اذا انفرد والفضل ما كان عن ابتداء لاعن معاوضة وبحكم الحسد المتغلغل فى اغلب افراد البشرية سواء كانوا علماء ام جهالا لا يحبّ احد ان يحظى غيره بخير اصلا على الأخص اذا كان فى البين عداء او رقابة فلا بدع اذا لم يهو ولم يرغب اليهود ولا النصارى ولا المشركون ان ينزّل عليكم ايها المؤمنون بمحمّد ودين الأسلام اىّ خير كان من ربكم ولكن الله ليس طوع امانى هؤلاء فأنه يختص برحمته نبوّة كانت ام غيرها من يشاء من عباده تفضلا من عنده ٠

* (ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها الم تعلم انّ اللّه على كل شيء قدير) *

النسخ تارة يكون بمعنى النقل كما يقال نسخت هذا الدفتر على الكتاب الفلانى و تارة يكون بمعنى الأبطال و الأزالة كما يقال نسخت الشمس الظّل و نسخت الريح الأثر ومن هنا يعلم انه ليس من لازم النسخ اقامة شيء مكان المنسوخ فأن الريح لا تقيم مقام الأثر شيئا و النسخ و التشريع كلاهما تارة يكونان بالتشهى و اعمال الميول النفسية وهو الاكثر فى اعمال البشر واخرى يكونان طبق المصالح الواقعية وذلك ما يكون فى الشرائع الصحيحة وقول من يقول ان النسخ من العالم بالحقائق غير معقول باطل ظاهر البطلان فأن المجارى ربّما تقضى على العالم بكل شيء ان يحكم امرا مؤقتا سواء كان غير مشلول القدرة ام كان محدودها ذلك لان احكام الأمور ليس كله راجعا الى الحاكم بل الميزان قد يكون نفس المحكوم وقد يكون الظرف المقارن لهما .

فاللّه سبحانه لامدى لعلمه ولا حدّ لقدرته ولكن تشريعاته منوطة بالمكلفين الذين يريد تسييرهم على مقتضى توجيه الطبيعة لهم فى المجال الحيوى من نقص الى كمال و طفولة واهنة الى شبيبة متوقدة وحلقات هذا المسير يلزمها ان يكون فيها ناسخ و منسوخ .

و بحوث النسخ مبسوطة فى كتب اصول الفقه فلامجال للتعرض الى اكثر ممّا اشرنا اليه و الأنساء التأخير ومنه النسيئة فى المعاملة وهى مايكون الثمن فيها متأخرا :ومعنى الآية ما ننسخ من آية سماوية فيها حكم تشريعى شرّع فى وقته لمصلحة واقعية قامت بتشريعه او نؤخر نسخها لأمدها الذى تنتهى عنده نأت بخير منها ممّا يعود لدنيا

المكلف او لآخرته او بمثلها فى الغاية وان اختلفت عنها فى الطريق فالناسخ قد يكون اثقل على المكلف ولازمه ان يكون اكثر ثوابا فيكون انفع فى الآخرة وقد يكون اخفّ عليه انفع فى دنياه وقد يكون مثله فى النتيجة و لكن يختلف عنه فى الطريق المنتج و تكون فى كل طريق مصلحة خاصة لمن كلّف بسلوك الطريق و الرابط بين هذه الآية وماسبقها من الآيات المتعرضة لليهود ان هؤلاء كانوا يعيبون الدين الحنيف بالنسخ الذى يبلغهم عنه فدفع الله شبهتهم بهذه الآية التى قرأت محصول تفسيرها ٠

وبالخلاصة الأفاضة تارة تكون لمصلحة المفيض حتى يتألف بها المفاض عليه وتارة تكون لمصلحة المفاض عليه بأن يجده المفيض مستحقا للأفاضة و اخرى تكون للمصلحة الوقتية دفعا لشرّ اجتماعى او جلبا لخير اجتماعى و باب النسخ قابل للتصوير بالصورة المزبورة وان كان واجب الوجود ولا يقاس على غيره ٠

* (الم تعلم انّ الله له ملك السماوات والأرض ومالكم من دون الله من ولّى ولا نصير) *

الولىّ هو الذى يلى الأمر ويشرف عليه و النصير هو الناصر وجاءت هذه الآية فى سياق آية النسخ لتبيّن ان كل مافى الوجود من اناسى وغيرهم ملك لله يتصرف به كيف يشاء ولا يحول بينه وبين ما يملك من له ولاية او نصرة غيره لان كل مايفرض من اولياء و نصراء فأنه مربوب له تعالى مملوك له ومن انحاء التصرف بالمملوك تسييره على ضوء المصلحة و تكييفه بما يقتضيه الواقع و النسخ والأنساء هذا معناهما ٠

و امّا النسخ و الأنساء الصادران من الحاكمين بالغلبة على

الناس فذلك تصرف فى حق الغير اولا و للمصلحة الشخصية للحاكم ثانيا فالاغيار بالنسبة الى المتغلبين مقهورون مغصوبون بعكس تصرّف الله فى عباده فأنه تصرف مالك فيما يملك و لمصلحة ما يملك اذ لا مصلحة له فى ذلك لنفسه لغناه المطلق .

ثم ان النسخ انّما تكثّر الكلام فيه لان له ارتباطا وثيقا بحياة الأنسان فأن الأحكام الشرعية جلّها القريب من الكلّ له صلة تامّة بمعيشته كأحكام البيوع و الأجارات و النكاح و الطلاق و المواريث وما الى ذلك : و تصويرها الواضح يظهر جليا فيما عليه هذه العصور من نسخ قوانينها لأحكام الشرع التى كانت متداولة بين الناس كالأصلاح الزراعى و انواع الماليات التى تضرب على الناس والمساواة بين الرجل و المرءة فى كافة الشؤن بل بين الذكر و الأنثى فى الأرث و نظير ذلك مما هو مقنن مدّون فى الحكومات الأسلامية فضلا عن غيرها ومعائش الناس لا تتجاوز هذه الحدود .

* (ام تريدون ان تسألوا رسولكم كما سئل موسى من
قبل ومن يتبدل الكفر بالأيمان فقد ضلّ سواء
السبيل) *

سواء السبيل معناه وسط الطريق وعدله وقصده وام هنا منقطعة بمعنى بل وجهة التناسب بينها وبين آية النسخ و الأنساء وما تعقبها من ان الوجود وكل ما هو موجود ملك خالص للربّ يتصرف به حيث يشاء على ضوء مصلحته وما يقتضيه واقعه ان كل ما يفعله الله بكم هو الحق الذى لا مقيل لغيره فيجب على المكلّف ان يسلّم نفسه لخالقه ولا يتطفل بما هو خارج عن عهدته .

ومن التطفل كان سؤال اليهود لموسى ان يجعل لهم الاها كما للضلّال المشركين اله او ان يريهم اللّه جهرة و نظير ذلك من الأسئلة الجاهلة وعلى هذا الملاك نهى سبحانه معاصرى نبى الأسلام من يهود وغير يهود ان يسألوه نظير تلك الأسئلة الخارجه عن حدود كل منطق و البعيدة عن سطح الفطرة ايضا .

ومن هنا قال سبحانه ومن يتبدل الكفر بالأيمان اى يجعله بدلا من الأيمان الذى هو من ايحاآت الفطرة فقد زمّ بنفسه عن عدل الجادة الى مزالقها ولا يفعل ذلك عاقل البتّة : و الآية تشعر بوضوح ان من لازم المكلفين ان يسألوا الرسول ماهو بلازم حياتهم على ضوء ارادة اللّه و امّا المسائل الخارجة عن هذا الموضوع فيعدّ سائلها متطفلا متطرفا غير مراع للأدب فى قبال ربّه و نبيّه .

* (ودّ كثير من اهل الكتاب لو يردّونكم من بعد ايمانكم كفّارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ فاعفوا و اصفحوا حتى يأتى اللّه بأمره ان اللّه على كل شئ قدير) *

الحسد ارادة زوال نعمة الغير لعوامل عديدة اخسّها تغيّظ الأنسان ان يرى من هو فوقه او مثله فى أيّة صفه تفرض و الغالبية من الناس تتبطن هذه الروح القذرة ومن جملتهم اليهود فأنهم لمّا وجدوا انّ دعوة نبىّ الأسلام تتقدم و تتسع وهذا النبى ليس منهم فى العنصر ولا دعوته ممّا يدينون بها فعلا تمنّوا ردّ كل مؤمن عن ايمانه الى كفره بمحمّد ولو كان مع ذلك كافرا باليهودية حسدا من عند انفسهم لمحمّد و لدعوته حيث يرونها فى تقدم و يزداد حسد الحاسد تورما اذا رأى

موجبات تقدم المحسود متأصلة من الواقع لا انها سطحية .

و التمنّي وحده لا اثر له مالم يشفع بالرقابة المضادّة و الذى أمر به المؤمنون هو العفو و الصفح عن الحسد الفعّال لا الحسد المجرّد فأنّ اليهود مازالوا يبغون الغوائل و الدسائس للأطاحة بكيان النبيّ و المؤمنين فأرخى الله لهم سبحانه حتى بدت منهم افعال متوفرة لذلك الدين و المؤمنين فعند ذاك امر الله بجهادهم و اجلائهم عن ديارهم و التضييق عليهم .

و اعلم انه لاحسد الاّ على نعمة مادّية كانت كالمال او معنوية كالجاه فاذا انعم الله على اخيك فى النوع بنعمة فأن لك معها حالتين امّا ان تكره تلك النعمة له و تحب زوالها عنه فذلك هو الحسد و امّا ان لا تحب زوالها ولا تكره وجودها لصاحبها و لكنك تشتهى لنفسك مثلها و هذه تسمّى غبطة وقد قال (ص) ان المؤمن يغبط و المنافق يحسد فامّا الحسد فهو حرام الاّ على نعمة يصيبها فاجر او كافر وتعلم انه يستعين بها على الظلم و الفساد و امّا الغبطة التى تكون المنافسة بمعناها فليست بحرام كما جاء فى قوله تعالى فليتنافس المتنافسون ومن أخسّ مراتب الحسد حسد الواجد للفاقد بداعى حب الأنفراد ومن اجمل مراتب الغبطة ان يتمنّى بقاء نعمة الغير له و يشتهى لنفسه مثلها او ارقى منها و امّا المتقون فأنما يتمنون — لو تمنوا — ما يقيم اودهم و يحفظ ماء وجوههم و يعينهم على القيام بواجب مكارم الأخلاق و اشاعتها بين الناس .

* (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من
خير تجدوه عند الله ان الله بما تعملون بصير) *

عطف سبحانه اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة على قوله فأعفوا واصفحـــوا والمناسبة فيه هو ارادة الله ان يتسلوا عما يشاهدونه من حسد اليهود لهم وتمنّى ارجاعهم كفارا بعد الأيمان بالأعمال الأيجابية المثمرة التى تشدّ كيانهم وتبرز دينهم بأحسن مبرز فأن ذلك ممّا يغيظ اليهود اكثر اذ يرونهم يوما فيوما يزدادون ايمانا واعتناقا لدينهم وعملا به فيموتـوا غيظا وكمدا وهذا ما يقال له فى الزمن الحاضر مبارزة منفية ٠

* (وقالوا لن يدخل الجنّة الاّ من كان هودا او نصارى
تلك امانيّهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقيـــن :
بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربّه
ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) *

واو الجمع فى قالوا يرجع لأهل الكتاب عموما من يهود و نصـــارى لكن يحتاج الى تفصيل فى مقول هذا القول للعلم القاطع بتضليل كـــل من اليهود والنصارى لطرفه فلا تكون نتيجة قولهم واحدة : وهود جمـــع هائد كعوذ وعائذ اى قال اليهود بطريق الحصر لن يدخل الجنّة الاّ من كان يهوديا وكل من ليس بيهوديّ فليس له من الله شيء وقالـــت النصارى كما قال اليهود فى حق انفسهم لن يدخل الجنّة الاّ من كـان نصرانيا فقط وما عدا النصارى بطورعام فهو فى مغازة عن الله ٠

والضمير فى كان منفرد يرجع الى لفظ من (الأسم الموصـــول المشترك المبهم) وخبر كان هود ونصارى جمع روعى فيه معنـــى

الموصول : وقد خطّأ الله سبحانه اقوال هؤلاء بأنها امانى فارغة لا يدعمها منطق فأن الله ليس سلعة مملوكة لأحد بل الله لكلّ محقّ وقد يكون هؤلاء المتمنون بعيدين عنه و القريب منه غيرهم و ذلك القريب منه هو من اعطى نفسه لربّه وجعل الولاية عليها له وعمل الأعمال الصالحة لصلاحها لا لأهدافها المرموزة فهذا هو الذى يؤجر عند ربه لأن عمله خالص وهو الذى لا يخاف من سطوة ربّه ولا يحزن فى دار المقامة عنده .

و قوله سبحانه قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين من اوضح الأدلة على ان دين الله لا يصح الاّ بالبرهان وهو الحجة القائمة على المقدمات اليقينية فقط اذن فما اكثر ضلال اهل الأديان و المذاهب جملة اولئك الذين يجعلون عواطفهم مدعاة للاضافات الكثيرة يدخلونها فى الدين ويتعبدون بها اكثر ممّا يتعبدون بالواقعيات الثابتة و من هذه الزاوية المظلمة كثرت المذاهب و تعددت و اختلقت الأخبار وزوّرت وفرض على الواقع رجال و نساء و طقوس ليس لها من الأمر شىء و ان اسندت اليهم كل الأمور و بهذه الأضافات المتطفلة ذبح الواقع على اعتاب الخارج و تقلص الدين الصحيح وحلّت محلّه الاوهام و الخرافات التى اخذت تضمحل على مرور الزمن وسوف لا ترى دينا واقعيا ولا خرافة منسوبة لدين و الله ولى الأمر .

* (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) *

قيل في شأن نزول هذه الآية انّ وفد نجران من النصارى لما قدموا على رسول الله (ص) اتاهم احبار اليهود فقالوا لهم ما انتم على شيء وجحدوا نبوّة عيسى وكفروا بالأنجيل فقال وفد نجران لستم انتم اليهود على شيء وجحدوا نبوّة موسى وكفروا بالتوراة فأنزل الله هذه الآية وهذا الحديث اذا صحّ كان معززا للقضية لا انه مدرك واقعيّتها فأن كافة اهل المذاهب على هذه الروية .

لأن المذهب حتى لو كان قائما على اصل اصيل فأن العواطف والميول تهدمه وتبنيه من جديد على وفق مذاقها : وقوله تعالى وهم يتلون الكتاب جملة حالية سيقت للأستنكار فأن كافة كتب السماء ككافة الرسل تدور على محور واحد وهدف فذّ وهو توحيد الله وارجاع الخليقة بأسرها اليه وان الأنبياء فضلا عن غيرهم ليس لهم من الأمر شيء في قبال الخالق لأنهم مربوبون لا ارباب وعلى هذا الأساس فاليهودية والنصرانية والأسلام في اصولها الواقعية متوحدة والمنسوخ من فروع السابق منها انّما نسخ ـ لو نسخ ـ باللاحق فلانتهاء المصلحة التي قامت بتشريعه بادئا فلا تصير الديانتان دينين بل هما دين واحد يراعى فيه المتأصل من الأحكام الفرعيّة .

وامّا اصول العقائد فهي واحدة طبق للواقع الذي لا يتكرر ولا

يتغير: هذا و ليست التخطأة قائمة باهل الأديان و الكتب السماوية فقط بل الذين لا يعلمون من افراد البشر سواء فى ذلك قديمهم وحديثهم قالوا مثل مقالة اهل الأديان فى تخطأتهم للأديان كلّها وانها بالأسر لا مقيل لها من الصحة وانّما هى فخاخ نصبت لأصطياد الناس وشحذ اموالهم و الترأس عليهم و اللّه سبحانه قد حكم على الجميع من هؤلاء فى النشأة الأولى بأقامة الحجج العقلية و الكونية على اثبات الصانع و لزوم تسيير مجامع البشرية على برامج تصونهم و تصون الحياة منهم وعلى ضوء هذه الحجج المقررة فى الدنيا سوف يحكم بينهم يوم ان تقوم القيامة بالمكلفين اجمع فيما كانوا فيه يختلفون فيجازى المجهد لنفسه فى تركيز حياته وعقيدته على ما اراد اللّه بالمثوبة و يجازى المهمل لنفسه او المتحيز بها للمطامع و الميول العاطفية بالعقوبة انتصارا للحقيقة ولما اضيع من حقوق النفس و الغير بالأهمال او التعدّى .

* (ومن اظلم ممّن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه
وسعى فى خرابها اولئك ماكان لهم ان يدخلوها
الاّ خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة
عذاب عظيم) *

الظلم هو منع الحقّ و الوقوف امامه و المساجد باصطلاح المتشرعة الأماكن التى توقف لأقامة العبادات فيها و السعى فى الخراب ظاهرى بمعنى الهدم و الأطاحة و معنوى وهو التعطيل عن الأستفادة المنظورة و الخزى هو الهوان و الأفتضاح وكلمة من المبدوء بها استفهام للأستنكار ولا شك ان الظلم درجات و مراتب فظلم المعوز لصاحب الثراء المديد المانع له اخفّ بكثير وكثير من ظالم الخدمات المعنوية و مانعها عن اهلها حيث لا يستفيد هو ولا غيره من هذا المنع سوى ارضاء عاطفة وميل و تسكين نفس رعناء لا تمتنع من ازعاج العالم كلّه لأجل هدوئها آنا من آنات الدهر وهذه البوادر السخيفة كثيرة فى بنى آدم سابقا و لاحقا .

فقد لقى اهل الزمان من سبّق المتوحشين و جدد المتمدنين الوانا من هذه السماجات حيث طارد رجال الشرطة النساء حتى فى الزقاقات الضيقة القليلة المارّة على حجابهنّ فكانوا يأخذون ستورهنّ و يمزقونها حتى يمشين عوارى فيقال فى حقهنّ انّهن متمدنات فتكون المملكة المحتوية عليهن مملكة مثقفة .

و امّا بالنسبة الى سبّق المتوحشين فقيل ان المنظور بالآية هم الروم فأنهم غزوا بيت المقدس و سعوا فى خرابه و قيل انّهم النصارى و قيل انّهم قريش حين منعوا رسول الله (ص) دخول مكة و المسجد

الحرام : ولا بدّ ان يكون التخريب فى هذا الوجه هو التعطيل عن العبادة فأن قريشا لم تخربّ المسجد الحرام بالهدم و الأطاحة و قيل انهم هدموا مساجد كان اصحاب النبىّ (ص) يصلّون فيها بمكة بعد هجرته الى المدينة .

و يستفاد من الآية لزوم منع المناوئين للمساجد عن الدخول اليها فلا يمكّن اليهودى ولا النصرانى ولا المشرك و المادىّ منها لأنهم بأسرهم مناوئون ولو انّهم دخلوا اليها بأيّة سمة مرموزة وجب ان يكون الوضع مخيفا لهم بمعنى ان المعتقدين بحرمة المساجد لو اهتدوا اليهم وجب عليهم ان لا يقاروّهم على البقاء فيها : امّا عذاب هؤلاء فى الآخرة فعظيم لان يوم الدين مملوك لله وحده ليس فيه ارخاء ولا امهال و امّا الخزى فى الدنيا فهو موكول الى همّة المعتقدين بالمساجد فان كانوا اناسا اعزاء فى دينهم حفظوها و اقاموا لها حرمتها وان كانوا اذلاء كانوا هم الخائفين فى مساجدهم لا الأغيار الداخلون عليهم بالقهر و الأستذلال .

و محلّ ان يذكر فيها اسمه من الأعراب نصب على البدل من المساجد بتقدير منع ذكر الله فى المساجد المنتسبة له اوعلى انه مفعول لأجله بتقدير منع مساجد الله كراهية ان يذكر فيها اسمه اوعلى نزع الخافض بتقدير من ان يذكر فيها اسمه اوعلى انه مفعول ثانى لمنع كما يقال منعه حقّه .

و المنظور من الآية ان الأمور المعنوية التى هى الفضائل و الكمالات الأخلاقية على ضوء العقل و المنطق سياج للأمور الماديّة فى كل امّة تريد ان تعيش على ملاك الأنسانية و انّما قيدنا الفضائل بانها التى تكون على ضوء العقل و المنطق لأن زافّة هذه العصور ترى

الفضيلة فيما هى عليه من هذا التسيّب و الأهمال اللذين تسمهما بالحرية و هكذا قيدّنا المعيشة على ملاك الأنسانية تفصيا من هذا الأنتكاس الذى تعيش عليه الناس فى هذه الأدوار بصورة وحش مفلت ،

وعليه فلابد من تحصين الأدب الروحى لحفظ توازن الحياة الصحيحة لكل من يريد ان يعيش بهدوء و طمأنينة و التحصين المذكور مربوط بدفاع الأنسان عن كرامته فألى اىّ مدى دفع عن كرامته عاش مطمئن البال غير مكدود الخاطر و الى اىّ مرتبة تساهل فى ذلك عاش مرتبك البال ذليلا فى باطنه وان تظاهر بالعزّة حيث لا مقيل لها من الواقع .

ثم الدوافع التى تحفز الأنسان الى التزيّن بالفضيلة تارة تكون عقيدته بالله وما ظّف على عباده من الأخلاق الفاضلة كالصدق و الرفق و الحلم و الصفح و العفة و التعفف و الحياء و الوفاء و الأحسان و المواساة وما الى ذلك فهو يرتاض عليها استجابة لأوامر الله و اخرى تكون حبّه للحياة السالمة من الموهنات اذن فالمبدأىّ و المادىّ شرع فى ذلك وان كان لكل وجهة .

* (ولله المشرق و المغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله
ان الله واسع عليم) *

المشرق و المغرب محلّ الشرق والغروب ومعنى لام الملك هنا انّ المشارق و المغارب من جملة الاكوان ومحيط الكون شامل لها والوجود كلّه ملك لله لانه ابداعه و الوجود العاقل المادىّ لابد وان يتوجه فى عبادته لربّه الى جهة فأبان له الربّ سبحانه ان ايّة الجهات اخترتَ كان ذلك منك توجها لان المجرد الذى لازمه فقدان الجهة يكون التوجه اليه باختيار المادىّ المتوجه فأينما وجّه وجهه ودعا صح فى حقّه انه توجّه الى ربّه لان التوجه فى هذه العبارات معناه اقبال النفس فى قبال غفلتها وعزوبها ان الله واسع بتجرده عليم بمنويات النفوس .

ولا يستطاع ان يؤخذ من هذه الآية تعميم فى الأستقبال الصلاتى الاّ اذا اهملت الصلاة من كل شرط بالنسبة الى التوجه فيها كما انها ليست بدليل خاص للأستقبال فى النوافل اوفى مقام الجهل بالقبلة فى الفرائض وربط هذه الآية بسابقتها ان الأولى تعرضت للمساجد وذكر اسم الله فيها وهذه أبانت وجه الخيار للمتوجه الى ربّه فى انه يجوز له ان يتوجه اليه من ايّة جهة شاء .

و اللام التى تكون للملك على قسمين مجازى على درجة ثالثة وهى ما كانت لفاقد اهلية الملك كقولك السرج للفرس و درجة ثانية وهى ما كانت لواجد اهلية ناقصة كقولك الثوب للعبد و درجة اولى وهى ما كانت لواجد اهلية معطاة من الغير كقولك الدار لزيد وحقيقىّ متأصل فى الحقيقة كقولنا الملك لله سبحانه .

* (و قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له مافى السموات و الأرض كل له قانتون : بديع السموات و الأرض و اذا قضى امرا فأنما يقول له كن فيكـــون) *

يطلق الأتخاذ على ما يضاهى معنى الأقتناء ولازم ذلك ان المتخذ و المقتنى امر خارج عن المتخذ و المقتنى فأطلاق اليهود بنوّة العزيـر لله او النصارى بنوّة المسيح له او مشركوا الجاهلية بنوّة الملائكة له ايضا معناه التبنّى لا الولادة الحقيقية وهى التنزل من الصلب و نسبة كلا المعنيين الى واجب الوجود غلط لان الولادة انما تكون فى الماديّـات و واجب الوجود مجرد متمحض فى التجزد .

و امّا التبنّى فأمّا ان يتخذ للتسلّى او للأعتزاز به وكلا هذيـــن المطلبين غيرمتمش فى الوجود المجرّد القهار الغنى عن كافة ما سـواه فواجب الوجوديجب تنزيهه عن هذه النسب وهذا معنى كلمــــــة ــ سبحانه ــ بل له بعنوان المالكية المحضة جميع مافى الكون لأنـــه مبدعه من دون ايّة سابقة لا فى وجود مادّة وقع عليها الصنع ولا فى وجـود طرح وخارطة عليهما حققت الصنعة فى حال انّ غيره من الصانعين بعد بذل تمام الجهد لأحراز الفنّ الذى به تكون صنعته انما يقوم بفنّ واحد كالمهندس لأجل طرح الخرائط و البناء لأجل نضد الآجر و الفخـــار لأحضار مادة البناء و الفعلة لأجل المساعدة الى غير ذلك مـــــن المقدمات التى تؤخذ لأجل اقامة البناء .

وكل مافى الكون ايضا من هامد و متحرك وناطق و صامت وعاقـــل وغير عاقل قائم له بالطاعة من طريق وجوده و اثر الصنعة عليه وان تمرّد بجوارحه او لازم حالة هموده وجموده و القنوت فى اصل اللغة هو القيام

و ان اطلق عند المتشرعة على الطاعة و الخضوع .

و قوله تعالى بديع السموات و الأرض تعليل لنسبة مملوكية ما فيهما له اى كيف صار مالكا لجميع الموجودات فكان الجواب لأنه ابدعها بمعنى اوجدها بعد ان لم تكن لا مادة ولا مثالا و هذا اجلا ما يعقل من المالكية غير المشوبة وهذا الأبداع من خصائص واجب الوجود تعالى .

و امّا الصانعون الآخرون فانما يعملون فى مادة موجودة ليس وجودها مستمدا منهم و انّما لهم فيها اثر التحوير و التطوير و التجزئة و التركيب: و امّا الأبداع فى الأفعال كأيجاد الحركة بعد السكون و النطق بعد السكوت فهو ممّا يكون من الحيوان و الأنسان جميعا .

و معنى اذا قضى امرا انّه اذا اراد تحقيق مطلب من عالم المفهوميه المحضة الى عالم الوجود الخارجى قال له بلسان الأرادة الجدّية كن ونفس هذا اللسان مستعقب للكون وضمير له فى قوله — فأنما يقول له — لما هية الشىء المفهومية و بعبارة اخرى يقول لما اندرج فى علمه و هذا المعنى وهو حصول المعلول بمجرد ارادة العلة له من دون سعى وبذل جهد من خصائص واجب الوجود ولا يشترك معه فى مثلها اى قادر يفرض ومهما بلغ فى قدرته .

وهذه الصفات التى تعرضت لها هاتان الآيتان من ابرز نقاط تعريف واجب الوجود لمن يريد التعرّف عليه .

* (و قال الذين لا يعلمون لولا يكلّمنا الله او تأتينا
آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم
تشابهت قلوبهم قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون) *

هلاّ و لولا ولوما كلمات تحضيض تقال عند الحثّ على الشيء والبعث نحوه والآية هي العلامة الدالّة و الأيقان هو اليقين عينه بمعنى هدوء النفس و اطمئنانها لما تجلّى لها ومعنى الآية ان مشركى العرب الذين لا يعلمون بالفعل وان لم يفقدوا الصلاحية للتعلم لوجود بذرة العلم فيهم وفى كل مكلّف على الأطلاق قالوا فى جواب دعوة محمّد (ص) لهم بالعقيدة بالله وتوحيده و انّه نبى مرسل منه ليقودهم الى الصلاح و يبعّدهم عمّا فيه الشقاء و الفساد هلاّ يكلّمنا الله حتى نتحقق من وجوده بكلامه كما يستدل على وجود النار بلهبها وعلى الناطق من وراء الجدار بنطقه •

واذا كنت نبيّا كما تدّعى اعرب هو عن نبوّتك او تأتينا آية منه نستدلّ بها على وجوده فى حد ذاته وصدق نبوّتك انت كأن يفجّر لنا من الأرض ينبوعا او يسقط علينا من السماء كسفا ولا خصوصية لهذا القول بهؤلاء القائلين فقد قال الذين جهلوا من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوب الجميع فى الأنصراف عن الحقيقة الجاثمة بين ايديهم ونحن قد بيّنا الطرق الموفية اليها لقوم حاضرين للتفهم مستعدين لتلقى المعارف و انّما جهلّهم الله سبحانه فى مقالتهم هذه لعدة عوامل مكشوفة •

(الأول) ان اقرب الطرق و أجلاها للأتصال بأية حقيقة تفرض آثارها الملموسة للحسّ وهذا العالم كله اثر ناطق بلسان حاله عن كونه

ناتجا عن غيره ٠

(الثانى) صدق مدّعى النبوّة يتركز على دعائم ـ عدم سوء سابقته ـ صلاحه من عامة الجنبات ـ ما اتى به ظاهر عليه انه ليس من كيسه وانّه لصلاح المجتمع ولأجل اطمئنان النفس يشفع بآية لا تقوى عليها البشرية وهذه الدعائم قد توفّرت مع كل نبىّ على الأطلاق ٠

(الثالث) سبب كونهم جهلاء حيث قالوا لولا يكلّمنا الله انهم لو سمعوا كلاما كيف يستدلون به انه كلام الله ولو حصل لهم علم ضرورى منه انه كلام له فأنه لا يزيد فى الدلالة على انّه اثر يدل على مؤثر وطريق الأنتقال من المعلول الى العلة متوفر لهم فى كل اشياء العالم التى يصابحونها ويماسونها ومن جملة ذلك انفسهم التى بين جوانبهم ٠

(الرابع) انهم ارادوا من اتيان الآية الآية الخاصة التى يشتهونها هم وانما جهّلهم سبحانه على ذلك بأن حقّهم لازم عليه فى نصب آية اعجازية واية كانت ولا شكّ انه نصبها لكل نبىّ : وامّا ان الآية هى ان تسقط السماء عليهم كسفا مثلا فليس اليهم وانما لهم تثبيت المطلب بالحجة التى تسجّله وتوجب العلم به والبارى انّما جهّلهم فى تشهيهم لا فى اصل اقامة البيّنة لهم فأنه تعالى قال فى هذه الآية قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون يعنى قوما من هدفهم تطمين نفوسهم لا اجابة ميولهم النفسية العارمة ٠

* (انّا ارسلناك بالحق بشيرا و نذيرا ولا تسأل عن اصحاب الجحيم) *

البشارة اخبار بما يسرّ و الأنذار اخبار مع تخويف و الأول يكون بحصول الطاعة و الثانى يكون بنتائج المعصية و الجحيم هى النار اذا شبّت و التهبت ·

و المحصول من الآية اننا انما ارسلناك الى الناس بالحق الثابت لترشدهم اليه و تبشّر المطيع له بأن له فى نشأتيه سعادة وحياة، صحيحة و اجرا غير ممنون كما تنذر العاصى بأنه شقى فى نشأتيه و ان توهّم انه من طريق الأنتهاز يتوفر خظّه فى دنياه و امّا الآخرة فهى مشكوكة لديه او مقطوع بعدمها عنده و انت يارسول اللّه اذا قمت بهذا الواجب فقد اديّت الوظيفة ولم تبق عليك تبعة ولا نسألك غداً لم عصى فلان و اختار الكفر فلان كما يؤنّب الملك واليه على بروز الحوادث فى محل مأموريته بل ربما آخذه مؤاخذة شديدة و اعدمه ورتّب عليه كل تبعات ما حدث فى مدار ولايته وذلك لأمرين ·

(الأوّل) ان النبىّ وهكذا غيره كائنا من كان لا يستطيع ان يركز العقيده فى اذهان الناس بالقهر فأن العقائد غير قابلة للتحميل و الآية واردة فى باب تركيز الدين الحقّ و تركيزه انما يكون بأقامة الحجّة اذا لم يكن فى البين تعصب يحول بين المنطق وقبول الذهن له فأن النفس اذا عادت شيئا استحال عليها ان تقبله ولو كان مثل نور الشمس فى الوضوح و النبىّ قد اقام الحجّة فلا مسئولية عليه ·

(الثانى) ان الملك انّما يؤاخذ واليه لأنّه مكّنه من كافة القوى

التى تخضع الطرف او تقوم بواجبه فلذلك اذا لم يعمل هذه القوى فى مواقعها كان مقصّرا : امّا الرسول فلم يجعل اللّه تحت قبضته قوة وانما ندب الناس لطاعته فاذا لم يطع الناس ربّهم كان بالأحرى ان لا يطيعوا رسوله نعم اذا اطاعه من الناس من به سدّ الثلمة وجب عليه ان يجاهد بالمؤمنين ويلزم الطرف على الأصاخة لحكومة النظام السماوىّ وكل نبى من انبياء اللّه فعل ما بمقدوره على الأخص نبى الأسلام الذى لم يبارح المناجزة فى تثبيت دين اللّه فمعنى ولا تسأل عن اصحاب الجحيم اننا لا نسألك غدا عندما نحكم على العاصى و الكافر بدخول النار لم اهملت هؤلاء حتى دخلوا النار بسبب كفرهم ولم افرجت لهم حتى عصوا فحقّ عليهم العذاب لعصيانهم : وانّما لا نسألك لما أسلفناه من البيان فى الأمرين السالفين .

* (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع
ملّتهم قل ان هدى اللّه هو الهدى ولئن
اتبعت اهوائهم بعد الذى جاءك من العلم مالك
من اللّه من ولىّ ولا نصير) *

ان تكن اليهودية فى بادئها دينا اريد به تثقيف البشرية و تسييرها على الحق وكذلك النصرانية فقد عادتا بعد أن نال كل فرد من الفريقين بغيته من الحياة المادية مبدءين ماديّين لهما اتصال بجاه الأنسان وماله و موقعه الحيوى فى الطقس الذى يعيش فيه و بلاشكّ ان الأنسان المادى يطوّح بجميع ما يملك من قدرة فى سبيل تثبيت جاهه ولو كان مزوّرا وماله ولو كان حاصلا عن تلصص و انتهاب و موقعه الحيوى و لو كان قائما على الجرائم و الجنايات وعلى هذه الركائز بارزت اليهودية النصرانية جهدها و بارزت كلتا النزعتين الأسلام جهدهما و ستستمران على ذلك مادامت لها قدرة ومن هنا استحال على اليهود و النصارى ان يرضوا بمحمد نبيا لدين لا يقال له يهودية ولا نصرانية كما يستحيل على محمّد ان يتهوّد او يتنصر لأن تهوّده و تنصره معناه ترويج للباطل الذى امر بدكه وسحقه ومحقه ونسفه ما استطاع بالحجة القاهرة التى تدلى السماء بها اليه و القوة الساحقة ان وجد لها سبيلا .

فاللّه سبحانه أبان لنبيّه بهذه الآية انك لا تجشّم نفسك اكثر من فريضة التكليف فى جلب اليهود و النصارى الى الأسلام فأن اقناعهم بالحجة غير معقول لأنهم ليسوا فى صددها و لكن قل لهم ان كنتم تدعون شريعة السماء و تريدونها مخططا لحياتكم فأن هدى اللّه و هو

المنطق القائم بالبراهين الصادقة هو الهدى الذى يجب ان يسير عليه المكلّف فمن وظيفتكم ان تطبقّوا دينكم على الهدى لا ان تدّعوا الهدى لدينكم وهو ليس منه فى شئ بالفعل ٠

ومن الضرورى ان نبىّ الأسلام لا يتّبع اهواء اليهود لعصمته اولا ولأنه انما ارسل لقمع اهوائهم ثانيا ولكنها كلمة تعريض بالمكلفين الآخرين الذين ربما حاولوا الحق واراد وه لأنفسهم ان حصل لهم بسهولة واذا لم يحصل لشدّة شكيمة صاحب الباطل فى الدفاع عن باطله بشتّى الصور والألوان انقادوا للباطل تحبّبا للعافية وتزلفا للسلامة والراحة ٠

فقوله تعالى ولئن اتبعت اهوائهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من اللّه من ولىّ ولا نصير تهديد عظيم لمن يعلم بالحق ويصيخ الى الباطل ابقاء على وشل السلامة فى هذه الدنيا او تحصيلا لجاهها واطماعها اذن فويل للمسلمين قادة وافرادا حيث التهى الجميع القائد ركضا وراء الجاه والفرد طلبا للعافية حتى آل بهم الأمر انّ اعظم مراجع الدين بين العوام لا يحترمه حتى الشرطى المسلم بل يثبته كتافا حيث يأمره من فوقه ويزّج به الى السجون او يشرّد به تبعيدا الى ديار أخرى وامّا الفرد فهو مهزءة يسخر منه ويسخّر لكل مايراد به ولا يسلم مع ذلك على ماله الذى بيده او ناموسه الذى تحت رعايته ٠

ودول الأسلام على تعددها اليوم من مهازل الدهر حقيقة وان تكن اليهودية اعتزّت اليوم بوقوفها صفا واحدا لا يعرف السأم ولا الملل على قلّتها فى قبال مئآت الملايين من المسلمين الذين لا تنام اعينهم من الرعب الذى لا قوه من هذه العصابة القليلة وتراهم يحسبون لها كلّ حساب وما ذلك الاّ لتفسّخ هذه الملايين المتكدسة مرجعا وفردا

و تصامد اولئك فى كل شيء وقد رأى كلّ من الطرفين نتيجة تفسخه و تشدّ ده و التقية اذا وصل بها هذا الحدّ الى الأنهيار كانت حراما قطعا لان التقية المشروعة هى التى تبقى على بصيص امل للمستقبل يجبربه المكلف مافات عليه و امّا اذا اطاحت التقية بكل شيء فقد خرجت عن موضوعها حتما ولا نطيل فى هذا الموضوع فهو من الواضحات .

* (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته اولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) *

قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب معنى عام يشمل كل امة اوتيت كتابا سماويا لتسير على ضوءه و جملة يتلونه حق تلاوته جملة حالية و خبر المبتدأ قوله اولئك يؤمنون به بهذا التقدير كل امة اوتيت كتابا سماويا ليكون لها منهجا تسير على سننه و قانونا تعمل بنظمه وهى تتلوه تلاوة تدبر لمعناه ليكون العلم به وسيلة للعمل فتلك الأمة هى التى تؤمن بكتابها لان الجاهل بالشيء لا ايمان له به و العالم به غير العامل يكون اسوأ حالا من الجاهل فيكون احرى بعدم الأيمان به وكل امة جحدت بنظام سعادتها او اعترفت به لسانا و خالفته عملا فهى الأمة الخاسرة فى الدنيا و الآخرة .

* (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم
وانّى فضّلتكم على العالمين : واتقوا يوما
لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها
عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) *

قد تقدم امثال هاتين الآيتين فى مقاديم هذه السوره وعله التكرار فى هذا و نظائره اراده تثبيت مفاده فى ذهن سامعه فأن التكرار انّما يسمج لوعدّ هذرا لا طائل ورائه و اما اذا كان منشأ تذكير و تركيز عبره من التعبير فهو له حظّه من الصحة واحيانا من اللزوم كما فى كل تأكيد لفظى او معنوى يؤتى به بداعيه المشروع المقرّر جملة من مصححاته او ملزماته فى فنون المعانى و البيان و النحو فراجع ۰

و محصول الآيتين ان الأنسان امّا ان يكون حافظا لوجدانه او ملاحظا على ذاته وكيانه فان كان ذا وجدان قضى عليه وجدانه بلزوم مجازاة اهل الخير على احسانهم اليه ومع ذلك فالفضل لهم عليه وان كان ذا ملاحظة على ذاته و احراز سلامته حفزه ذلك على معرفة النعمة ولو بظاهرة الشكر عليها و التجافى عن الكفران الموجب للتعدى على ساحة عزّ المنعم ۰

* (واذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمهنّ قال انّي جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) *

الأبتلاء هو الأختبار وهو مستحيل على اللّه اذا اريد به حصول العلم له بمن اختبره من طريق هذا الأختبار وجائز عليه اذا اريد به انكشاف حال المكلف للمكلف نفسه او انكشافه للآخرين و اختبار اللّه لأبراهيم الذي اراد جعله اماما للناس هو من القسم الثالث وهو كشف امره للناس حتى تركن نفوسهم اليه وراء ما أمروا باتباعه فأن الأقتداء من بعد التجربة امكن في النفس من الأقتداء اتكالا على قول من هو مورد اعتماد واطمئنان وقد جاء في معنى الكلمات عن الخاصة و العامة آثار منها ما روى عن الصادق (ع) انه ما ابتلاه اللّه به في نومه من ذبح ولده اسماعيل فأتمّها ابراهيم وعزم عليها و سلّم لأمر اللّه فلما عزم قال اللّه ثوابا له لمّا صدّق وعمل بما امره اللّه به اني جاعلك للناس اماما ثم انزل عليه الحنيفية وهي الطهارة وهي عشرة اشياء خمسة منها في الرأس وخمسة منها في البدن فأما التي في الرأس فأخذ الشارب واعفاء اللحى وطمّ الشعر و السواك و الخلال واما التي في البدن فحلق الشعر من البدن و الختان و تقليم الأظفار و الغسل من الجنابة و الطهور بالماء .

ومنها ما عن ابن عباس انها عشر خصال كانت فرضا في شرعه سنة في شريعتنا وهي المضمضة و الأستنشاق و فرق الرأس وقصّ الشارب و السواك في الرأس و الختان و حلق العانة و نتف الأبط و تقليم الأظفار و الأستنجاء بالماء في البدن ، ومنها غير ذلك ولكن لا بد من

عنوان اعم من هذا او ذاك وهو ان اللّه ابتلاه بوظائف تكشفه للناس انسانا مثاليا تام العيار مقبولا للنفوس محبوبا لديها موثوقا به فأتمّ ابراهيم تلك الوظائف و قام بها خير قيام فلّما تجلّى صفائه للناس قال انى جاعلك اماما للناس اى مثالا يقتدى به و يحتذى حذوه و يوطأ على اثره ويكون منارا لهم ولا تلصق بالتابع له تبعة لانه ائتمّ بأمام و اقتدى بقدوة ٠

قال ابراهيم تعزيزا لمن ينتج عنه و يكون منه وحبّا لأن تنوشه رحمة اللّه كما ناشته ومن ذريّتى هل ينال احدهم او جلّهم او كلهم الأمامة فأعطاه اللّه تعالى ملاكا قصيرا فى عبارته طائلا فى معناه لاينال عهدى بالنبوة و الأمامة او بأىّ شىء يفرض حقيرا كان ام خطيرا الظالمين لأنفسهم اولها و للأغيار فقد جعل سبحانه عنوان الظلم بأى محقق تحقق مانعا من نيل العهد للمتلبس به حتى لو اقلع عنه فيمابعد فأن التوبة انّما تذهب اثر السيئة ولا تقلعها بعد وقوعها لأن الشئ اذا وقع لا يتبدل فى نفسه عمّا وقع عليه و اذهاب اثر السيئة مربوط بمن له حق تغطيتها و الأغماض عنها و امّا السيئة فى نفسها فانها اذا وقعت استمّرت بمعنى انها لبست الوجود فى الخارج فلا يقال لم يقع من الظالم ظلم مع العفو عنه و انما يقال وقع الظلم و تعقبه العفو ٠

و قوله سبحانه لا ينال عهدى الظالمين من اعظم مبانى العدل وعدم التحيّز و العقول كلها متصامدة عليه فأنّ من لم يملك نفسه حتى قادته لمقارفة الذنب ليس بمؤتمن فلا يكون قدوة للاغيار يجعلونه منارا حتى لا يقعوا فى متاهة وهذه الأية من اوضح الأدلة على لزوم العصمة فى الأمام الشرعى فويل لأولئك الذين يعتبرون يزيد بن معاوية واباه و مروان ابن الحكم و اولاده و احفاده و قس عليهم غيرهم من خلفاء

المسلمين أئمة شرعيين ٠

اما وعوا ان الأئتمام بيزيد معناه اباحة شرب الخمور و مزاولة الفجور و اراقة دماء الابرياء و مقارفة كل مأثم و الأطاحة بكافة المقدسات الا قاتل الله كل شيخ للحديث عفن و كل مفت جاهل ٠

ومن المهازل انصافا مايقوله الشوكانى فى تفسيره (فتح القدير) عند هذه الآية قال ابن جرير ان هذه الآية وان كانت ظاهرة فى الخبر انه لاينال عهد الله بالأمامة ظالما ففيها اعلام من الله لابراهيم الخليل انه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه انتهى ولا يخفاك انه لا جدوى لكلامه هذا فالأولى ان يقال ان هذا الخبر فى معنى الأمر لعباده ان لا يولوا امور الشرع ظالما و انما قلنا انه فى معنى الأمر لأن اخباره تعالى لا يجوز ان تتخلف و قد علمنا انه قد نال عهده من الأمامة وغيرها كثيرا من الظالمين ــ اهـ ــ

و نحن يجب علينا ان نقول له يامسكين هل ترى ان امور الشرع بيد الناس حتى لا يجوز لهم ان يولوا فيها انسانا ظالما ومن ياترى خوّل امور الشريعة للناس هل تراه هو الله الذى نفى كل تشريع عن كل احد حتى اعظم الأنبياء و اعتبره صرفا واسطة ايصال وانه اذا نطق فانما ينطق عن وحى ،ثم من اعلمك ان عهد الله من الأمامة وغيرها نال كثيرا من الظالمين فهل ترى ان حكومة چنگيز عهد من الله اليه و هل ان برذعة الحمار اذا وضعها واضع على الفرس الأصيل صيّره حمارا بذلك ،ضلال و يالك من ضلال . ٠

* (و اذ جعلنا البيت مثابة للناس و أمنا واتخذوا
من مقام ابراهيم مصلّى وعهدنا الى ابراهيم
و اسماعيل ان طهّرا بيتى للطائفين والعاكفين
و الركّع السجود) *

البيت هو المأوى و المثابة المرجع و المقام مكان القيام و المصلّى محل الصلاة و العهد هو الأيعاز و الطائف حول الشىء هو الدائر حوله و العاكف المقيم و الركّع السجود جمع راكع و ساجد، و اذ جعلنا عطف على السابقة حيث قال تعالى و اذا ابتلى ابراهيم ربّه .

اى قررّنا شرعا كون الكعبة مرجعا للناس و موئلا يدعون اللّه عندها و يستغيثون لديها وقد تقدم انه سبحانه قال اينما تولّوا فثمّ وجه اللّه و لازم ذلك ان لا خصوصية لمكان على مكان و انما جعل سبحانه البيت مثابة هنا و اعطاه خصوصية بالأنتساب اليه ليفيد به وراء تأمين الدعاء و التوجه اللذين يحصلان فى كل مكان ومن جملة الأمكنة البيت فائده تجمّع الموحدين و تعرّف بعضهم على بعض و استفادة فريق من فريق و ابداء كيان التوحيد بتراكم اهله على صعيد واحد ليشكّلوا بذلك كانونا عالميا مرموقا .

و ليس من لازم التعبير بالمثابة ان من زار البيت لزمه او استحبّ له العود اليه قضاء لحق معنى الرجوع بل معنى المرجعية له ثابت وصحيح باعتباره موئلا ومحل تمسّك للمؤمنين باللّه ،كما قررّناه شرعا محلّ أمن للملتجىء اليه فمن يحترم اللّه يلزمه احترامه و لذلك جاء فى الفقه انّه لايقام الحدّ فيه على من جنى جناية خارجا عنه و التجأ اليه مادام ملتجئا و انما يضيّق عليه فى المطعم و المشرب حتى يخرج منه فيقام

الحدّ عليه ،امّا اذا جنى فيه اقيم الحدّ عليه بلا تأمل و تداول حتى مشركوا العرب ذلك اتخاذا له من اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام ٠

و اتخذوا ،الزام للطائفين من مقام ابراهيم الذى قام عليه حين بناءه للبيت او حين زيارته لبيت اسماعيل كما فى القصة الآتية محلّ صلاة اى صلّوا فيه صلاة الطواف للاجماع على انه لا صلاة واجبة فى مقام ابراهيم غير صلاة الطواف ٠

و قوله تعالى ان طهّرا تفسير لقوله وعهدنا الى ابراهيم و اسماعيل و تطهير البيت يجوز ان يكون معناه لزوم تنظيفه من الأقذار التى كان يطرحها المشركون عند البيت قبل زمن ابراهيم و اسماعيل كما يجوز ان يكون المراد تطهيره من الأصنام التى كانت توضع عليه و جميع ذلك مشمول لمعنى التطهير للطائفين وهم الزائرون لبيت الله و العاكفين وهم المقيمون عنده و الركّع السجود وهم المصلّون لديه سواء كانت الصلاة لطواف ام لغيره ٠

و القصة التى اشرنا اليها جاءت فى آثار عديدة مضمونها ان ابراهيم لمّا اتى باسماعيل وهاجر ووضعهما فى مكة و نزلها الجرهميون و تزوج اليهم اسماعيل و ماتت امّه هاجر استأذن ابراهيم ساره ان يأتى الى مكة فأذنت له و شرطت عليه الاّ ينزل فجاء ابراهيم الى بيت اسماعيل فقال لامرأته اين صاحبك قالت ليس هنا ذهب يتصيّد وكان اسماعيل يخرج من الحرم للصيد يقيت به أهله فقال لها ابراهيم هل عندك ضيافة قالت ليس عندى شىء وما عندى احد فقال لها ابراهيم اذا جاءك زوجك فأقرأيه سلامى و قولى له فليغيّر عتبة بابه و ذهب ابراهيم فجاء من بعده اسماعيل فوجد ريح ابيه فقال لامرأته هل جاءك احد قالت جاءنى شيخ من صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه قال فما

قال لك قالت قال اقرئى زوجك سلامى و قولى له فليغير عتبة بابه فطلقها اسماعيل و تزوج غيرها ٠

فلبث ابراهيم زمانا ثم استأذن سارة ان يزور اسماعيل فأذنت له واشترطت عليه ان لاينزل فجاء ابراهيم لبيت اسماعيل فقال لأمرئتها اين ذهب صاحبك فقالت للصيد وهو يجئ الآن فانزل يرحمك الله فقال لها هل عندك ضيافة قالت نعم فجاءت باللبن و اللحم فدعا لها بالبركة فقالت له انزل حتى اغسل رأسك فلم ينزل فجائت بالمقام فوضعته تحت قدمه الأيمن فبقى اثر قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولت المقام تحت قدمه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فبقى اثر قدمه عليه فقال لها اذا جاء زوجك فاقرأيه سلامى و قولى له قد استقامت عتبة بابك فلما جاء اسماعيل وجد ريح ابيه فقال لامرئته هل جاءك احد قالت نعم شيخ من أحسن الناس وجها و اطيبهم ريحا فقال لى كذا وكذا و قلت له كذا وغسلت رأسه و هذا موضع قدميه على المقام فقال اسماعيل لها ذاك ابى ابراهيم ٠

و فى هذه القصة نكات يجب التوجه اليها :

(١) ان سارة زوجة ابراهيم التى الجأته الى ابعاد هاجر وابنها عن المحيط الذى تعيش فيه بالصورة الخشنة التى اعربت عنها الآثار معروف عنها انها من خيار النساء ولا استبعاد فى تطبيق اعمالها على المقررات الشرعية لكنها فى آدابها الأجتماعية تحمل خشونة زائدة و من وظيفة المتدين تليين هذه الخشونة بالرياضات فان الدين الصحيح مقرون برياضات اخلاقية تجعل موقف الأنسان فى المجتمع موقفا شريفا تهواه كل النفوس وقد لاتهوى النفوس المتدينَ اليابسَ ٠

(٢) قيام ابراهيم بالشرائط التى ارادتها منه سارة قد لا يكون

لازما له شرعا و لكنه احبّ ان لا ينغّص حياته مع سارة ولا يقلب عواطفها عليه او انّه احسّ من هاجر رضائها بما شرط على زوجها احتراما لجانبه وجبرا لخاطره و بذلك تظهر فضيلة هاجر، ان ثبت هذا الفرض، حتى على سارة نفسها ٠

(٣) برّ اسماعيل بأبيه على انه لم يلمس من دنياه الآ الصعوبة فى الحياة و محيطها دليل على عظمة نفسه كما ان تفقّد ابيه الشيخ له دليل على سموّ ذاته و انه مهما استطاع يفعل المعروف ولا يتجاهل بمن له حقّ عليه ٠

(٤) امر ابراهيم بطلاق الزوجة الأولى و الأبقاء على الثانية من التأديب الأخلاقى الذى لاحزازة فيه ولا يقال فى حقّه انه انسان عاطفى لدرجة الأفراط ٠

* (واذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا بلدا آمنا وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطرّه الى عذاب النار وبئس المصير) *

الجعل يستعمل بمعنى التصيير تارة كما يقول ابو الشاب النزق داعيا فى حقه اللهم اجعله مؤدبا متزنا واخرى بمعنى التقرير والتثبيت كما يقال اللهمّ اجعله كما هو اى ثبته على ما هو عليه والبلد والمدينة نظائر والآمن واجد الامن اى لا خوف فيه ولا وحشة والتمتيع هو الأرخاء بالنعمة والأضطرار هو السوق الى مالا يرغب والمصير هو المآل ومن آمن نصب على البدلية من اهله بدل بعض من كل وقليلا صفة لموصوف محذوف تقديره تمتيعا قليلا او زمانا قليلا .

لمّا وجد ابراهيم ارض مكة شاغرة من الضرع والزرع واشعره الله بقدسيتها واوطن اهله فى هذه الأرض الجرداء التى هى مظنة الوحشة والأضطراب لفقد الأنيس فيها دعا الله لها بقوله ربّ اجعل هذا بلدا آمنا والجعل هنا كما يحتمل فيه التصيير يحتمل فيه التقرير وكما يحتمل فيه التكوين يحتمل فيه التشريع بمعنى ربّ بتقديرك الذى لامردّ له اجعل مكة آمنة بحيث لا يستطيع احد ايجاد الوحشة فيها واقلاق اهلها عنها او الزم المكلفين الزاما شرعيا باحترامها فوق حدود المتعارف ليكون امنها داعيا الى اعمارها بالسّكان وتجمّع الأفراد ومن هنا صحّت الرواية عن الصادق وغيره من الحجج ان من دخل الحرم مستجيرا به فهو آمن من سخط الله ومن دخله من الوحش والطير كان آمنا من ان يهاج او يؤذى حتى يخرج من الحرم وجاء عن رسول الله

(ص) انه قال يوم فتح مكة ان الله جرّمها يوم خلق السموات و الأرض فهى حرام الى ان تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلى ولا تحلّ لأحد بعدى و لم تحلّ لى الاّ ساعة من النهار ، و ارزق اهله من الثمرات تجلب اليهم لأنه بلد جدب وخصّ الدعوة بالمؤمنين منهم لانه لا يجوز للمؤمن ان يدعو لكافر بعيد عن الله بالخير نعم يدعو له بالهداية و الأيمان لكنّ الله سبحانه اتمّ كلام ابراهيم و ابان له جريه مع الكفرة و مشيه فى التكوين و التشريع معهم فقال و امّا الكافر فانى لا اقطع عنه رزقه ولا اضيّق عليه معيشته لأجل كفره و لكننى امتّعه امّا تمتيعا قليلا او زمانا قليلا هو مسافة عمره المقدر له ثم اسوقه الى عذاب النار و النار بئست المصير و المآل للأنسان ٠

* (و اذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت و اسماعيل ربّنا تقبّل منّا انك انت السميع العليم) *

لم يكن آل ابراهيم من اهل الحجاز و انما صدف ذلك لاسماعيل و امّه هاجر لما جاء فى الرواية ان ابراهيم كان نازلا فى بادية الشام فلمّا ولد له من هاجر اسماعيل اغتمّت سارة من ذلك غمّا شديدا لانه لم يكن منها ولد له فكانت تؤذى ابراهيم فى هاجر و تغمّه فشكا ذلك ابراهيم الى الله عزّوجلّ فأوحى اليه انّما مثل المرئة مثل الضلع المعوّج ان تركته استمعت به وان رمت ان تقيمه كسرته ثم امره ان يخرج اسماعيل و امّه عنها فقال اى رب الى اىّ مكان قال الى حرمى و امنى و اول بقعة خلقتها من ارضى وهى مكة و جائه جبرئيل بالبراق فحمله وحمل اسماعيل و امّه فكان ابراهيم لا يمرّ بموضع حسن الاّ قال ياجبرئيل أههنا نحطّ قال لا حتّى وافى به مكة فوضعه فى موضع البيت وقد كان ابراهيم

عاهد سارة ان لا ينزل حتى يرجع اليها فلما نزلوا فى ذلك المكان كان فيه شجر فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها فاستظلت تحته. فلما اراد ابراهيم الأنصراف عنهم قالت له هاجر لم تدعنا فى هذا الموضع الذى ليس فيه انيس ولا ماء ولا زرع فقال ابراهيم ربى الذى امرنى ان اضعكم فيه فسكوتها امام ارادة الربّ مشعر برضاها بما اراده الله لها و هذا معنى الأيمان بالله وهو ان يؤمن به تعالى فيما يعلم وجه مصلحته و فيما لا يعلم ·

ثم انصرف عنهم فلما بلغ كدى وهو جبل بذى طوى التفت اليهم ابراهيم ـ كما قال الشاعر :

و تلفتت عينى فمذ خفيت * * * عنّى الحمول تلفّت القلب

فقال ربى انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع الى آخر الآية ثم مضى و بقيت هاجر فلما ارتفع النهار عطش اسماعيل فقامت هاجر فى الوادى حتى صارت فى موضع المسعى فنادت هل فى الوادى من أنيس فغاب عنها اسماعيل فصعدت على الصفا و لمع لها السراب فظنّت انه ماء فنزلت فى بطن الوادى و سعت فلما بلغت المروة غاب عنها اسماعيل ثم لمع لها السراب فى ناحية الصفا فهبطت الى الوادى تطلب الماء فلما غاب عنها اسماعيل عادت حتى فعلت ذلك سبع مرات فلما كانت فى الشوط السابع وهى على المروة(١) نظرت الى اسماعيل وقد ظهر الماء تحت رجليه فقعدت وجمعت حول الماء رملا فزمّته بما جعلت حوله من الرمل فلذلك سمّيت زمزم وكانت جرهم نازلة بذى المجاز وعرفات فلما ظهر

....

(١) فاذا كان السعى بين الصفى و المروة مدركه فعل هاجر فلا مانع من ذلك فأن فعل العبد اذا كان مرضيا لله جاز بل استحب ان يستنّ عليه العبد الآخر تأسيا بأخيه المؤمن لأدراك غايات شريفة اقلّها ثواب

٣٠٠ ،

الماء بمكه عكفت الطير و الوحوش عليه فنظرت جرهم الى عكوف الطير و تردده على ذلك المكان فقصدته فنظرت الى امرءة و صبّى نزول فيه قد استظلّوا بشجرة و ظهر لهم الماء فقالوا لها من انت وما شأنك و شأن هذا الصبى قالت انا امّ ولد ابراهيم خليل الرحمن وهذا ابنه امره الله ان ينزلنا ههنا فقالوا لها أتأذنين ان نكون بالقرب منك فقالت حتى اسأل ابراهيم و زارها ابراهيم فى اليوم الثالث فقالت له هاجر ياخليل الرحمن ان ههنا قوما من جرهم يسألونك ان تأذن لهم حتى يكونوا بالقرب منّا افتأذن لهم فى ذلك فقال ابراهيم نعم فأذنت هاجر لجرهم فنزلوا بالقرب منها و ضربوا خيامهم و انست هاجر و اسماعيل بهم فلما زارهم ابراهيم فى المره الثانية ونظر الى كثرة الناس حولهم سرّ بذلك سرورا شديدا وكانت جرهم قد وهب كلّ واحد منهم الشاة و الشاتين لأسماعيل فكان هو و امّه يعيشان بها فلما بلغ اسماعيل مبلغ الرجال امر الله تعالى ابراهيم ان يبنى البيت فقال يارّب فى ايّة بقعة فعرّفه موضع الكعبة الآن و نقل اسماعيل الحجر من ذى طوى فرفعه فى السماء تسعة اذرع و جعل له بابين بابا الى المشرق و بابا الى المغرب فالباب الذى الى المغرب يسمّى المستجار ثم القى عليه الشيح و الاذخر وعلّقت هاجر على بأبه كساء كان معها فكانوا يكنّون تحته فلما بناه و فرغ حجّ ابراهيم و اسماعيل و نزل عليهما جبرئيل يوم التروية لثمان خلت من ذى الحجة فقال ياابراهيم قم فارتو من الماء لانه لم يكن بمنى ولا عرفات ماء فسمّيت التروية لذلك ثم اخرجه الى منى فبات بها ففعل به مافعل بآدم فقال ابراهيم لمّا فرغ من بناء البيت رب اجعل هذا بلدا آمنا و ارزق اهله من الثمرات الآية .

و القواعد جمع قاعدة وهى اساس الشىء ومن فى قوله من البيت

بيانيّة و قوله ربنا تقبل منّا مقول قول محذوف تقديره انّهما قالا بعد رفع البيت و اتمامه ربّنا تقبّل منا هذه الخدمة العامّة التى يستفيد منها كافة عبادك انك انت سميع الدعاء عليم بضمائر الناس المخلص منهم و المرائى .

* (ربّنا و اجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امّة مسلمة لك و ارنا مناسكنا و تب علينا انك انت التواب الرحيم) *

الأسلام هو الأنقياد فأن كان عن صورة ظاهرية (و طبعا لا يكون عن صورة ظاهرية الاّ عن رمز امّا لجلب منفعة او لدفع مضرّة) فأنّه حينذاك يفارق الأيمان و ان كان عن صميم قلب ساواه فى المعنى و النسك فى اللغة العبادة و المنسك محلّها وقد يطلق على النسك نفسه و التواب مبالغة فى قبول التوبة بمعنى قبولها مرّة بعد اخرى او قبولها عن الجرائم العظام و الرحيم هو الملطف المتفضل .

و هذا من تتمّة دعاء ابراهيم و اسماعيل بعد بنائهما البيت الحرام و الجعل هنا بمعنى التثبيت و التقرير اى ثبّت لنا اسلامنا الذى نحن عليه لانه ليس من توفق للأيمان فى بادئه استمرّ عليه فأن الشيطان كان يسمّى طاووس الملائكة و انحرف ذلك الأنحراف المدهش.

و وفّق ذريتنا لأن تكون امة مسلمة منقادة لك حتى تفلح و تنجح فأن تمنى الخير للارحام خصوصا و للناس عموما من علامات الصفاء و الأيمان ، وعرّفنا بعباداتنا التى تنيلنا القرب منك فأنه قد ينقدح فى نفس الأنسان طريق خير بنظره و لكنه فى الواقع تافه لا قيمة له امّا اذا استوحى علم ذلك من اهله فأن اتعابه فى سبيله لا تذهب سدى و تثمر

الثمرات اللازمة .

و أرنا محالّها فأن العبادة المشروطة بمكان خاص لا تصحّ في غيره ولا تنتج النتيجة المتوخاة بسواه ، و تب علينا ممّا لا نعرفه فأن الأنسان مع كمال حذره و احتياطه امام مولاه قد يصدر منه مالا يدرى انه مصيب لرضا المولى و الأنسان بعد التحرّى وان كان معذورا لو اخطأ الواقع الاّ ان اصابة الواقع او ما هو بمنزلتها وهو الأعتراف بعدم العلم من كافة الجوانب له ميزات مرموقة .

و تلطف بنا فأن العبد ومهما بلغ فى كمالاته و فضائله فأنه محتاج الى لطف المولى به ، و كلمة من فى قوله من ذريتنا للبيان و ان جاز ان تكون للتبعيض لأن المناسب لمقام الدعاء هو كونها بيانيّة و انهما يريدان الأسلام لكل واحد واحد من ذراريهما ومن غيرهم وعمدة المناسك فى الحج الطواف بالبيت و السعى بين الصفا و المروه والوقوف بعرفات و المشعر و رمى الجمار بمنى و الهدى .

* (ربّنا و ابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك
و يعلّمهم الكتاب و الحكمة و يزكّيهم انك انـت
العزيز الحكيـم) *

البعث اثارة الشيء فبعث الرسول معناه اثارة من لم يكن رسـولا ليكون رسولا و التلاوة القراءة و التعليم هو توضيح المجهول للجاهل به و الحكمة بيان حقيقة الشيء و دراسة كنهه و التزكية التطهير والتخليص من الأدناس و الرذائل و العزيز هو الممتنع ان يؤخذ بقهر و قـوّة و يحقّق عليه الشيء خلافا لرضاه و رغبته و الحكيم هو الذى يضع الهناء مواضع النقب و يجعل كل شيء فى محلّه المناسب له ٠

و هذه الآية كسابقتها من تتمة دعاء ابراهيم و اسماعيل و الرسول المدعوّ به هنا هو نبى الأسلام بالقطع بالنسبة الى اسماعيل الذى هـو احد الداعيين لانه ليس لأسماعيل ذرية غير العرب الذين تنزلوا منـه فكان عدنان و ذريته ومنه كانت قريش وكان هاشم و منه عبد المطلب وعبد اللّه و محمّد (ص) و بالأرجح بالنسبة الى ابراهيم عليه السلام لأن سمة الأسلام الواردة فى الآية السابقة لا يستشعر منها اليهود ولا النصارى كما ان كتبهم ليست كتب تعليم و حكمة و انما هى فى الأغلب قصّة و سيرة بخلاف القرآن فأنه كتاب تعليم عالى و حكمة مركّزة تفتّح منها علم غزيـر المادة فى المعقولات فضلا عن غيرها و التزكية التى قام بها الأسـلام تجاه افراده الراغبين فى تزكية انفسهم لا نظير لها حتى فى الخواطـر فضلا عن العيان ٠

ان التعاليم الأسلامية التى خلقت من اناس الجاهلية مثاليـين كعلّى و ابى ذر و سلمان ومن مشى على هذا الطراز ليس لها ندّ فـى

كافه عوالم البشرية ، و نتيجة الدعاء بمناسبة المحلّ المدعو فيه تكون هكذا
ياربّنا و ابعث فى ذريتنا التى رغبنا لها الأسلام رسولا من افرادهم
يتلوعليهم ما توحيه اليه من آياتك لتكون نفس الآيات علامات صدقه فى
ارساله ثم يأخذ فى تثقيفهم على ضوء ما انزلت اليه و يشقّق لهم
الحقائق حتى يكونوا علماء واقعيين قد وقفوا على حقائق الأشياء ليكون
دينهم بك و بشرائعك دينا جذريا لا قشريا ثم يترفع بهم فى مقام
العمل عن العلم الفارغ حتى يكونوا اناسا تطبيقيين لا مفهوميين فأن
المفاهيم قد تصل فى الأمم الى اعلا قممها و لكن حيث لا تطبيق فيها
لا ترى تلك الأمم الاّ كما ترى الوحش الهائم الذى يضرب بعضه بعضا
للاهواء و الميول و انك ياربنا الذى دعوناك لتحقيق هذه الرغائب
ليس موجود اعزّ منك او يضاهيك فى قدرتك حتى تتوهم فيه معارضتك
و وقوفه امام تنفيذك لما دعيت الى تحقيقه بل كلّ القوى منك صادرة
و اليك عائدة كما انك حكيم متقن لا تفعل فعلا ولا تصنع صنعة الاّ وآثار
الأتقان متوفرة فيه وعلائم الدقّة لائحة عليه ، فما دعوناه منك ورجوناه
سهل يسير عليك .

* (و من يرغب عن ملّة ابراهيم الآ من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا و إنه فى الآخرة لمن الصالحين) *

الرغبة باعتبار الواسطة التى تصلها الى معمولها تختلف بين معنيين متقابلين فاذا قيل رغب فيه كان معناه اراده واحبّه و اذا قيل رغب عنه كان معناه انصرف عنه و اعرض و الملّة هى الدين و النزعة و المذهب و السفه خلاف العقل والأصطفاء الأنتخاب و الأختيار و الصالح هو البرئ من العيوب السالم من النقص الواجد لمزايا القبول و الرضا المستحق للأكرام و الأعظام ، و من فى صدر الآية للاستفهام الأنكارى الذى معناه النفى اى لا يرغب عن ملة ابراهيم وسفه كعلم يفيد لزوم المعنى ولا يتعدى الآ بواسطة فيقال سفه فلان فى نفسه فنصب نفسه هنا امّا على حمل سفه غير المضاعف على معنى المضاعف بمعنى حملها على السفه اوعلى نزع الخافض بمعنى سفه فى نفسه و امّا على التمييز و نيّة التجريد عن الأضافة اى سفه نفسا كما يقال طاب محمّد نفسا .

و محصول الآية انه لا يرغب عن دين ابراهيم الآ غير العاقل لان دينه دين استدلال و برهان وحكمة كما سيجئ بيان استدلاله على لزوم الصانع للكون و انه غير هذه الموجودات المادية لدلالتها على نفسها انها مخلوقة وليست صالحة لأن تكون خالقة ونحن لمّا وجدناه من اوّل نشأته طيب النفس ملتفتها نازعا لربقة التقليد تابعا للحق جادّا فى تحقيقه اصطفيناه لرسالتنا فى الدنيا و انه فى الآخرة التى هى نشأة الجزاء لانها متمحضة له لمن الصالحين الذين يوقّرهم اللّه

و يجزل اجرهم و يحسن معاملتهم .

و الزبدة من الآية ان الأنسان فى مجارى حياته يجب عليه لأجل حفظ مستقبله و تأمين سعادته ان يفحص عن حال الرجال فيلزمه ان يقتدى بمن يصونه و لو كانت هذه المصونيات تقف امام بعض شهواته التى تريد افنائه من ناحية و سحق كرامته من ناحية ثانية و اما الذى رضى لنفسه كلّ عيب فى سبيل تأمين شهواته الأنتهازية فذلك ليس ببشر فأن ابراهيم و نظير ابراهيم من دعاة الكرامة فضلا عمّا حصنّوه لأنفسهم من آخرة عالية رائقة حصلّوا فى هذه الدنيا شخصية مرموقة يحسدهم عليها جبابرة الدهر وكل انسان متيقظ حازم يستطيع ان يكون على نظير ممّا كانوا عليه .

* (اذ قال له ربّه اسلم قال اسلمت لربّ العالمين
و وصى بها ابراهيم بنيه و يعقوب يا بنىّ ان
اللّه اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ الاّ و انتم
مسلمون) *

قول اللّه تعالى لابراهيم بالأسلام ان اريد به لسان الحال من طريق العقل فهو واضح فأن اللّه خاطب من هذا الطريق كل مكلف بذلك فبعضهم توجّه الى هذا النداء لعدم انصرافه عنه الى غيره و انغماسه بذلك الغير فأن لسان المقال لو دفع بصوته فى اذن المنصرف عن الشئ المشغول بغيره لما اثار استفزازه ولا شكّ ان هؤلاء هم الأقلون ومن جملتهم ابراهيم عليه السلام .

و ان اريد به لسان المقال فقد اختلف فى الزمن الذى خوطب به فهل هو قبل النبوّة او بعدها امّا قبل النبوّة فيحتمل انه كان بعد

تحرّيه الاجرام السماوية للأستدلال على صانع الكون فلمّا ثبت عند ابراهيم ان هذه الطبيعة صنعة ما وراء الطبيعة خاطبه ربّه بأن يقول كلمة الأسلام لفظا كما آمن بمعناها قلبا فقال اسلمت قيادي لرب العالمين ولم يقل اسلمت لله لأن الله علم لا يشعر بوصف امّا قول ربّ العالمين فهو وصف سيق مساق التعليل اى ان اسلامي لموجود لابد من الاستسلام له وهو رب العالمين اى مالك الكون كله فاين يشذّ بالأنسان عن محوطة الكون بأسره ٠

واما بعد النبوّة فمعنى قول الله له اسلم اى استمر على ما انت عليه من الأخلاص والأنقياد لمولى الموالى وهو من باب ايّاك اعنى واسمعى ياجاره ٠

ثم ان ابراهيم عليه السلام لما استحصل هذه النزعة الأسلامية القائمة بالدليل الواضح الكافلة بسعادة الدارين التى كانت رصيدا لاصطفاء الله ايّاه وصّى بها بنيه لأنهم اقرب الناس اليه واجدر بأن يعطوه اكثر من الأغيار ولأن الوصية انما تحقّ لمن له اهتمام بأمر الموصى وهم اسرة الأنسان واولاده وبنوه والاّ فابراهيم وكل انسان محسن لا يضنّ بما عنده من خير للأنسانية كلها بل لانه نبىّ من لازمه التعميم دون التخصيص وهو عليه السلام قد فعل ذلك بمقتضى نبوّته العامّة التى صدع بها بكل مجهود ولكنه اكدّ ذلك فى بنيه عندما استشعر من نفسه الموت ليكونوا قدوة للباقين فأن اهل الميّت اذا ساندوه قووّا جانبه فى نظر الناس ٠

وهكذا وصى يعقوب بنيه الاثنى عشر الأسباط المعروفين فى بنى اسرائيل بما وصّى به ابراهيم بنيه والذى عهداه جميعا لابنائهم هى هذه الكلمة ان الله انتخب واختار لكم الدين الذى الزم بتبليغه

ابراهيم و اعتبر الراغب عنه سفيها لا وزن له وهو الأسلام الذى صدع به لأوّل مرّة وبسطه تلاوة و تعليما و حكمة و تزكية محمد بن عبد الله الذى هو دعوه ابراهيم و بشارة المسيح فلازموه فى دار التكليف حتى يوافيكم حمامكم و انتم متمسكون به وحتى تلفظوا آخر انفاسكم على الأعتراف بما فيه .

وفى الآية دليل واضح على لزوم وصية الأنسان بما يوّجه به اهله و بنيه زائدا على ماكان مكلفا به طوال سيره الحيوى كما هو شعار الأنبياء و الأوصياء و العلماء الاذكياء وانما سمى يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم بهذا الأسم لانه هو واخاه عيصا كانا توأمين فتقدم عيص فى الولادة وخرج يعقوب على عقبه .

* (ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه
ماتعبدون من بعدى قالوا نعبد الاهك واله
آبائك ابراهيم و اسماعيل و اسحاق الاها واحدا
ونحن له مسلمون) *

ام ههنا منقطعة و استعملت بمعنى النفى اى ما كنتم ، و حضور الموت عند المحتضر الذى يتكلم و يوصى معناه حضور اماراته عنده ، وما تستعمل فيما لا يعقل وانما استعملت هنا لأن الاغلب فى معبودات تلك الأدوار هى الهوامد من اجرام السماء او الأصنام او الحيوانات وهى بمنزلتها و اطلاق كلمة الأب على الجدّ و العم اطلاق شائع ونصب الاها على الحالية من الاهك بتقدير نعبد الاهك حال كونه متوحدا لا شريك له ، ونحن له مسلمون جملة حالية ايضا .

ومحصول الآية انكم يااهل الكتاب من يهود و نصارى لم تكونوا

حاضرى انبيائكم فلم تفرغون عن ألسنتهم مالم تسمعوه منهم و تنسبون اليهم ماهم براء منه فهذه يهود يتكم كيف تنسبونها ليعقوب وهكذا الرائج عند المسيحيين كيف ينسبونه للمسيح فانكم لم تكونوا شاهدى احتضار يعقوب حين قال لبنيه ايّ معبود تعبدون بعدى فأنكم فى حضورى اراكم على دين الأسلام الذى هو دين جدّى ابراهيم وعمى اسماعيل وابى اسحاق واخاف عليكم ان تتغيّروا بعد وفاتى فأجابوه نعبد من بعدك من عبدناه فى زمنك وهو الاهك و الاه آبائك ابراهيم و اسماعيل و اسحاق وهو الله صانع العالم ومتقن صنعته موحدين فى عبادته لانشرك معه غيره ونحن له منقادون .

وفى الآية اشارة دقيقة بوجوب التثبت عند النقول واخذ كمال الحذر فى الاعتقاد على موجبها و العمل بمضمونها فانه قد تترتب على التساهل فيها مفاسد عقائدية عملية جمّة .

* (تلك امّة قد خلت لها ماكسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون) *

الأشارة بتلك امة الى ابراهيم و بنيه وخلت بمعنى مضت وخلا الزمان بالفعل منها لها ماكسبت من ايمان صحيح وعمل صالح و لكم يا اهل الكتاب ما كسبتم من تزوير على انبيائكم و انحراف عن خطتهم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون كما لا يسألون عمّا انتم عاملون لان عوالم التكليف لا تحميل فيها فلاتزر وازره وزر اخرى وان ليس للأنسان الّا ماسعى ، و الآية تفيد ان التحدث عن الماضي بخير او بشرّ انما يكون للعبرة لا للفخر ولا للأمتعاض فأن خير السابق له كما انّ شرّه عليه فلا يفتخرنّ انسان بخير غيره ولا يمتعض بشرّ من سواه

* (وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملّة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) *

الواو في قالوا يرجع الى اليهود والنصارى بقرينة كونوا هودا او نصارى و تهتدوا فعل مجزوم بحذف النون لوقوعه جزاء لكونوا وانتصب ملة ابراهيم على المفعولية لفعل محذوف تقديره بل نتّبع ملة ابراهيم و حنيفا حال من ابراهيم بمعنى كونه مائلا عن الأديان الباطلة .

جاء في مورد نزول الآية ان قوما من اليهود وقوما من النصارى خاصم بعضهم بعضا كما خاصموا اهل الأسلام فكان اليهودي يقول ان موسى افضل الأنبياء وكتابه التوراة افضل الكتب وكان المسيحي يقول ان عيسى افضل الأنبياء وكتابه الأنجيل افضل الكتب وكل منهما تقاضى من المسلمين ان يتحولوا الى دينه فنزلت هذه الآية ومحصولها ان اليهود قالوا للمؤمنين كونوا يهودا وان النصارى قالوا لهم كونوا نصارى قل

يا محمّد بل نتبع ملة ابراهيم العادل عن كل خطة عوجاء ، وموسى وعيسى انبياء كابراهيم الاّ انّ ملتّهم عبث بها اليهود و النصارى فلا تصلح لأن يأخذ بها عبد مؤمن امّا ملة ابراهيم فلم تتغير ولم تتطور و نشرتها شريعة الاسلام من جديد و ابراهيم عليه السلام برئ من الشرك فى نفسه و ملّته وموسى وعيسى فى ذلك مثله الاّ انّ اتباع هذين النبيين اشركوا بالله حيث قال اليهود عزير ابن الله وقال النصارى المسيح ابن الله الى كثير من نظائر ذلك وملة ابراهيم سالمة من هذه الهنات ٠

* (قولوا آمنّا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم و اسماعيل و اسحاق و يعقوب و الأسباط وما اوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيّون من ربّهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون) *

السبط فى متداول العرف يقال للحفيد وان اطلق مستقيما على الولد الصلبى و اسباط يعقوب اولاده بالواسطة وغيرها ومفاد ذلك ان الله سبحانه امر النبىّ محمّدا و المؤمنين به ان يقولوا فى جواب اليهود و النصارى جوابا اعمّ و اشمل من الجواب الأول وقد كان الجواب الأوّل بل نتبع ملة ابراهيم و امّا هذا الجواب الأعم فالملاك فيه ان دعوة السماء دعوة واحدة لانها تهدف الى توحيد واجب الوجود الصانع للعالم و تعزيز ما صدر منه لسعادة المكلّف فى كافة ادواره و اطواره على ايدى سفراء نجباء مأمونين فنحن محمّد و المؤمنون به نمشى على هذا الملاك لانه وظيفة كل عبد مؤمن بالله فنؤمن بالله قبل كل شىء لانه الهدف الأصيل من كلّ ديانة ونؤمن بما انزل الله الينا من القرآن وما انزله الى ابراهيم و اسماعيل و اسحاق و يعقوب وما انزله الى كل سبط من آل

يعقوب بعد ان اختاره نبيا لا ابن كل سبط نبى وما اوتيه موسى وعيسى من الكتب السماوية ــ و بطور كلّى ــ وما أوتيه النبيّون من ربّهم ولا نستطيع من طريق المنطق ان نفرّق بين احد منهم فنقبل بعضا ونعرض عن بعض لأنّ ملاك من قبلناه موجود فيمن اعرضنا عنه فليس المقبول بأولى من المردود و انتم يامعشر اليهود و النصارى فرقتم بينهم فلذلك لم تسلموا للّه سبحانه امّا نحن حيث اعترفنا بكلّ من ارسل وبكافة ماانزل فنحن المسلمون للّه حقيقة .

* (فأن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولّوا فأنما هم فى شقاق فسيكفيكهم اللّه وهو السميع العليم) *

فأن انت يامحمّد و انتم ايها المؤمنون به اجبتم اهل الكتاب بذاك الجواب فتابعوكم على مثل هذا الأيمان الصحيح و آمنوا بمحمّد واعترفوا بكتابه فقد اهتدوا الى ماهو الحق كما اهتديتم انتم وان تولّوافاختص اليهود بموسى و اعرضوا عن المسيح وعن نبى الاسلام و اختصّ النصارى بالمسيح و استنكفوا عن قبول محمد وملّته فانما القوم فى لجاج وشقاق وعناد و انحياز و ليسوا من الدين فى شىء ولا تكترث يامحمد من مشاقتهم لك وخلافهم عليك و وقوفهم فى وجهك و نصبهم العداء لدينك فسيكفيكهم اللّه و يذهب بريحهم و يبطل احدوثتهم وهو تعالى السميع لكل ما تقول ويقولون العليم بجميع ماتكن و يكنّون .

و قوله تعالى وان تولّوا فأنما هم فى شقاق مصحر بأن الدين أوّل ما يقوم على الأنذار و الأعذار فأن لم ينجع ذلك جاءت النوبة الى اعمال القوّة وهذا البرنامج من ايحاآت العقول الصحيحة و الموازين

العلمية الصريحة و امّا قول النصرانية ان دين الأسلام دين اعنات و اعمال قوي لا دين مرونة وحلم كما عليه ديانة المسيح وكما قال هو نفسه ان ضربك انسان على خدّك الأيمن فأعطه خدك الأيسر فذلك تزوير منهم على نبيهم وعلى دينهم ايضا لان الله اوجب الحدّة على ميزان شدة الجريمة و المسيح من بعض سفراء الله فكيف يخالفه و امّا المسيحيون انفسهم فكاذبون فى ادعائهم المرونة و الحلم فانهم ارتكبوا على الخلافات المذهبية فيما بينهم فضلا عن مبارزاتهم للأديان الأخرى و بخاصة الأسلام اشدّ الفظائع و المجازر الرهيبة على حساب البروستانتية و الكاثوليكية و الحروب الصليبية شاهد صدق على ذلك .

* (صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون) *

الصبغ فى اصل اللغة التلوين ومعمول عند النصارى انهم يغسلون اولادهم بماء يقال له المعمودية تطهيرا لهم فيما يزعمون و يستعمل هذا الأصطباغ للمذنبين عندهم فأنكر الله عليهم ذلك وقال ان المعمودية وغيرها لا تطهر الأنسان من درن الأخلاق و الرذائل و المعاصى و انما يطهره السير على الفطرة الصحيحة التى يشيدها العلماء الربانيون فنحن المسلمين نطهر انفسنا بأيحاآت الفطرة ونعبد الله وحده و لسنا مثلكم يا اهل الكتاب فى شركم بالله حيث تنسبون له الأبناء و تساوونه بغيره و اصولا لا ربط للاغتسال بالماء باستجلاب عقيدة جديدة او تثبيت عقيدة موروثة وعالم العقائد لا ربط له الاّ بالبرهان و المنطق الوزين و امّا فضائل الأخلاق ومحاسن الآداب فهى مبتنية على تنمية الفطرة و توسيع نطاق مواهبها المندمجة فى النفس و هذه

التنمية و التوسيع لا يعقلان بغير التلمذ على علماء الأخلاق و الحضور عند المربين و التلقى عن المثاليين و يظن ان هذا الخطأ تنزّل الى الى المسلمين كما تنزل بهم اخلاقيا من ناحية الغربيين المسيحيين اولئك الذين يعيشون على الشكليات الفارغة ظاهر جالب وباطن اجوف بزّة اخّاذة وداخل يباب مجالى مزركشة وضمائر متوحشة كما هى السيرة الدارجة اليوم .

و الله سبحانه عاب على اهل الكتاب كلتا الجنبتين العقائدية بانهم لا يعبدون الله وحده بل يشركون معه فى الربوبية المسيح و امّه و العزير وغيره و الأخلاقية بأنهم يرون تطهير الفسق يكون بالماء و الفسق لا يطهر الاّ بتعويض اعمال النفس من العصيان الى الطاعة ومن الرذيلة الى الفضيلة .

وقيل فى نصب صبغة انه على البدلية من ملة ابراهيم السابقة الذكر فى قوله تعالى بل ملة ابراهيم حنيفا وقيل انه على الأغراء بمعنى الزموا صبغة الله .

* (قل اتحاجوننا فى الله وهو ربّنا و ربّكم ولنا اعمالنا
و لكم اعمالكم ونحن له مخلصون) *

المحاجّة هى المخاصمة و الأخلاص هو النزاهة فى العمل و الحب و العبادة و الخطاب للنبىّ محمّد (ص) امر ان يقول لأهل الكتاب الذين اخذوا بعد ظهوره يكيلون الأعتبارات الفارغة للناس بأننا نحن ابناء الله و احبّاؤه و بأن النبوّة من اجيال متباعدة فينا دون غيرنا وبأن العرب عاشوا على الشرك ولا سابقة لهم فى النبوّة فيجب على محمّد و الذين آمنوا به ان يرجعوا الينا فى دينهم ولا ينتظروا منّا اتباعهم ٠

امر ان يقول لهم ،ان الله الربّ رب للجميع ولا اختصاص له بأناس دون اناس و العمل الصحيح او الباطل ليس موقوفا على قوم دون قوم بل من يعمل مثقال ذرة خيرا يره و أيّا كان ذلك العامل ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره و اىّ انسان كان ذلك المقارف اذن فلا ميزة فى هذه القضايا لأحد على احد ومع هذا فالفضل لنا عليكم لأننا فى ديننا لم نشرك بالله تعالى فلم ننسب له ولدا ولم نتخذ له شريكا بل عرفناه إلاها واحدا فردا صمدا قيّوما لا بديل له ولا مثيل ٠

و اصولا نوع البشر يتحيّزون الى ما يمتّ اليهم من عقيدة او اخلاق او متاع فيتجسم لهم ان معتقدهم لانهم منتسبون اليه خير من معتقد الأغيار و اخلاقهم على مافيها خير من اخلاق الباقين و اموالهم اطيب واجلّ و هلّم دواليك كل ذلك لأنتساب ماذكر اليهم فهم يحامون عن النسبة لاعن المنتسب و لو انهم دافعوا عنه لما ذكروا انفسهم اذ لا مجال لذكر انفسهم مع ذكر الحقيقة بما هى حقيقة ٠

وعلى هذا الحساب استخدموا الحقيقة لميولهم ولم يستخدموا

انفسهم فى تنمية الحقيقة وتقد يمها وهذا البلاء لم ينجح منه الاّالأوحدى من الناس مضافا الى انّ المحاجة فى الله انما تكون بين الملحد و الموحّد حيث يتخاصمان فى اثبات الصانع لا بين معترف بالله و معترف به آخر يختلفان فى بعض الميزات .

* (ام تقولون انّ ابراهيم و اسماعيل و اسحاق و يعقوب و الأسباط كانوا هودا او نصارى قل ءانتم اعلم ام الله ومن اظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عمّا تعملون) *

ام هذه معادلة لقوله تعالى فى الآية السابقة قل أتحاجوننا فى الله اى كيف تنسبون اليهودية او النصرانية لهؤلاء الأنبياء السابقين زمانا على هذين المسلكين فهذا افتراء واضح بل كان ابراهيم و اسماعيل و اسحاق و يعقوب مسلمين وماتوا على الأسلام وبه اوصى ابراهيم بنيه وكذلك يعقوب و امّا الأسباط الذين لا بسوا عصر موسى و المسيح فلم يكونوا على يهوديتكم التى انتم عليها ولا على هذه النصرانية بل كانوا على الأسلام الذى كان عليه هؤلاء الأنبياء و امّا الطقوس و العادات الجارية بينكم فهى ليست من موسى ولا التوراة ولا من عيسى ولا الأنجيل و انما هى اهواء لكم اختلقتموها طبق رغباتكم كما عبدتم العجل زمن حياة نبيكم ومشى العوام و رائكم تقليدا جاهلا و الشهادة التى يذكرها الله سبحانه بقوله ومن اظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله هى انّ الله سبحانه ابلغ انبيائه جميعا بالأسلام دين الحنيفية و بلّغه الأنبياء لأممهم و نزلت به كتب السماء و اطلع عليه من المكلفين كل من وصلت اليه الدعوة وعلماء اهل الكتاب من جملتهم لكن

التحيّزات هى التى ادّت بكم الى انكارها و الى ان تكونوا فى جانب خاص تأكلون به طرفا زهيدا من الدنيا لكنّ الله ليس بغافل عمّا تعملون ·

فأهل الكتاب لا فى محاجّتهم فى الله و انّه تعالى ربّهم دون الباقين محقّون ولا فى ادعائهم اليهودية للأسباط و آبائهم والمسيحية الدارجة بينهم للمسيح صادقون ولا للشهادة عندهم من الله بان الأسلام هو دينه مظهرون ·

* (تلك امّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ماكسبتم ولا تسئلون عمّا كانوا يعملون) *

قد مضى مثل هذه الآية و انما جئ بها هنا اشعارا بأن المحاجّة انما تصحّ لأجل ابطال شبه المنافق و اعلان امره بالحجة حتى لا يلتبس على الجاهل الأمر امّا بعد ان ينكشف الحق و تتّم اقامة الحجة فأطالة النزاع تصريف للوقت من دون نتيجة و الدين من لازمه ان يكون بنّاء لا مجادلا فتلك امة قد مضى وقتها ولها ما فعلت من خير وعليها ما اكتسبت من شرّ و لكم انتم ما تكتسبون ولا يسألكم الله عمّا عملوا لأنكم غير مربوطين بهم كما لا يسألون عمّا انتم عاملون اذ لا تزر وازرة وزر اخرى وان ليس للأنسان الاّ ما سعى ·

وخلاصة بعد ان انهى سبحانه الردّ بالمنطق على اهل الكتاب فى مزاعمهم الباطلة توجّه الى المسلمين و أبان لهم انّ الهدف من سوق ما سبق من تلك المناورات المنطقية اتمام الحجة عليكم فلا يجوز لجاهلكم ان يقول مهما نبلغ فى المعصية نحن المسلمين فأننا لم نرتكب معشار ما ارتكبه اولئك على مديد سوابقهم فى التاريخ فنحن على كل

عيب فينا خير منهم على كل خير فيهم لو فرض فيهم خير ٠

وانما لا يجوز له ذلك لانه وقف على ضلال هؤلاء وانحرافهم وغلطهم فاذا ارتكب نظيرا مما ارتكبوه فقد وطأ آثارهم ومشى على خطّتهم بعد ما حذّر منها فتعود جريعته اكثر استحقاقا للعقاب وبقاؤه مع الزمن بحكم تطوّر الحياة اقلّ ولما انجرف المسلمون فى التقاليد مع هؤلاء المردة سقطوا نهائيا كما يراه كلّ مسلم بعينه واستحقوا من العقاب اكثر ممّا استحقه هؤلاء لتأكد موجب الجريمة فيهم ٠

وتهدف الآية ايضا الى لزوم تبيين فعل الباطل لفاعله وفعل الحق للآتى به حتى يتميّز فاعلُ السوء فِعلَه وما يستحقّه عليه من تبعة وفاعل الحق ما فعله وانّه لايّ شيء استحق الأثابة عليه ٠

* (سيقول السفهاء من الناس ماوّلاهم عن قبلتهم
التى كانوا عليها قل للّه المشرق والمغرب
يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) *

ورد الأثرعن الصادق عليه السلام انه قال تحولت القبلة الى الكعبة بعد ما صلّى (ص) بمكة ثلاث عشرة سنة الى بيت المقدس وبعدمها جرته الى المدينة صلّى الى بيت المقدس سبعة اشهر ثم وجهه اللّه الى الكعبة لان اليهود كانوا يعيّرون رسول اللّه (ص) ويقولون له انت تابع لنا تصلّى الى قبلتنا فاغتم رسول اللّه من ذلك غمّا شديدا وخرج فى جوف الليل ينظر آفاق السماء ينتظر من اللّه فى ذلك امرا فلما اصبح وحضر وقت الصلاة (صلاة الظهر) وكان فى مسجد بنى سالم قد صلّى من الظهر ركعتين نزل عليه جبرئيل فأخذ بعضديه وحوّله الى الكعبة وانزل عليه قد نرى تقلّب وجهك فى السماء فلنولينّك

قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وكان قد صلّى ركعتين الى بيت المقدس و ركعتين الى الكعبة.فقال اليهود و السفهاء ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ،وفى الباب اخبار وفيرة عن العامه والخاصة تشير الى مضمون ما اسلفناه .

و محصول الآية من حيث المنطق سيقول خفاف العقول قليلوا البصيرة من الناس ما الذى حرفهم عن قبلتهم التى صلّوا اليها طيلة زمن الأسلام سواء كان القائلون هم اليهود او المنافقون او المشركون و كلّ متحيز مرموز مريدين بذلك ابداء نقطة ضعف امام الجهّال حتى يقلبوهم عن معتقدهم بالأسلام او يؤخروهم عن التقدم الى اعتناقه لو كانت فيهم همّة دفّاعة اليه .

فقل يا محمّد فى جوابهم ان الصلاة عبادة للّه و اللّه سبحانه ليس فى جهة خاصة لكن حذرا من تذبذب المكلفين حين يختار كلّ انسان جهة برغبته خصصنا القبلة بجهة خاصّة لها احترامها الشرعى كبيت المقدس والكعبة و انّما عينّا القبلة الى بيت المقدس زمن ما قبل الهجرة وقليلا بعدها لنمتحن من آمن بمحمّد من العرب الذين كانوا يقدّسون الكعبه اكثر من غيرها ولم تكن لهم رابطة ببيت المقدس هل انّهم يقدمون التشريع على عادة اقوامهم وما الفوه لأنفسهم اولا فالمؤمن تابع والمشرك تعلّل بان بيت المقدس لليهود لا لنا .

و انما صرفناها بعد الهجرة عن بيت المقدس الى الكعبة لانّ مقام اليهود فى المدينة و ضواحيها كان اكثر من اىّ مكان آخر فكانوا يقولون انّ دينكم من ديننا فى جذوره فاتبعونا ولا تتبعوا محمّدا فى دينه ولا تنتظروا منّا اتباع دينكم ونحن الأصل فلما حولت القبلة الى الكعبة سكنت نامتّهم .

و المراد بالسفيه من أتاه رشده و اعطاه من يده تعمّدا و تقصّدا ارضاء لعاطفته و اهل الكتاب و المنافقون و المشركون شرع فى ذلك السفه الذى ابدوه من انفسهم ليدكّوا به الحقّ فيما يزعمون بأيجاد الغبرة عليه فى أنظار العوام ٠

و قوله تعالى يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ليس المنظور به التشهى فى الأرادة بل انه تعالى يساعد على الهداية من ارادها و يعرض عمّن يستغنى عنه مكتفيا بنفسه و معتزّا بذاته كمن اشرنا اليهم من اهل الكتاب و المنافقين و المشركين ٠

وامّا هداية اللّه للمؤمن فمعناها حضوره لقبول ما يتعبده المولى به فتاره ينكشف له معنى ما تعبدّه به كالعلة التى ذكرناها فى توجيه النبىّ اوّل مرة الى بيت المقدس و بعد الهجرة الى الكعبة و اخرى لا ينكشف له ذلك كجملة من شؤن العبادات، وفى الآية اللاحقة توضيحٌ مّا لمفاد هذه الآية ٠

* (وكذلك جعلناكم امّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا وماجعلنا القبلة التى كنت عليها الاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه و ان كانت لكبيرة الاّ على الذين هدى اللّه وما كان اللّه ليضيع ايمانكم انّ اللّه بالناس لرؤف رحيم) *

سبق فى ذيل الآية السالفة قوله تعالى يهدى من يشاء الى صراط مستقيم و معناه ان اللّه الذى ولىّ المسلمين عن قبلتهم التى كانوا عليها و هى بيت المقدس الى استقبال الكعبة كان ذلك منه هداية لهم الى صراط مستقيم بما يعلمه من المصلحة ، و الكاف فى وكذلك للتشبيه اى وكما هديناكم الى صراط مستقيم جعلناكم امّة وسطا بين الغلو كما عليه النصارى بالنسبة الى عقيدتهم فى المسيح وبين الأسفاف كما عليه اليهود من تعدّيهم على انبيائهم و تقصيرهم فى حقهم .

فدينكم ايّها المسلمون الذى جعلناه لكم و الزمناكم به دين لا غلوّ فيه ولا اسفاف فمعنى الجعل على هذا انكم لمّا اخترتم ماهو الحق وهو الأعتدال فى العقيدة ثبتّناكم عليه و أعنّاكم على مغالبة انفسكم .

نعم حصل الغلو و الأسفاف ياربّنا بعد ارتحال نبيّنا من بيننا فقد غلا فريق الغلاة فى حق علىّ و آله كما اسفّ فريق النواصب ولا شك ان كلا الفريقين فى مفازة عن الدين القويم و الأسلام الذى جاء به محمّد (ص) و ارتضته العقول السليمة .

و اذا كنتم امة وسطا بين الأفراط و التفريط فى كل اشيائكم كنتم مأمونين فكانت شهادتكم مقبولة حيث يشهد بعضكم على بعض او لبعض

فى الدنيا ام فى الآخرة و يكون رسولكم شهيدا عليكم يوم القيامة بما اطلع عليه من اعمالكم و وقف منه على روحياتكم ٠

وما شرّعنا القبلة التى كنت عليها وهى بيت المقدس حيث كنت فى مكة و استمرت معك الى مقاديم هجرتك الى المدينة الآ لنكشف ما غاب عنك وعن الناس من روحيات بعضهم لبعض و انّ ايّهم تتحكم فيه العصبية حتى تخرجه من حيّز الحق و ايّهم لا تتحكم فيه فان عرب الجزيرة ماكانوا يعرفون بيت المقدس الآ سماعا ولا يألفون غير الكعبة فكان تشريعنا لما لم يألف العرب بمثابة اختبار لهم فمعنى لنعلم لنبرز علمنا بهم لك ولهم لا معناه حصول العلم للّه سبحانه بالتجربة ٠

و اتباع الرسول هو المشى على ضوء شريعته سواء وافق اذواق المكلفين ام لم يوافقها فأن الأذواق لا ربط لها بالحقائق ، ومعنى انقلابه على عقبيه هو ميله للألتحاق بشرعك لولا ما ينكص به من دواعى تعصبه حين تستقبل بيت المقدس لا الكعبة فيحسب فيك تحيّزا عنه وعن محيطه وتقديما لغيره عليه و هذا مالا يهواه ٠

و اللّه سبحانه يعترف بأن توظيف الأستقبال الى بيت المقدس دون الكعبة ثقيل على هؤلاء الأقوام و انما فعله ليجرّدهم عن كل عاطفة سخيفة لا ترتبط بالمنطق فان الحق احق بالاتباع ٠

فضمير وان كانت لكبيرة يرجع الى التحويلة المتصيدة من السياق والمراد بالذين هداهم اللّه اولئك الذين جرّدوا انفسهم لعبوديّته فأفضل عليهم بتوجهه اليهم و نفس توجه المعبود للعبد هداية له و صرفه بوجهه عنه يكون سبب غواية ٠

وكان من صلّى من المسلمين شطرا من عمره الى بيت المقدس ثم حوّل به الى الكعبة بعد الهجرة تذهب به الظنون بالنسبة الى سالف

عمله فلم يدر انه مجز و محصّل للمثوبة ام انه ذهب ضياعا عليه وكذلك الحال فيمن مات وعمله كان الى بيت المقدس ولم يدرك التحويل الى الكعبة فكان الجواب عن هذه الظنون قوله وماكان الله ليضيع ايمانكم اى الاعمال الصادرة منكم على وفق الشريعة فى وقتها المحقّقة لايمانكم لان عمل الجوارح من محققات الايمان و امتثال المكلّف لوظيفة وقته يوجب الأجزاء ولو تبدلت بعد ذلك الحال من اضطرار الى اختيار و من تشريع الى تشريع ان الله بالناس لرؤف لا يعسف بهم رحيم يريد لهم اليسر لا العسر .

* (قد نرى تقلّب وجهك فى السماء فلنولينّك قبلة ترضاها
فول وجهك شطر المسجد الحرام و حيثما كنتم فولّوا
وجوهكم شطره وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه
الحقّ من ربّهم وما الله بغافل عمّا يعملون) *

قد سلف ان النبيّ (ص) كان مغموما اشد الغم من مقالة اليهود فى حقّه وانّه لو لم يعلم انّنا على الحق لما صلّى الى قبلتنا وفى ذلك فضلا عن التعيير و الأنتقاص تبليغ سوء منهم للجهلة الذين يقف كلّ شىء امام وجوههم ،ومن ناحية اخرى كان يرى ان رغبة اهل الحجاز ان حصل فى ايديهم هى التوجه الى الكعبة فكان (ص) راغبا فى ذلك اشدّ الرغبة و ان لم يبده لربّه جريا على ما جرى عليه جدّه ابراهيم الخليل حيث قال وهو فى وسط نار النمرود علمه بحالى يغنيه عن سؤلى.

نعم كان يقلّب طرفه و وجهه فى السماء انتظارا لنزول الوحى عليه بالتحويل فأجابه الله الى ذلك بقوله فلنولينّك قبلة ترضاها بحسب طبعك وان كنت بأيمانك الصلب بالمبدأ ترضى بكل ما يقرره الله لك

و يشرّعه فوجّه فى الصلاة مقاديم بدنك الى جهة المسجد الحرام والقبلة هى الكعبة للقريب والبعيد وانما ذكر المسجد هنا لأن البعيد المستقبل للحرم او للمسجد مستقبل للكعبة قطعا فان خروج خط منه بامتداد جهة الكعبة يصل الى الكعبة حتما ٠

ثم التفت الى عامة المكلفين فقال و حيثما كنتم من نقاط الأرض فولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام فان توليتكم وجوهكم الى جهته تولية الى جهة الكعبة بالأعتبار السالف وان اهل الكتاب الذين شهروا عليك — فيما يزعمون — نقطة ضعف بتحويل وجهك فى الصلاة عن بيت المقدس الى الكعبة وان هذا التحوّل ابداع من نفسك ليعلمون ان هذا التحوّل سماوىّ لا شهوى و انه ثابت عن الله لما قرأه اهل العلم منهم بصفتك فى تبشير كتبهم بك و انك تصلّى الى القبلتين وانّما ستروا علمهم عن الناس و طيّروا فى حقك هذه الاقاويل للحطّ منك ومن دينك وما الله بغافل عمّا يعملون و يكيدون لك ٠

و الآية مشعرة بأن العبد الذى يعتقد ان مولاه محيط به وانه لا تحيّز عنده ويريد الخير لعامة مخلوقاته يجب عليه ان لا يبدى منوياته التى يريدها برغبته البشرية الى ربّه لانه يعلم ان الله يعلم السّر وما تخفى الصدور و انّما امر العبد بالدعاء لتظهر عبوديته لله تعالى امام الناس كأمره بأظهار النعمة امام الناس ليظهر لهم شكره لربّه ٠

لكن ليس من لازم الدعاء الأجابة على طبق ميول الداعى لأنها قد تكون محفوفة بمحاذير فأن الأنسان لا يرى فى مقام رغبته الاّ نفسه و الله لا يفاوت بين انسان و آخر الاّ بمقدار ما يقتضى المنطق تفاوتا و الله يلحظ جميع ادوار هذا المسكين القاصر بنظره على حاضره فقط كما لا يعرف الاّ مصلحة دنياه و الله قد يلاحظ آخرته اكثر لانه تعالى

يراها احرى بالمزاعاة لكونها دار قرار له .

* (ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت اهوائهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين) *

ثم كشف سبحانه اتمّ كشف لنبيّه ان اهل الكتاب انّما يحملون نسبة فارغة الى كتاب الله و ليسوا هم من الكتاب ولا من ايّة حجة و برهان فى قليل ولا كثير لأن هدفهم الأنحياز و الأنتهاز و يرون انّ حياتهم لا تسلم لهم كما يرومون من اتباع الحق اذا قام فى وجوههم فأنت لو حاججتهم بكل دليل و نصبت لهم آية ما تبعوا قبلتك التى حولناك اليها وهى الكعبة لأنهم يرون فى استحبابتك خضوعا لك وان كان الحق معك و يرون فى بقائهم على ماهم عليه عزّا و منعة .

وما انت ايضا بتابع قبلتهم بعد نسخ الأولى بالثانية لا للحاجة فيك او حرص منك على مخالفتهم فأنك كنت تصلّى الى بيت المقدس عمرا طويلا لأمر ربّك لكن ذلك لمّا نسخ و كلّفت باستقبال الكعبة لم يكن باستطاعتك شرعا ان تتابعهم فى قبلتهم و لو انك رجوت منهم بهذه المتابعة استمالتهم اليك .

و اهل الكتاب فيما بينهم للأنحياز و الأنتهاز اللذين اشرنا اليهما قد خالف بعضهم بعضا فلا اليهود يستقبلون ما تستقبل النصارى ولا النصارى يصلّون الى ما يصلّى اليه اليهود لأن كلا منهما يرى ان استقباله الى ما يستقبله الآخر خضوع له و تبعية لدينه وهذا مالا يرضاه ولا يتفق مع مصلحته .

و لئن اتبعت اهوائهم اى نزلت على رغباتهم فى بعض الجهات استجلابا لهم من بعد ما جاءك من العلم السماوى بأنهم ليسوا بتابعيك على كل الفروض فانك حينئذ تكون من الظالمين لنفسك ، ولاشك انّ هذا الخطاب زجر للمسلمين عن موادّتهم لأهل الكتاب بعد ما علموا منهم تشدّدهم فى قبال الأسلام و نبيّه و المسلمين ٠

* (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابنائهم
و انّ فريقا منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون) *

محصول الآية ان اهل الكتاب من يهود و نصارى يعرفون محمّدا بالنبوّة لما جاء فى كتبهم و سمعوه من اهل طريقتهم جيلا بعد جيل و معرفتهم له بذلك بسيطة لهم لكثير ما تكرر على اسماعهم كمعرفتهم بأبنائهم فى البساطة وعدم الحاجة الى التأمل ٠

وان فريقا من هؤلاء العارفين بنبوّته الذين لا يشكّون فيها ليكتمون الحق فيتظاهرون بالتجاهل به وهم يعلمون انهم كاتمون للحق جاحدون له مكابرون لما ثبت فى نفوسهم و توفّر فى ضمائرهم ٠

و قيل ان ضمير يعرفونه يرجع الى تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة وان هذا الأمر موجود فى كتبهم وما يتناقلونه من علوم اسلافهم بأن نبىّ الاسلام من وصفه انه يصلّى الى بيت المقدس ثم يحولّه ربّه الى استقبال الكعبة ٠

او ان ضمير يعرفونه يرجع الى الكتاب نفسه يعنى ان الذين آتيناهم الكتاب بعنوانه قانونا سماويا يحدّد خطاهم و يعيّن مصائرهم فى الحياة يعرفونه ولا يجهلونه لأنه انزل اليهم وقام الانبياء و الأوصياء و العلماء بشرحه لهم فهم لتكررهم عليه لا ينكرونه كما يعرفون ابنائهم

ولا ينكرونهم لكن جملة من هؤلاء يكتمون حقائقه و يتظاهرون بما هو ليس منه تأمينا لمصالح وقتيّة تتنافى هى و الضمير كما تتنافى مع العهود التى اخذها اللّه منهم .

و بليّة التجاهل بالحق بلية كبيرة كثيرة الأنتشار بين الناس امّا لانانية تغلب عليهم او لطمع يترصدونه فى الباطل فيصرفهم عن الحق او لعصبيّة قومية اوعقائدية .

* (الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين) *

الحقّ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو و المنظور به هو الأشارة الى ما سبق فى الآية السالفة من المعنى فعلى التخريج الأول يكون معنى الآية انّ عرفانهم لك و انك نبى مرسل من ناحية اللّه هو الثابت فى الواقع وعندهم ايضا بطور واضح جلىّ كعرفانهم لأولادهم فى الوضوح فلا تكن يامحمّد من الشاكّين فى امرهم حين تجاهلوا بك فتحتمل فى نفسك انهم لم يتحققوا الى الان من نبوّتك .

وعلى التخريج الثانى يكون المعنى انّ معرفتهم بتحويل قبلتك من بيت المقدس الى الكعبة فيما وجدوه من نعوت نبوّتك فى كتبهم و تناقلوه عن اهل العلم منهم ثابتة لا مغمز فيها و ان تهويلهم عليك بالتنقل من قبلة الى قبلة اخرى تطيير للأوهام عليك اضعافا لجانبك المعنوى بين الناس ولا تظنّن انهم قالوا ذلك عن عدم علم كما يحتمل الواحد منّا فى فعل غيره كل احتمال حسبما تسوقه اوهامه و ظنونه .

وعلى التخريج الثالث يكون المعنى ان معرفتهم بكتابهم المنزل عليهم من طريق انبيائهم قطعية و وقوفهم على مافيه من حلال و حرام و صحيح و باطل واضح مكشوف لان انبيائهم وعلمائهم الربانيين لم

يهملوهم بل اقاموا عليهم الحجة فكلما تراه و تستنكره من افعالهم انما كان عن تعمّد لفعل الخطيئة لاعن غفلة وجهل فلا تكن من الممترين فتجادل فى حقّهم .

وفى الآية اشعار قوى بان اخبار اللّه عن شىء لاشك فى صحته لا لأن واجب الوجود يجب ان ينزّه عن كل نقص و شين بل لان ماهية الواجب قاضية بذلك بما هى ماهية من لازمها التجرد عن المادة وعن التأثر بالحوادث والأبتعاد عن كافة الميول لغنائها فى كل شىء فلا يظن بها ظن السوء و لعلمها الجازم المحيط حيث لا يتصور معه جهل او خلط بجهل ومثل هذه الماهية اذا اخبرت بخبر فقد اطلعت الواقع بنفسه .

كما ان فى الآية اشعارا ايضا بأن حسن الظن بالطرف حسن مادام ليس فيه اثر سوء و امّا اذا كان فيه ذلك فسوء الظن الذى معناه اخذ الحذر لازم لابدّ منه حذرا من الوقوع فى المشاكل غير المترقبة .

* (ولكلّ وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات اين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا انّ الله على كل شيء قدير) *

اى لكل امّة من اهل الديانات جهة و قبلة يولّون وجوههم اليها و مسير يتخذونه منهجا يطبقون عليه افعالهم فى ذلك حقا و باطلا لان من وظيفة الجميع متابعتهم للرسالة الحاضرة وهى رسالة الأسلام رسالة احقاق الحق و ابطال الباطل وهذه الرسالة لها قبلة واحدة و قانون واحد فمن وظيفتكم انتم ايّها المخاطبون بالقرآن ، و المخاطب به كل مكلف بلا استثناء ، ان تتسابقوا الى الخير الذى هو الأسلام و قبلته و منهجه ومن سعة الملاك تتسّع معانيه وهى كافة الخيرات و اعلموا انكم بالنسبة الى اعمالكم فى نشأة هذا العالم من خير وشرّ محاسبون يوم يأتى بكم الله الى المحشر ليحاسبكم على ما عملتم .

و قيل ان المعنى و لكل امة من امم العالم سواء كانوا فى شرق ام فى غرب فى شمال ام فى جنوب جهة يستقبلونها من جهات الكعبة و ذلك من الضرورى لهم وكل هذه الجهات حق فتسابقوا خيرات هذه الجهات وهى الصلاة كل لقبلته .

* (و من حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام
و انّه للحق من ربّك وما اللّه بغافل عمّا تعملون) *

محصول الآية انك عرفت ان الكعبة هى القبلة الثابتة لك فاعرف انه يلزمك استقبالها فى كل الحالات سفرا و حضرا وانما تعرض لحالة السفر لان الأنسان فى حضره متيسر له معرفة قبلته لأن اهل المحيط قد حققوها بطبيعة استمرار مكثهم فيه وحاجتهم اليها فى دينهم وامّا السفر فباعتبار انه يكون فى مفاوز و مجاهل فقد يظن المكلف انه معذور لو لم يحصل له استقبال و لكنّ اللّه لم يعذره و الزمه بالتحرّى مهما امكن .

فأينما تؤدى صلاتك او تعمل اىّ عمل مشروط فيه الاستقبال فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وان هذا الحكم وهو استقبال القبلة فى الأعمال المشروطة به هو التكليف الثابت المقرّر من ربّك وما اللّه بغافل عمّا تعملون من التكاليف التى لا يخلو امتثالها من تكلّف و مشقّة فهو لا يبخسكم حقوقكم ولا يتجاهل بأعمالكم .

و الأصرار على تحرّى القبلة فى حال انه بحسب الظاهر لا اهمّية فيه داعيه لَمُّ المكلفين على محور واحد وان لا ينشعثوا كلاّ وما يشتهى فان الأنسان اذا القى به الى اختيار نفسه فعل الغرائب و المتناقضات لذلك دائما يجب ان يكون الأنسان تحت قيمومة رشيد لا يعطى رشده من يده وهو النبىّ الذى يمثّل اللّه سبحانه و يستمد الروح منه .

مختصر من احكام القبلة حسبما هو المعروف عند الفقهاء: ما يستقبل هو المكان الذى وقع فيه البيت من تخوم الأرض الى عنان السماء لا خصوص البنية و يعتبر العلم بالمحاذاة مع الأمكان ومع عدمه يرجع الى

العلامات و الأمارات المفيدة للظن ومن الامارات شهادة عدليـــن و محراب صلّى فيه معصوم و قبر المعصوم و قبلة بلد المسلمين و قبورهـم و محاريبهم اذا لم يعلم بناؤها على الغلط ٠

و اذا فقد العلم بالقبلة او الظنّ بها صلّى الى اربع جهـات اذا تساوت فى الأحتمال و وسع الوقت و الاّ فبمقدار ما يسعه الوقت و يجب الأستقبال فى مواضع (١) الصلاة اليومية و توابعها بل كل صلاة واجبة و الأستقبال شرط فى صلاة النافلة مع الاستقرار لا فى حال المشـى او الركوب (٢) فى حال الاحتضار (٣) حال الصلاة على الميت (٤) وضعه حال الدفن (٥) عند الذبح و النحر ٠

و يحرم استقبال القبلة حال التخلّى بالبول او الغائط ، و يستحب الأستقبال حال الدعاء و حال قراءة القرآن وحال التعقيب بل حـال الجلوس مطلقا ، ولو اخلّ الانسان بالاستقبال عالما عامدا بطلت صلاته وان كان ذلك عن جهل او نسيان او غفلة او لخطأ فى العقيدة فـأن كان منحرفا الى ما بين اليمين و اليسار صحت صلاته ولو كان فى الأثناء مضى ما تقدّم و استقام فى الباقى وان كان منحرفا الى نفس اليميـن و اليسار او الى عكس القبلة فالاحوط الأعادة ٠

اذا ذبح او نحر الى غير القبلة عالما عامدا حرم المذبوح والمنحور وان كان ناسيا او جاهلا او لم يعرف جهة القبلة حلّ و كذا لو تعـذّر الأستقبال به لعصيان او وقوع فى بئر ، ولو ترك استقبال الميت و جـب نبشه مالم يتلاش او يوجب هتك حرمته ٠

* (و من حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام
و حيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس
عليكم حجة الاّ الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم
و اخشونى ولأتمّ نعمتى عليكم و لعلكم تهتدون) *

قوله ولأتمّ نعمتى عليكم و لعلكم تهتدون عطف على قوله لئلا يكون للناس عليكم حجة و صدر هذه الآية مكرّر الآية السابقة جئ به لتأكيد المفاد من ناحية ولأن يكون رصيدا لما يتعقبه من ناحية ثانية ،كانت الآية الأولى خاصة بالنبىّ لكون الخطاب معه وهذه الآية كما ذكرت النبىّ ذكرت المسلمين حيث قال تعالى و حيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ،ثم علّل سبحانه هذا التكرير و التأكيد بانكم لو صليتم الى بيت المقدس بعد هذا امّا عدولا عن الكعبة بالمرة و امّا تخييرا بين القبلتين لاحتمال انكم تظنّون ان تشريع الاستقبال الى الكعبة لاينافى بقاء بيت المقدس على ما كان عليه من كونه قبلة لكان فى ذلك محذوران الأول انه خلاف الواقع فليس بعد تعيين الكعبة قبلة موضوعية لبيت المقدس من حيث الاستقبال و الثانى ان مقالة اليهود وكل من هو نظير لهم فى بغضكم تصدّق فيكم حيث رموكم بأنكم فى استقبالكم اولا لبيت المقدس و رجوعكم عنه الى الكعبة مذبذبون تمشون على أهوائكم لاعلى وحى السماء فكيف مع هذا بكم لو عدلتم من الكعبة الى بيت المقدس اوصليّتم اليهما جميعا فان القائمة تقوم عليكم و يكون للناقدين عليكم حجة .

و معنى الاّ الذين ظلموا منهم اى من الناس ان غير الظالم منهم قد يكون فى قوله ما الذى صرفهم عن قبلتهم الأولى احتمال صحة بعدم

علمه فلمّا علم ان الحكم الشرعي فيها نسخ بالاستقبال الى الكعبة سكت لكن* الظالم من الناس والمنظور به المهرّج الذى هدفه اثارة الغبرة فهو على كل حال لا يهدأ عنكم بلسانه لأنّ هدفه الوقيعة فيكم لكنه اذا وجدكم تصلّون الى القبلتين معا او تتركون الأستقبال الى الكعبة بالمرّة بعد توجهكم اليها و تعودون لبيت المقدس مدّ لسانه بالوقيعة فيكم اكثر من اللازم لتوفّر الشبه لديه حينئذ عليكم اما اذا صمدتم و واصلتم استقبالكم للكعبة كما امرتم قصر لسان هؤلاء عنكم وانا اكفيكم امرهم فلا تخشوهم و اخشونى باطاعة امرى و متى استمررتم على هذا الحكم الناسخ اتمّ نعمتى عليكم بتثبيتكم على دينى وانالتكم كلّ خير و لأنكم اذا تابعتم خطى المولى فعملتم بأحكامه المنسوخ فى وقته و الناسخ فى وقته كنتم من المهتدين لأنّ اللّه انما يريد تثبيت مصالحكم ولا هدف وراء ذلك عنده .

وحصيلة البحث ان المكلّف من وظيفته امتثال ما يقوله ربّه سواء وافق ذلك رغبة الناس ام لم يوافقها فان صديق الحقيقة لا يجوز ان يخاف لانه غير خائن ولا يجوز للمؤمن ان يستوحش من انفراده وان ثقل عليه ذلك فان اخلاء الميدان امام الجهلة متلف لكل احد حتى للجاهل نفسه .

* (كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم
و يعلّمكم الكتاب و الحكمة و يعلّمكم ما لم تكونوا
تعلمون) *

الكاف التشبيهية هنا مفادها انّنى كما اتممت نعمتى عليكم و هديتكم الى جهة استقبالكم فى صلواتكم ارسلت فيكم رسولا من عناصركم ليكون لكم فخرا و ذخرا فانكم فيما سلف لكم كنتم تتكبرون عن اتباع الرسل يكونون من غيركم وهذا كان خطأ منكم لان مقام العلم و العالم بمعزل عن العنصريّات و لمّا تشرفت الأمم بانبياء منها شرفتكم بأرسال اعظم رسول منى اليكم و الى الناس كافّة هو من عنصركم فأنتم احق باتباعه و نصرته و الأخذ بشريعته و الأستماع لما يتلوه عليكم من آيات القرآن و التزكى بما يزكيكم به و التعلّم لعلوم الكتاب الذى انزل معه و بالأخرة تجدون منه معلّما للحقائق مبيّنا للدقائق لم تكونوا مسبوقين بمثله فأمسكوا عليه بكلتا يديكم و تمسكوا به فى كل اشيائكم .

و النعمة الواقعية هى نعمة التربية الصحيحة التى تنعدم فيها الرذائل وتحتشد الفضائل فانّ هذا الرصيد اذا حصل لذّت الحياة حتى بالحطام القليل واذا لم يحصل ساءت حتى مع توفّر المادة فأن المادة وحدها سبب للتزاحم و الأعتراك ولا حياة مع التزاحم والأعتراك وان غفل عن هذا السرّ عوام الناس و اذناب البشرية فالله تعالى اذا عبّر عن الهداية بأنها نعمة فهو تعبير فلسفى صحيح وان جهله الناس و رأوا ان النعمة معناها ما كانت قرينة جاه ومال ولم يجدوا ذلك متوفرا فى اتباع الرسل بل وجدوه فى الأعم الأغلب مقرونا بالأنحراف عن الفضيلة وفى ملابسة الرذيلة و لذلك انجرف اكثرهم الى هذه الطرق

و نبذوا تعاليم الله وراء ظهورهم ·

* (فاذكرونى اذكركم و اشكروا لى ولا تكفرون) *

و معناه اذكرونى ايها الناس بالطاعة اذكركم بالرحمة او اذكرونى بالدعاء اذكركم بالأجابة او اذكرونى و انتم احياء بالعبادة اذكركم وانتم اموات قد تقطع بكم كل سبب بما يعود عليكم بالكرامة او اذكرونى فى الرخاء اذكركم فى البلاء و اشكروا لى نعمى الوافرة التى تفضلت بها عليكم من غير سابقة استحقاق ولا تجحدوا نعمى و تكفروا بها فأن ذلك من ارذل الأعمال امام مولى منعم متفضل و الفاء فى قوله فاذكرونى بمنزلة تفريع على الآية السابقة التى ابان فيها نعمة ارسال رسول اليهم هو منهم ليرفعهم من حضيض الجهالات الى ارفع اوج فى الكمالات ··

* (ياايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة ان الله مع الصابرين ،ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات بل احياء و لكن لا تشعرون) *

مضى القول على الآية الأولى فانه سلف نظيرها وخلاصته انّه يلزم العاقل المؤمن ان يحبس نفسه عند الشدائد و المحن ولا يعطيها من يده فيجزع فان فى الجزع ضررا على البدن اكثر من تضرره بالصبر ومقاومة النفس مضافا الى انه يوجب خفة فى الانسان و اثارة لشماتة الشامتين به و الأستعانة بالصلاة على هضم المشكلات و تذويبها تعبدى ورد الاثر به وكون الله مع الصابرين انه فى عونهم و مساعدتهم و سبيل الله هو طريق خيراته و مبراته وما يفضى الى رضاه و رضوانه ·

و اصولا كل رغبة نفسية ولو كانت خيالا فان الانسان يوّد تحقيقها و كل ألم ولو كان وهميا يريد طرده عن نفسه فاذا جمح عليه ذاك وهذا اثار فى نفسه حراره متوقدة فاذا حبس ذلك فى باطنه كان كمن يغطّى الجمر بالرماد ولا شكّ انه يكون اقلّ حرارة و اذا ابداه الى الخارج و طاوع هيجانه كان كمن اشعل الجمر فتزيد شعلته و تتضاعف حرارته و اما الاستعانة بالصلاة فهى اشعار بما فى اذكارها من قول المصلّى ايّاك نعبد و ايّاك نستعين الرامى الى انّ الاستعانة حتى لو كانت بغير الله اذا لم يقدرها الله لا تنجع ولا تنجح فالعبد من لازمه ان يستعين بربّه اولا و يعتقد ان استعانته بغيره استعانة بسبب من اسباب الله ،ومعنى كون الله مع الصابرين ان الله مع كل عبد تكون امتحاناته مثبتة و الصبر على البلاء نتيجة مثبتة للامتحان بالبلاء ·

هذا وقد نهى الله قاطبة عباده ان يقولوا لمن يسفك دمه فى

سبيل الله و تزهق روحه فی هذا الطريق الشريف انه مات (لان الميت معناه الباطل الفاسد يقال تراب ميّت فيراد بهاانّه فاسد باطل لا يستفاد منه) بل هو حیّ بغدة عوامل (الاول) ذكره الحسن الذی يخلدّه علی حدّ ما قال ابن دريد :

و انما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن روى

و ای انسان اجدر ببقاء ذكره الحسن من انسان اعطی حياته المنقودة من يده احرازا لعظمه نفسه و حياة روحه فی صالح الفضيلة و تركيزها بين الناس (الثانی) ما رواه الشيخ فی التهذيب عن يونس بن ظبيان قال كنت عند ابی عبد الله عليه السلام جالسا فقال مايقول الناس فی ارواح المؤمنين قلت يقولون فی حواصل طيور خضر فی قناديل تحت العرش فقال ابوعبد الله سبحان الله ان المؤمن اكرم علی اللـه ان يجعل روحه فی حوصلة طائر أخضر يا يونس ان المؤمن اذا قبضه اللـه تعالی صيّر روحه فی قالب كقالبه فی الدنيا فيأكلون و يشربون فاذا قدم عليهم القادم عرفهم بتلك الصور التی كانوا عليها فی الدنيا وهذه الرواية تشير الی القوالب المثالية الواردة فی اخبار آخر كما يشير الوجه الثالث الی تجسّم الأعمال وان الفضيلة تتجسم لصاحبها كالرذيلة (الثالث) ان بدن القتيل فی سبيل الله وان تلاشی الآ ان روحه حيّة باقية وانما فقدت بالقتل اتصالها بالبدن الذی كانت مدبرة له والآفهی تتنعم بعد الانفصال بالنعم الروحية و تلتذ باللذّات المعنوية وان كان الأحياء فی هذه الدنيا لا يشعرون بمتعتها و لذّتها كما قال سبحانه و لكن لا تشعرون .

و بالنتيجة ان الدماء التی سفكت من الأنبياء و الاوصياء و الأحرار الصلحاء و العلماء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر البانيـــن

للفضيلة الهادمين للرذيلة هى التى حفظت هذه الكتلة الموجودة فى العالم الفاضل التى بها يتمثل الانسان ويراها عنوان شرف الأنسانية و مجد البشرية .

و ليس المنظور بالقتل فى الآية انه ازهاق الروح ولا غير بل كل شدة تتحمل فى سبيل الله فان نتيجتها اثر مثبت و تقييد القتل بكونه فى سبيل الله مشعر بان القتل الوارد على الانسان لانه تسلّق جدران الناس فقتل او انه قتل غيره فقتل به او انه آجر نفسه للحراسة مثلا فقتل او انه قتل عمدا او خطأ لا فى طريق جهاد ليس مشمولا للآية و حياة المقتول فى سبيل الله قائمة (١) بأثره الذى نجزّه بجهاده و(٢) بذكره الحسن و(٣) ببقاء روحه و(٤) بتجسم أعماله فى النشأتين .

* (و لنبلونكم بشىء من الخوف و الجوع و نقص من الأموال و الأنفس و الثمرات و بشّر الصابرين ، الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انّا للّه و انّا اليه راجعون ، اولئك عليهم صلوات من ربّهم و رحمة و اولئك هم المهتدون) *

ضمير الخطاب للناس كافة وان كان المؤمن اوثق من غيره بالله فيكون الأختبار به الصق ليصير مدعاة لأثابته اكثر ان سلّم امره الى الله كما هى شيمة المؤمنين و البلاء هو الاختبار كما اشرنا اليه و الخوف هو اضطراب النفس من الحادثة تواجه بها و يقال الجوع فى مقابل الشبع كما يقال الاعتدال لما بين النقص و الزيادة و الثمرة مال مخصوص و انما ذكر بعد الأموال لان للنفس فيه ميلا خاصا و نقص الانفس فناؤها بالموت و البشارة اوّل خبر سارّ و الصبر حبس النفس على جزع

كامن .

امر الله نبيه ان يبشر الصابرين من عباده الذين اذا دهمتهم داهمة واجهوها بالترجيع بأننا نحن و جميع ما يمتّ الينا ملك لله فله ان يتصرف به كيف يشاء و المالك اذا كان حكيما كانت جميع تصرفاته في املاكه مأمونة من السفه وهل اكثر حكمة من الله احد فتصرّف الله اذن بالأحياء و الاماتة و النقص و الزيادة تصرف حكيم وان لم ترضه النفس و ارادت غيره فان نفوس البشر في هواياتها كالأطفال في رغباتها و الطفل وان كان اعزّ ما يكون على والديه العاقلين الاّ انّهما يمنعانه من رغباته المضرّة به او التي تعقّم مستقبله .

و كما اننا ملك له راجعون اليه وقد وعدنا على لسان رسله ان يثيب المطيع منّا و يتفضّل عليه بما هو اهله – بماذا يبشّرهم هذا النبي – بأن يقول لهم ان الله يثني عليكم مادحا و يضيفكم برحمته منعما و انكم انتم المهتدون بهدى الله المثقفون بتثقيف الله .

روى الصادق عن آبائه عن النبيّ (ص) انّه قال اربع من كنّ فيه كتبه الله من اهل الجنة من كانت عصمته شهادة ان لا اله الاّ الله و من اذا انعم الله عليه نعمة قال الحمد لله ومن اذا اصاب ذنبا قال استغفر الله ومن اذا اصابته مصيبة قال انّا لله و انّا اليه راجعون .

ثمّ ان الاختبار ليس في جميع مظانّه يراد لكشف حقيقة الشخص للمختبر او للأغيار ولا للأصحار بها مع تحقق صاحبها منها بل نفس الأختبار قد يظهر من الأنسان اعمالا اذا توجّه لها صاحبها استغربها و تعجب من انطواء نفسه على مالم يكن يحتمل في حقّها وهو كثير الوقوع في الخارج فالاختبار محك قويّ لنخل الأنسان و كشفه و اذا كان عاقلا كان داعيا لتهذيبه و تأديبه .

* (انّ الصفا و المروة من شعائر الله فمن حجّ او اعتمر فلا جناح عليه ان يطّوف بهما ومن تطوّع خيرا فأن الله شاكر عليم) *

الصفا و المروة علمان لجبلين معروفين فى مكة و الشعائر جمع شعيرة هى المعالم جمع معلم و المشعر مثله و كلاهما بمعنى محلّ العبادة و الحجّ هو القصد فى اللغة وفى الشرع قصد مكة للقيام بمجموعة اعمال و ظّفها الشارع على من استطاع الى بيته سبيلا و العمرة هى الزيارة لغة وفى الشرع زيارة بيت الله الحرام لأيقاع اعمال خاصة و الجناح هو الذنب و الميل عن الحقّ و الطواف لغة هو الدوران وشرعا مخصوص بالدوران حول الكعبة و التطوع هو الفعل لا عن الزام .

و المنظور بالآية انّ جبلى الصفا و المروة من الاماكن التى جعلها الله سبحانه معالم لعباداته التى شرّعها لعباده و العبادة بين الصفا و المروة هو السعى فى الحج و العمرة فمن حجّ بيت الله وجوبا او استحبابا او اعتمر كذلك فلا جناح عليه ان يطوّف بهما و نفى الجناح معناه الجواز لا الوجوب فى حال ان الخاصة و اكثر العامة اتفقوا على لزوم السعى بين الصفا و المروة و انه ركن من اركان الحج و العمرة .

و الجواب عن ذلك فيما ورد به الأثر انّه كان على الصفا فى الجاهلية صنم يقال له اساف وعلى المروة صنم يقال له نائلة وكان المشركون اذا طافوا بهما مسحوهما فتحرّج المسلمون عن الطواف بهما لأجل الصنمين اللذين عليهما فأنزل الله هذه الآية ومعنى رفع الجناح حينئذ انه لا مانع يمنعكم ايّها المسلمون من السعى بين الصفا و المروة لمكان الصنمين المزبورين فالسعى وان كان واجبا فى ذاته

يصح فى حقه ان يقال لا مانع منه لأجل وجود الصنمين على الجبلين المذكورين فالوجوب لأصل العمل ورفع الجناح فى مقابل هذا التوهم ٠

وقد اطلق القرآن الطواف على السعى لأنه مثله فى عدد الأشواط ولانه فى الحقيقة دوران بين الصفا و المروة ومعنى من تطوّع خيرا انه اتى بسعى زائد على ماهو موظف عليه فان الله يشكره له ومعنى شكره له اثابته عليه كما انه سبحانه عالم بنيّات عباده خالصها وغير خالصها ٠

وقد يلخّص الكلام عن الجوهر فى فلسفة تشريع الحج و العمرة بعد الأشكال عليه بانه ما الفائدة من هذا السفر الشاق ومهما تسهلت الوسيلة ومن هذا الخرج الطائل ومهما كثر المال عند صاحبه ،ضمن نكات ٠

(۱) اراءة ان وحدة العقيدة فوق كل وحدة تتصور ففى مجتمع الموسم الوان الناس , اجناسهم و تشتت عناصرهم و لغاتهم بحيث لولا جامع العقيدة لما اعتنى بعض ببعض , لما دنا بعض من بعض و لما سلّم بعض على بعض و بالأخرة لما اجتمعوا على صعيد واحد ابد الدهر وهذه الوحدة اذا استخدمت فى نصرة الحقيقة انتجت اهمّ الانتاجات العالمية ٠

(۲) تبادل الابحاث العلمية و الآراء العقائدية و معرفة ماعليه كل قطر من رسم وعادة و خلق و بذلك يستطيع الانسان ان يطرد عن نفسه جهل ما كان عنده بعلم ما عند غيره و هكذا ٠

(۳) التجارة و الكسب وعون الواجد للفاقد اذ لا تمانع بين العبادة و المعامله فى هذا المجال ٠

(٤) عرض الاجتماع بكافة طبقاته فى معرض واحد امام العقيدة حيث لا امتياز لبعض على بعض تجسيما لأصل الخلقة والعدل الألهى

وانه يمكن تطبيقه بين الأمم اذا اعان الانسان شعوره على حبّه لذاته وحصل مخلص للحقيقة فى تحكيمها بين الناس ولا شكّ ان هذه الأهداف من اعلا و اغلا ما يتصور وان جهلها عوام الناس ولم يمشوا ورائها على رغم كثرة من بينّها لهم .

* (انّ الذين يكتمون ما انزلنا من البيّنات والهدى من بعدما بيّناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم اللّه و يلعنهم اللاعنون ،الآ الذين تابوا و اصلحوا و بيّنوا فاؤلئك اتوب عليهم وانا التوّاب الرحيم) *

الكتمان هو الاخفاء و البيّنات جمع بيّنة وهى الحجة الواضحة والهدى الهداية و الأرشاد و اللعن هو الطرد الموجب للازراء والأصلاح ازالة آثار الفساد و النقصان و التوّاب قابل التوبة و لو مرّة بعد مرّة اوقابل التوبة من الذنوب العظام والرحيم فاعل الرحمة عن تفضّل .

و محصول الآية ان كل عالم بما انزله اللّه من حجة واضحة و هداية موفية بالانسان على الواقع اذا كتمه عن غير العالمين و اخفاه اما حبّاً لبقاء الجاهل على جهله حتى يستفيد من جهله فان الجاهل مطيّة العالم الظالم و اما مما شاة لمن يريد ذلك منه برضخ رضيخة له و امّا كسلا وحبا للراحة و طلبا للعافية فى كل وقت، و تعليم الجهّال وهداية الضلاّل من اهمّ مواطن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ـ كان ذلك ـ طاردا له عن ساحة عزّ اللّه مبعدا له عن المؤمنين باللّه فلايكون منهم ولا عضوية له فى جوامعهم الآ الذى ينخذل بنفسه اولا و يرجع الى امتثال الوظيفة و يتدارك ما فرط منه و يبيّن ما اخفاه فان اللّه يقبل

توبته و يعفو عمّا سلف منه برحمته تفضلا ٠

و محصول البحث ان الانسان بما هو انسان يجب عليه اذا وجد الصلاحيات متفتحة امامه ان يهذّب نفسه بما هذّب الله به انبيائه و خاصته وان يستثمر ما علم لا ان يحتكره و استثمار علمه بذله لأهله و تبيينه توضيحه لهم فان الناس اذا علموا اعتدلوا و اذا جهلوا صدرت منهم الموبقات العظائم فهلكوا و اهلكوا و احتكاره لعلمه لا يكون الآ عن داع مرموز وقد بينّا دواعي اخفائه و احتكاره آنفا ٠

* (انّ الذين كفروا وماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنة
الله و الملائكة و الناس اجمعين ، خالدين فيها
لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) *

الكفر كما سبق مرارا هو الجحد و انما ينعكس للكافر مفهوم سيء في الأذهان لواحد من امرين اما للجهل بالخالق تقصيرا و بحكمه التجاهل به واما لأنكاره مع تجليه واما الذي يجهله قصورا لنشوئه في بيئة لا تعرف ذلك و تقطّع الاسباب به فهذا معذور من ناحية الله ولا مؤاخذة عليه ٠

ثم ايّ واحد من القسمين الأولين تراجع عن كفره قبل موته وتاب الى الله نرى الله يعلن بقبول توبته و لذلك قال تعالى ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فقيّد جواز لعن الكافر او الحكم عليه باللعن بموته على الكفر ولم يرتّب عليه اللعن مطلقا و قوله تعالى اولئك عليهم لعنة الله هو حكم منه على نفسه وعلى ملائكته وعلى كائناته بلعن الكافر سواء لعنه احد من المكلفين ام لم يلعنه و الخلود هو الدوام و الاستمرار ٠

و قوله لا يخفف عنهم العذاب يراد به ان طول مكثهم في النار

لا يكون سببا لتخفيف العذاب عنهم كما هو معمول ان الشدة في العقاب انما تكون في اول الامر ثم بعد ذلك تتراخى ، و قوله ولا هم ينظرون معناه انه لا امهال في دار الجزاء و انما الأمهال في دار العمل وهي هذه النشأة وحتى ان المكلف لو اظهر التوبة هناك لم تقبل منه بل وحتى لو اظهرها وقد بطلت فيه وسائل حياته و صار بحكم الميت ٠

* (والاهكم اله واحد لا اله الآ هو الرحمن الرحيم) *

يريد ان خالقكم الذى ابدعكم و اوجدكم و العلة الاولى القائمة بجميع العلل التى بها تتسببون خالق واحد لا متكثر لان جميع ما عداه مصنوع معلول وهذا الخالق المبدع القابض على ازمة الكون مع هذه العظمة الخارقة القاهرة لكل عظمة تفرض مثال عال للرأفة و الرحمة و العطف و اللطف فى حال ان من ينوش اقل مكانة فى هذا العالم تراه قاسيا فظا لا تلوكه الذائقة الانسانية الا و تلفظه لسماجته وتفاهته و روى فى سبب نزول هذه الآية ان كفار قريش قالوا يامحمد صف لنا ربك فانزل الله هذه الآية ٠

و حصيلتها بعبارة اوضح ان منابع الاستفادة القريبة من الانسان كثيرة جدا كأبويه و الكريم المتفضل عليه و الوجيه الذى يبذل جاهه فى سبيله و الطبيب الذى يخدمه و يواظب على معالجته و الحاكم الذى يدفع عنه بقدرته او يوجه الضرر اليه بقوته و هكذا كل سبب للمنع و الاعطاء و الضرر و النفع ٠

لكن هذه المنابع مآلها لله سبحانه بدليل انها تثمر احيانا وتعقم احيانا فلا بد وان يكون وراء هذا السبب يد فعالة تجعل هذا السبب ظاهريا ربطا للاسباب بمسبباتها فى المجارى الكونية و الآثار الواقعية

منوطة بالغيب فان الانسان يرى نفسه امام انسان هشا بشا و امام آخر منقبضا متلويا من دون ان يكون فى البين دافع او زاجر و يرى الطبيب مع شدة اهتمامه ببعض مرضاه تعقم فعاليته و ببعض آخر تنجح لا لتصلب العلة فى الاول ولا لبساطتها فى الثانى وانما هو امر خفى خارج عن مجرى الطبيعة وهو ورائها و ذلك هو الله مسبب الاسباب وعلة العلل فالاله واحد وهو خالق الاكوان باسرها وكل ما تنزل عنه وان ارتبطت به المباشرة فانه سبب قشرى من ناحية و جذرى من ثانية اما جذريته فأن ما اوتيه من سلطان فهو ملكه فاذا بذل ملكه عن طيب نفس استحق المحمدة لطيب نفسه واماقشريته فباعتبار ان ماعنده آت اليه من غيره وهو الله سبحانه فالمالك الحقيقى هو الله تعالى .

* (انّ فى خلق السموات و الارض و اختلاف الليل
و النهار و الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع
الناس وما انزل اللّه من السماء من ماء فاحيى به
الارض بعد موتها و بثّ فيها من كل دابّة
و تصريف الرياح و السحاب المسخّر بين السماء
و الارض لآيات لقوم يعقلون) *

خلق السموات و الارض ابداعها و اختلاف الليل و النهار وقوع احدهما خلفة للآخر و الفلك السفن تقع على الواحد و الجمع و احياء الأرض ابراز نشاطها الطبيعى الكامن فيها وموتها بقاء تلك النشاطات فى كوامنها و البث هو النشر و الدابّة كل ما دبّ على الأرض و تصريف الرياح بعثها اما من شرق او غرب شمال او جنوب و السحاب هو البخار المتكدس فى الافق .

و محصول الآية الاستدلال على وجود الصانع بهذه الآثار و هى ان السماوات بما فيها من شموس لا تعدّ و اقمار لا تحصى و منظومات لا تستقصى و مجرات عظيمه و اجواء واسعه و الارض بما عليها وما فى بطونها ممّا راته عين البشرية ومالم تره لحد الآن و بروز الظلام على صفحة الكرة المحجوبة عن الشمس و الضياء على الصفحة المواجهة لها و السفن التى تمخر فى مادة يسهل السير فيها قريبا من سهولته على الطائرة فى الهواء و تقطع الفجاج العظام التى لا يتيسر قطعها الّا من طريق الماء هذه المادة السيالة المرنة اللطيفة التى لا تعاوق و انزال المياه العظيمة الصافية الحلوة من الجوّ على الارض لتبعث قواها الكامنة فيها للعمل و نشر انواع الحيوان التى لا تحصى اساميها فضلا

عن خواصّها و توجيه الرياح من جانب إلى جانب لقيامها بالاعمال الجبارة التى بها حياة الانسان و الحيوان و النبات و بعث السحاب الحامل لبحار من المياه المعلّق بلا ماسك له فى الجوّ سوى قدرة اعظم المقتدرين للهطول حتى ينمو الزرع و يمتلأ الضرع و تدّخر الارض اوفره و اكثره و تسخوبه شيئا فشيئا من طريق الينابيع و العيون التى تشكل الانهار و البحار ·

ولا شك ان كل واحد من هذه الآثار له اهمية عظمى لا يستطيع الباحث تحليلها الا فى ازمان طويلة و ذلك بمقدار مافهمه منها، وما ستر عليه فلا حدّ له ،نعم هذه الآثار علامات لاناس مقبلين على التفهم مريدين للمعرفة متطلعين للعلم واما هذه الكثرات التى تمر بهذه الآيات مرور غافل اومتغافل جاهل محب لجهله او متجاهل فليس لها من العبره بها اقل اثر و لذلك قال سبحانه لآيات لقوم يعقلون وهذه الآية تفصيل لقوله قبلها و الاهكم اله ··· الخ ·

* (ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونّهم كحبّ الله و الذين آمنوا اشدّ حبا للّه ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب انّ القوّة للّه جميعا وانّ اللّه شديد العقاب) *

الانداد الأشباه و النظائر وهذه الآية لا يستفاد منها الكفر المحض وهو انكار اللّه رأسا لان الاعتراف بأن شيئا ندّ لشيء آخر من لازمه الأعتراف بموجود مشبّه به والاّ لبطل معنى المماثلة فعلى هذا ليس المنظور بما دون اللّه هو حذفه من عقائدهم بل معناه شوب العقيدة و خلطها بأن يعبد الانسان مع اللّه موجودا آخر يراه منشأ اثر فى نفسه مجردا كان ام ماديا انسانا كان ام حيوانا ام غيرهما ٠

و هؤلاء المشركون يهوون هؤلاء الانداد و يرغبون اليهم كما يهوون اللّه و يرغبون اليه امّا الذين اخلصوا عقائدهم فى اللّه ورأوه انه فوق كل شيء فوقية ليست من طراز الفاضل و المفضول بل من طراز العلة و المعلول وان كل مافى المعلول من قوّة وقدرة ليست منه و ليس له فى ذاته منها شيء فهم يحبّون اللّه لتقدم معرفتهم به اشدّ واكثر من محبة اولئك المشركين له ٠

ثمّ هدّد سبحانه المشركين الذين عبّر عنهم بالظلم لأنهم ظلموا انفسهم باتخاذ الانداد للّه بانهم يرون من العذاب وعدم المانع منه او الذّاب عنه ما يصيّرهم معتقدين جازمين بان القوّة للّه جميعا وان لاقوّة لغيره كائنا من كان و هكذا يحصل لهم اليقين بأن اللّه سبحانه بعد الأمهال و الأرخاء فى هذه النشأة شديد العذاب فى النشأة الثانية ، و جواب ولو يرى الذين ظلموا ٠٠٠ الخ لحصل لهم من

الندامة مالا يستغرق بوصف ٠

والشرك بأجماله قد يتصور فى ثلاث صور :

(١) شرك المشركين القدامى الذين كانوا يعتقدون ان ما دون الله عناصر تفعل الفعل مستقيما و مباشرة من دون ان يكون للربّ معها شركة فى ذلك الفعل من كوكب و انسان و حيوان و نبات الى غير ذلك ولا شك ان هذه الانظار خاطئة لدرجة بعيدة جاهلة منتهى الجهل بخالق العالم و بما دونه ٠

(٢) شرك الغلاة فى النصارى بالمسيح و امّه و الغلاة فى الاسلام بعلّى اوغيره فان هؤلاء مع اعتقادهم ان الله خالق للمسيح وامه ولعلى وغيره يرونهم ذوى سيطرة على الوجود و تصريفه وان الوجود منقاد لهم كانقياد المادة الصمّاء ليد مصرّفها ولا شك ان هؤلاء جهلاء لان الممكن ليس له من نفسه شىء الاّ ما اعطته العلة اذن فالعلة هى المصدر دون ما سواها كائنا من كان ٠

(٣) التوسل بالذوات المحترمة عند الخالق فيقول الداعى الهى بحق فلان عليك الاّ ما سهلّت لى هذا العسير وهذا المعنى لا ضرر فيه اصلا لا من حيث المنطق العلمى ولا من جهة الاثر الشرعى وان وقفت الوهابيّة امامه وقفتها امام الفريقين الأولين ٠

* (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا و رأوا
العذاب و تقطّعت بهم الأسباب، وقال الذين
اتبعوا لو انّ لنا كرّة فنتبرأ منهم كما تبرّؤا منّا
كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم وما هم
بخارجين من النار) *

اذ ظرف زمان متعلق امّا بقوله ولو يرى الذين ظلموا حينما تبرأ منهم من كان مغويا لهم عن اخلاص العقيدة لله او بما قدرناه من جواب لو بقولنا لحصل لهم من الندامة مالا يستغرق بوصف .

و تبرء المتبوعين من تابعيهم تارة يصدق صدقا حقيقيا فيما لو كان المتبوع من الموجودات القابلة للاغواء كشياطين الجن و الانس و اخرى صدقا تقديريا فيما لو كان حجارة او نظيرها من الموجودات غير القابلة للأغواء .

و الضمير الجمعي فى رأوا العذاب يرجع للتابع بطور مطلق و للمتبوع فيما لو كان مغويا مضّلا واقعا تحت قلم التكليف و هكذا تقطّع الاسباب و الارتباطات يصدق فى الطرفين على فرض كون المتبوع من الموجودات المتصرفة و ينحصر بالتابع فيما سوى ذلك وحين يرى التابعون براءة المتبوعين منهم و اعراضهم عنهم و يذوقون من جراء هذه التبعية كل الم وعذاب يقولون متمنين ان كانت الأماني تنفع احدا لو انّ لنا كرّة الى الدنيا و رجعة الى نشأتها و حينذاك و بعد ما فقهنا الواقع نتبرأ منهم كما تبرؤا منّا و بهذا التصوير المجسم يريهم الله اعمالهم التى سلفت منهم و التى ودّوا عملها اليوم و لكنها فاتت منهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ولو ان الندامات ملأت شراشر

وجودهم اذ لا اثر للندامة يومذاك ٠

* (يا ايها الناس كلوا ممّا فى الأرض حلالا طيّبا ولا تتّبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، انّما يامركم بالسوء و الفحشاء وان تقولوا على اللّه مالا تعلمون) *

الحلال انما سمىّ بذلك لحل عقدة الحظر و الطيب هو الموافق للذوق و الطبع بحيث يستطيبانه و الخطوات جمع خطوة وهى المسافة بين القدمين حالة المشىء و المبين هو المظهر لعداوته غير الكاتم لها و السوء هو كلّما يسوء صاحبه باعتبار عواقبه و الفحشاء هى الاعمال القبيحة المتجاوزة عن حدود ما يعرفه المتشرعة او العرف العاقل و القول على اللّه اوعلى غيره هو التقوّل و الآية الاولى تفيد حلية المأكولات المقبولة للطبع الاّ ما اخرجته نصوص الأدلة الخاصة فالأصل فى الاشياء الحلية ولوّح بقوله تعالى ولا تتبعوا خطوات الشيطان الى المحرّم من المآكل وغيرها و اتباع خطى الشيطان وغيره ترسّم آثاره و المشى على منهجه و منهج الشيطان كل عمل انحرافى تعرّض له الشرع او ادركه العقل و انما وصف اللّه الشيطان بالعداوة الظاهرة استدلالا على زائد خبثه بحيث لا يستطيع كتمانه ٠٠

ثم ابان تعالى بقوله انما يأمركم بالسوء الى آخره نموذجا من ترسّم خطوات الشيطان ففعل السوء و ارتكاب الفحشاء و التقوّل على اللّه تحريما و تحليلا بما لم يقل اندفاعات شيطانيّة تكشف عنها العقول اذ الرصيد الوحيد لدسائس الشيطان هو العقل ٠

و تقدير الآية تلخيصا يا ايها الناس بدون استثناء كلوا حلالا طيبا

ممّا او دعناه فى الارض من قوى تستخدمونها للأنماء ففى الأصل كل شىء حلال اكله الاّ المستخبث فانه غير مطبوع ذاتا و اخراجه تخصص لا تخصيص ولا يجوز لكم استخدام الحلال فى طريق الحرام فأن ذلك من الخيانة كمن ينعم عليك بمال لأنعاشك نتصرفه فى موجبات تلفك او فى ضد هذا المنعم و اتباع خطوات الشيطان هذا معناه لا لأن اللّه يبغض الشيطان لعداء بينهما فهو يحرّم عليكم اتباعه تشفيا منه وحطّا من قدره فان الشيطان ان يكن له عداء فهو معكم بأشدّ صوره و لذلك لا يستطيع التستّر به و ليس مع الشيطان الاّ كل مسير خاطىء ورأى فاسد فأنه يأمركم بما لاتحمد عقباه ·

* (و اذا قيل لهم اتّبعوا ما انزل الله قالوا بل نتّبع
ما الفينا عليه آباءنا او لو كان آباؤهم لا يعقلون
شيئا ولا يهتدون) *

الفينا و وجدنا سواء قيل في شأن نزول الآية ان النبيّ دعا اليهود الى الاسلام فقالوا بل نبقى على ماكان عليه آباؤنا فأنهم كانوا اعلم منّا و قيل انّها نزلت في كفار قريش و محصول الآية ان الداعي للأسلام و اعتناقه لا يدعو انسانا الاّ و ذهنه مشغول برأي او عقيدة و اخلاء ذهنه ممّا كان شاغلا و تعويضه بشيء جديد فيه ثقل على الفاعل و القابل فأن القابل مأنوس ذهنه بما ورد عليه سواء كان عن ارث من اسلافه ام من طريق آخر و مستغرب مستوحش من هذا الطارء الجديد على فرض ارتضائه به منطقا .

وبمقدار صعوبة المعالجة يثقل تزريق الدعوة من الفاعل ويحتاج الى رياضة قوّية و منطق رزين بسيط مثل ما جاء في هذه الآية فأن اتباع الأب الجاهل و البيئة الفاقدة للمعرفة الغارقة في الضلالة امر تأباه العقول و تردّه ولا تقبله فقوله او لو كان آباؤهم استفهام انكاري شديد .

و هذه الآية بعد مقارنتها بالسابقة الدالة على انّ الله سبحانه ما ضيق على الانسان واسعا بل نهاه عن تحريم الحلال على نفسه بتطرقه للمفاسد المضرّة تشعر بلزوم اتباع الله الموسع للأنسان المرشد له الى مافيه سعادته وصلاحه وانه اولى واجدر من اتباع الجهلة الذين لا يعرفون سوى الحظّ من كرامتهم و كرامة من استغووه ولا فرق في الجاهل بين ان يكون أبا او محيطا او نفسا فأن نتيجة الجهل واحدة وهي الاتلاف لكل ما يقع في طريقه .

* (و مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الاّ دعاء و نداء صمّ بكم عمى فهم لا يعقلون) *

النعاق و النعيق كالنعيب هو تصويت الغراب فى الأصل وقد يطلق على تصويت الراعى و تريد الآية ان تبيّن ان دعاء نبىّ الاسلام للكافرين فى نبذهم لجهلهم و اعتناقهم هذا الدين القويم الثرىّ بالمعارف الراقية كمن يصيح بموجودات لا تسمع من صيحته الاّ اصواتا لا تفهم معناها ولا تشخص ما اريد بها فكما انّ دعاء هذا الداعى للحيوانات العجم فاقد للأثر كذلك دعاء النبىّ للكفرة فاقد للأثر و ان كان الفارق بين الطرفين عظيما جدّا فان الحيوان الأعجم لا يتوقع منه الفهم لقصور فى خاقته لكن الكافر انسان قابل لأن يفهم كل شىء بالتفهم مضافا الى انّ الحيوان الأعجم يجيب داعيه بما عوّده عليه ولا يتفلّت عن اجابته بالمرة و الكافر المتعنّت لا يحصل منه توجه اصلا ٠

فكلمة (ما) فى قوله تعالى بما لا يسمع اسم موصول لغير العاقل و نتيجة لعدم انقياد الكفرة لدعوة النبىّ بعد بسط الحجة لهم واقامة البيّنة عليهم يثبت لهم على تفتح احداقهم و انطلاق السنتهم و صحة اسماعهم انّهم عمى لأنهم لما تحسّسوا من الحق و شاهدوه اعرضوا عنه فكأنهم لم يروه كالعميان بالمرّة و انّهم بكم لأنّهم لم تنطلق السنتهم بما وعوه و انّهم صم لأنهم لم تبد عليهم آثار السماع ٠

ولا بد من تقييد الذين كفروا بكونهم مصرّين على الكفر معاندين و طبعا ان المعاند لا تنفعه حجة لانه ليس بصددها حتى ينتفع بها و كافة المنحرفين عن الايمان من اهل الأفهام لأجوّن معاندون لا انّهم لا يفهمون فان البشر و مهما يكن بطيئا فى فهمه قابل للتفهيم ونتيجة

التفهيم الأيمان بلا ريب ٠

* (يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم
واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون) *

نعيم العالم قد بسطه الله لكافة عباده من عبده ومن تمرّد عليه وانما خصّ الخطاب بالمؤمنين لانهم يعودون بعد الأيمان فى قبال المتمردين الصق به واقرب اليه فيكونون بنعمته احقّ ويكون المتمرد عليه كالمتطفل على المائدة غير المدّعو اليها وطيبات الرزق ماتستذوقه الشهوة وغير الطيب لم يخلقه عبثا اذ ليس المراد به انه خبيث لا يستفاد منه بل ولا يستفيد منه الأنسان لخاصه نفسه ويستفيد منه الحيوان وغيره ٠

وامرهم بالشكر على هذه النعمة لا لغرض يعود اليه لان شكرهم له لا يزيده عظمة وسكوتهم عن شكره لايخمل له ذكرا وانما ذكر ذلك ليهذّبهم ويقيم لهم شخصية متزنة ويشعر قوله تعالى ان كنتم اياه تعبدون ان المتنعم بنعم الله غير الشاكر له بمنزلة من لا يعبده ولا ايمان له به ولا ريب ان من يتنعم بنعمة الغير ولا يتحدث عنها فهو جاحد لها متمرد على باذلها ٠

* (انّما حرّم عليكم الميتة و الدم و لحم الخنزير وما
اهلّ به لغير الله فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا
اثم عليه ان الله غفور رحيم) *

هذه الآية فيها جنبة استثناء و استدراك بالنسبة الى الآيـــة الاولى وان كانت بعد الامعان فى ظهورها تحذف ما ذكر فى هـــذه الآية لأنّ طيّبات الرزق لا تشمل الميتة لانها مستقذرة ولا الدم عنـــد الكثيرين وان كان القلائل يستطيبونه ومثله القول فى لحم الخنزير و امّا ما اهلّ لغير الله به فليست فيه اقل قذارة لأنه مذكى و منتخب مـــن الحيوانات اذ لا يقرّب انسان الاّ احسن ما يستطيع تقديمه فجنبـــة القذارة فيه تعبّدية وقد يكون منشؤها خبث الغاية وقذارتها وهـــى الشرك بالله او الألحاد به رأسا .

وعلى كل حال فالميتة فى لسان الشرع هى كلّ حيوان زهقـــت روحه بدون ذكاته الشرعية المربوطة به و يكون مع ذلك من مأكول اللحم شرعا اذا اريد تناوله ، و الآية تشعر بالدم عموما لكن السنة خصّصته بما يكون من ذوات الأنفس السائلة و امّا فيما لا نفس له فكذلـــك الاّ ان يكون من مأكول اللحم كالسمك وكان فى ضمن لحمه كالمتخلف فـــى الذبيحة اذا كان فى اطباق اللحم ، و المنظور بلحم الخنزير كلّـــه الخنزير لا انّ ما سوى لحمه حلال .

و الذى اهلّ به لغير الله هو الذى سمىّ على ذبحه اسم غير الله كائنا ما كان ذلك الغير وان كان محل الاشارة به ما سمىّ عليه اســـم الصنم او المعبودات الأخر او لم يسمّ عليه غير الله لكنه لم يسمّ عليه اسم الله تعمّدا .

ثم ابان سبحانه الحكم الثانوي لهذه المسألة فقال فمن اضطر لشدة جوعه بحيث لا يجد ماسكا لرمقه الاّ تناول بعض هذه المحرّمات كان التناول السادّ للرمق حلالا له فاذا بغى و اكل فوق حاجته فالزائد حرام او انّه تعدى الأضطرار الى الاختيار فأكل من هذه المحرمات وهو يجد عنها مندوحة ٠

و قيل اريد بالباغى الخارج على الأمام الشرعى و العادى اللص القاطع للطريق المتعدّى بذلك على الناس وعلى كل حال فالمضطر بالوصف لا اثم عليه ٠

* (انّ الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب و يشترون به ثمنا قليلا اولئك ما يأكلون فى بطونهم الاّ النار ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم و لهم عذاب اليم) *

المنظور بهؤلاء اهل الكتاب قطعا سواء اليهود منهم و النصارى وان كان مورد النزول ما روى ان جماعة من علماء اليهود اخذوا يكتمون الوصف الذى يعرفونه لنبىّ الاسلام عن الناس حين ظهر هذا النبى الأعظم خشية على زوال شخصيّتهم و استقلالهم وما يستغلونه من من جماعاتهم باعتبارهم رؤساء دين فقال سبحانه فى شأن هؤلاء وكل من يكون على شاكلتهم ممّن يتعمّد الضلالة لنفسه و الأضلال لغيره ان الذين يسترون ما يعرفونه عن الله فى كتبه و ألسنة رسله و يستفيدون من طريق هذا الكتمان ثمنا قليلا وهو الترّفه فى هذه الحياة اولئك ما يأكلون فى بطونهم ٠٠٠ الخ ولو نسبت هذه الحياة للحياة الأخروية لما كانت شيئا لانقطاع الدنيا و دوام الآخرة و اختلاط نعيم

الدنيا بالآلام و الأسقام و خلوص نعيم الآخرة من كل شائبة ٠

و انما قال سبحانه ما يأكلون في بطونهم الاّ النار ليبيّـــن ان ما يأكلونه و ان كان طعاما شهيا بالفعل الاّ انه ينتج لهم التعذّب بالنار القارّه المستمرّة و معنى لا يكلمهم اللّه يوم القيامة انه يعـــرض عنهم غضبا عليهم و انشمارا عنهم كما انه لا يثنى عليهم بما يوجب لهـم التطهير وعفة الضمير كما يثنى على العبد المؤمن الحر الصريح ولهـم مع اعراض اللّه عنهم وعدم ثنائه عليهم عذاب مزعج لشدّة ايلامه ٠

و ليس المنظور بذلك عالم الآخرة وحده بل كلّما يقال فى الآخـرة فأن له انعكاسا فى عالم الدنيا فان انعكاس عدم تكلم اللّه معهم فـى الدنيا اعراض كل حرّعنهم لوقوفه على دغل بواطنهم و انعكاس عـــدم التزكية لهم مدّ الألسنة في قدحهم و انعكاس العذاب الأليم لهـم تأثر ضمائرهم من تلّويهم على الحقيقة فأن الأنحراف عنها انحراف عـن فطرة الضمير ٠

و بالنتيجة كتمان ایّ علم يستفيد منه النوع او الأخ النوعى فيـــه خساسات ٠

(۱) انّه سدّ لباب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و ســـد هذين البابين مصيبة ترد على كل احد بلا استثناء ٠

(۲) انه بخل لافائدة معه فأن الباخل بالمال قد يوجّه نفســه بانه انما بخل ليفيد نفسه و اولاده لكن الباخل بالعلم ليس كذلــك اذ البخل بالعلم تنقيص له بل اتلاف فان العلم انّما تتفتح ابوابه بفتـح باب تعليمه و مبادلة الآراء فيه ٠

(۳) ان العالم اذا انفرد بتهذيب نفسه (لو امكنه ذلك ما بين مجتمع جاهل كله) لا يظهر له فضل ولا لتهذيب نفسه اثر فان الفضل

اذا لم تكثر اتباعه لا يعرفه احد لان الجاهل بالشئ لا يعرف قيمة الشئ ·

لا يقال ان الآية تعرضت للكتمان يكون بأزاء مال وهو هدف يتوخّاه طلاب المادة متداول بين ناس الدنيا فأين مكان الذّم قلنا فيه مكانان (الاول) الجنوح للباطل و الأعراض عن الحق (والثانى) ان العالم المحق اذا نشط فى ميدانه حصل من الدنيا اكثر ممّا يحصله المادّى مضافا الى احترام الناس له ·

* (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى و العذاب بالمغفرة فما اصبرهم على النار) *

اسم الاشارة راجع الى ماسلف من قوله ان الذين يكتمون ومعنى اشتروا الضلالة بالهدى انهم استبدلوا اسوأ استبدال فأعطوا الحق وهو علمهم بالواقع و اعتاضوا عنه بالضلالة وهى تدليس الواقع فى قبال نفع متوهم و انّه على فرض حصوله منقطع قليل و المراد من استبدال العذاب بالمغفرة ان اظهارهم للحق و نشرهم لما انزل اللّه على الناس من موجبات المغفرة عند اللّه وهذا اعطوه من ايديهم لكتمانهم ما انزل اللّه على الناس و الذى اخذوا مكانه ما يوجبه كتمان الحق و ستر الواقع على الطالبين له وهو العذاب ·

ثم اظهر سبحانه مزيد التعجب من هؤلاء الذين ترد على اسماعهم تهديدات اللّه بالعذاب الأليم على امثال هذه المخالفات ومع ذلك لا ينزجرون ولا يتراجعون ولازم ذلك فيهم اعتقادهم الجازم بأنفسهم انها سوف تبدى اتمّ الصبر و المقاومة امام توقّد النار والتهابها عليهم، ويجوز ان يكون معنى فما اصبرهم على النار هو

الأستفهام المسوق بدافع الأستنكار بتقدير ایّ شیٔ صیّرهم صابرين على مقاومة النار و معالجتها ــ لكنّه لا شیٔ يصيّرهم كذلك ــ ٠

و استنكار الله سبحانه وكل كامل على المنحرفين فى مكانه و له حظه من الصواب و لكن من المؤسف ان هؤلاء المنحرفين قد دمغوا عقولهم دمغة واحدة و رأوا ان الحياة انّما تدرج على جادة البقاء اذا كانت باللون الذى هم عليه من التلون بلون الوقت ولو اقتضى منهم ان يتلونوا فى اليوم الف مرّة ، فهم وان اعترفوا بالمنطق لأنهم لا يستطيعون جحده لكنهم انما يعترفون به عقيدة لا عملا ولا تنجح العقيدة اذا كان العمل مخالفا لها ، هذا موقفهم من ناحية اصل المنطق ٠

و امّا موقفهم من ناحية الجزاء امّا الأخروى منه فلأنهم يرونه بعيدا على فرض عدم تشككهم به و امّا الدنيوى فأنهم يوطنّون انفسهم على الاصاخة له لا لداعى معقول سوى الحيونة كمن يشتهر بأنه لص هجام فانك تراه يقدم نفسه للمنايا حرصا على هذه السمعة التى يلتذّ بها كما يلتذ العابد الزاهد بعبادته و زهده و هذه الظاهرة فى الكثيرين لا تعلل بمنطق موزون سوى الحيونة كما اسلفنا ٠

* (ذلك بأنّ اللّه نزّل الكتاب بالحق و ان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد) *

اسم الاشارة المصدرة به الآية راجع لمضمون الآية السالفة بمعنى اننا انما حكمنا عليهم بانهم استبدلوا الضلالة فجعلوها ثمنا بالهدى وجعلوه ثمنا و اعتاضوا العذاب بالمغفرة و حكم عليهم بالعذاب الأليم الذى يثير التعجب ممّن هدد به و مع ذلك ارتكبه لأن اللّه نزّل الكتاب الذى عند اليهود و الذى عند النصارى بل وكل كتب السماء كذلـك بالحق فليس فيه تحيّز ولا تدليس و انما هو بيان لعين الواقع وجـاء هؤلاء الانتهازيون فحرّفوه و اولّوه على خلاف ما انزل و كتموا حقائقه عن الناس و بالأخرة عبثوا ما شاؤا بكرامة الحق و المحق .

ثم انه سبحانه قال ويا ليتهم اتحدّوا على باطلهم بل اخذ كـل فريق منهم يرمى صاحبه بالموهنات و كلّ يفسّر الكتاب على مقتضى رغبتـه وهذا هو الظاهر ممّا عنى من قوله و انّ الذين اختلفوا بينهم فـى تأويل الكتاب و تفسيره لفى شقاق بعيد بمعنى ان انشقاقهـم و اختلافهم فى تأويله و تفسيره فى غاية البعد وعدم التلاقى وهـذا ايضا من دواعى انحرافهم و تحيّزهم و انجرافهم مع الأهواء النفسية .

و الآية مصحرة بلزوم التمسك بالواقع و الواقعيين لان الرشـاد و السداد معهما (اولا) وقلة تحصيلهما على الانسان الطالب لهمـا (ثانيا) فان الرموز و الانتهازات لمديد توسعها ؟ انجراف النـاس معها قللّت من وجود الواقعيين ،ومن سيماء المرمزين اتحادهم علـى النفع المؤقت و اختلافهم مع ادنى بادرة تكون فى البين بخـلاف الواقعيين فانهم لا يختلفون اماترى انبياء اللّه و اوصيائه و العلمـاء

المثاليين لمّا كانت دعوتهم لخاصة الحق مازالوا متفقين على هذه الدعوة منذ اقدم عصرر البشرية الى مالا نهاية له من مديد ايام البشر على وجه الكرة .

* (ليس البرّان تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وآتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكوة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) *

البرّ هو فعل الأحسان واللطف يقال برّ بى اذا احسن والطف وتولية الوجه توجيهه وقبل بكسر القاف وفتح الباء هو الناحية والأتياء الأيطال وذووا القربى الارحام واليتيم فاقد الأب مع وصف عدم البلوغ فاذا بلغ ارتفع يتمه والمساكين جمع مسكين وهو الذى يسكن الى الناس يريهم ذلّته وحاجته وابن السبيل هو المحتاج فى السفر فقط والسائل هو الذى يمدّ كفه مستعطيا مستجديا والرقاب جمع رقبة كناية عن العبد لان رقابهم كالمشدودة بالحبال فى قبال تصرف مواليهم فيهم واقام الصلاه روجّها وصيّر لها سوقا والزكوة هى الصدقات المفروضة والوفاء بالعهد انجازه والصبر حبس النفس على جزع كامن والبأساء الفقر والضراء المرض والبأس الشدّة ويراد بها هنا الحرب فى مقام الجهاد او الدفاع .

وهذه الآية بمنزلة استدراك لما سبق من التأكيد في امر الصلاة في آيات عديدات بمثل البيان التالي وهو ان الصلاة على عظم قدرها في نظر الله والدين الاسلامي بحيث كانت هي الطليعة في شعارات الأسلام ولوافته وانها هي الناهية عن الفحشاء والمنكر وانّ المسلم بها يستعين على قضاء مهماته ليست هي الملاك الوحيد للبرّ وفعل الخير .

نعم هي طليعة كل ذلك لخفّة مؤنتها على المكلّف بأنّها تتأتى من كل احد اذ لا تحتاج الى قدرة بدنية ومالية بل هي تصحّ وتتأتى حتى من العجزة ابدانا ومالا ولذلك كانت تكليفا عاما وبلا شرط لكنها لا تستطيع ان تقوم بمهمّات الأجتماع من ضرورة عون القويّ للضعيف واخذه بيده ومساعدة الغنيّ للفقير والقيام بشؤن المصلحة العامة من مدرسة تبنى وقنطرة تشاد ووضع موهق يدفع بالجاه اوالمادّة اوالمتاعب البدنية وعدوّ يردّ ومرض يعالج وجهل يرفع ونظير ذلك ممّا به قوام الأجتماع ومعنى ذلك انه لا يجوز للمقتدرين ابدانا وجاها ومالا ان يكتفوا من الخيرات بفعل الصلاة بل اذا استلزم فعل الصلاة المندوبة تأخرهم عن المساعدات الأخرى التي لا يجبر فوتها استحال ندبها عليهم الى كراهة في حقّهم ويبقى الباقون العاجزون عن المساعدات المادية قائمين بشؤن هذه العبادات ومصحرين بها .

فقوله تعالى ليس البرّ ان تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ليس معناه ان الصلاة لا برّ معها بالمرّة ولكن معناه ان البرّ ليس منحصرا بذلك ولكن البرّ قبل كل شيء برّ الايمان بالله وبالمعاد عليه والتصديق بما اخبر به من وجود الملائكة وما انزل من الكتب وارسل

من الانبياء و هذا كله رصيد للعقيدة و الاحجار التى تبنى على ذلك الصلاة و اتياء المال الى آخر ماذكره تعالى .

ثم ان الضمير فى حبّه يجوز فيه الأرجاع الى المال كما يجوز فيه الأرجاع الى الله و انما ذكر القربى مع ان الفقر الذى يتلبسون به ملاك عام لأنّهم اخص الناس بالأنسان و توجههم اليه اكثر و اليتيم عرفت معناه ويساويه فى الملاك من لا كافل له ولا حانى عليه كما عرفت معنى الرقاب و يشمل بملاكه كل رقبة رهنتها الحوادث فجاء المحسن فخلّصها .

و يظهر من ذكر الزكوة مستقلا انها لا ربط لها بالأنفاقات الآنفة و ان تلك يأتى بها البار احتسابا كما انّ من الأبرار من يفى بعهده اذا عاهد و لم يدلس فى عهده بأن يجعله فخّا يصيد به اهل الصفاء و هكذا الصابر على البلاء بارّ بنفسه سواء كان من ناحية ضيق فى المعيشة او ضرر فى البدن او صمود فى جهاد العدوّ و دفاعه اولئك الذين صدقوا فى ايمانهم و لم تكن دعواهم له دعوى مجردة و اولئك هم المتقون لله الذين لا يتركون مظنّة يؤمنون بها رضا الله الاّ أتوا اليها و قاموا بواجبها .

و الآية من حيث التركيب تكون بهذا الترتيب ليس توجيهكم لوجوهكم الى ناحية المشرق (لمن كان المشرق قبلة له لوقوع الكعبة فيه بالنسبه اليه) او المغرب (لمن كانت هذه الجهة قبلة له بالملاك الآنف) هو كل البرّ والاحسان و اللطف بل هناك مبرّات و الطاف كثيرة لها تركزّها فى الأيمان و محلّها من الاسلام و مكانتها عند اللّه و نصيبها من الفضل و الأجر .

فكلمة البرّ فى صدر الآية خبر ليس و مسبوك ان المصدرية

و مدخولها اسمها و لكنّ الاستدراكية نصبت كلمة البرّ اسما لها وخبرها الواقعي محذوف تقديره برّ من آمن لان اسماء الأعيان لا تكون اخبارا عن المعاني فحذف المضاف و اقيم المضاف اليه ـ وهو اسم الموصول ـ مقامه فصار هو الخبر فعلا ٠

و آتى المال و اقام الصلاة و آتى الزكوة عطف على قوله آمن بالله و الموفون عطف على اسم الموصول الذى قام مقام الخبر المحذوف بتقدير و لكنّ البرّ برّ الموفين بعهدهم فلما حذف المضاف اقيم المضاف اليه مقامه فاكتسب حكمه وهو الرفع ـ و امّا الصابرين ـ فانه منصوب على المدح اظهارا لعظيم مقامه باختلافه اعرابا عمّا عطف عليه و له في الأدب العربي اشباه ومنه قول الشاعر الجاهلي :

لا يبعدن قومي الذين هم سمّ العداة و آفة الجزر
النازلين بكل معترك والطيبين معاقد الأزر

فأن النازلين صفة لقومي وهو فاعل بالفعل الذى قبله فكان من اللازم ان يقول النازلون بكل معترك و انما عدل الى النصب ليشعر بأن لهذا التابع خصوصية هي ان قومه خوّاضون للمنايا لا كسائر الأقوام و انهم طاهروا الأعراض فلا يمسّون ما ليس لهم بحلال ٠

و يظهر من قوله تعالى اولئك الذين صدقوا و اولئك هم المتقون ان الصدق في الايمان و التقوى معا منحصر بالقيام بالأعمال السالفة جميعا لا بفعل بعضها و اهمال البعض الآخر ومع هذا الأعتبار لا تعود الآية تنطبق الا على قلائل من المؤمنين و المتقين منهم اهل العصمة ٠

* (ياايّها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى
الحرّ بالحرّ و العبد بالعبد و الأنثى بالأنثى
فمن عفى له من اخيه شئ فاتباع بالمعروف واداء
اليه باحسان ذلك تخفيف من ربّكم ورحمة فمن
اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم) *

كتب عليكم بمعنى فرض و قنّن و القصاص مأخوذ من قصّ الأثر وهو المشي على حذوه او من القصّة وهى اعادة ذكر الشئ كما تحقّق وقع و القتلى جمع قتيل وهو من ازهقت روحه بعمل اوقع عليه لاحتف انفه و الحرّ غير المملوك و يقابله العبد و الأنثى فى مقابل الذكر و الأعتداء هو التجاوز و هذه الآية تعرضّت لحكم القصاص فى القتل لافى الأعضاء و الجراحات و ستأتى حكمة تشريع القصاص فى آية لاحقة كما يأتى بيان حكم القصاص فى الأعضاء و الجروح .

و المنظور من القصاص فى القتل ان القاتل المتعمد يجوز لولىّ المقتول ان يقتله بقتيله جزاء وفاقا و امّا القاتل الخاطئ و شبه المتعمد فلا قود عليه بل فى ذلك الديّة لتعذر القصاص فى حقّه لأنّ من لازم القصاص المماثلة فى العمل و المقتصّ باقصاصه قاصد عامد فى حال ان القاتل فى الخطأ و شبه العمد لم يكن قاصدا ولا عامدا فلا تكافوء فلا قصاص ، هذا و انما لم نقيّد القاتل العامد بكون قتله بغير حق لأن القتل العمدى بحق كالحاصل فى مقام الدفاع و نظيره خارج بالبديهة اذلا يتصور احد فيه جواز القصاص .

و يظهر من الآية ان التكافوء انما هو بين الحرّ و الحرّ والعبد و العبد و الأنثى و الأنثى فلا تكافوء بين الحر و العبد ولا بين الانثى

والذكر كما هو مقرر فى الفقه ،والسرّ فى ذلك ان العبد بالمـــلاك الذى سوّغ استرقاقه وهو كفره حتى وضعت اليد عليه فى حرب العقيدة نزلت درجته عن درجة الحرّ فلم يكافئه فلا يقتل به وانما يعطى الدية عنه بعد ضربه ضربا شديدا كما جاء فى الأثرعن الصادق عليه السلام ·

واما الأنثى فلأنها دون الرجل فى الطبيعة وان ماثلته فـــى العنوان العام للأنسان وقد شرحنا الفوارق بينهما فى بحوث اخرى فهى اذن لا تكافوءه فلا يقتل بها وعليه الدية ،وفى الفقه الأسلامـــى تفاصيل عن القصاص لا مجال للتعرض لها هنا لخروجها عن حوصلة هذا الموضوع فى مثل هذا التفسير ·

ومعنى قوله تعالى فمن عفى له من اخيه شىء ان القاتـــل اذا وقع مورد عفو من ناحية ولىّ المقتول وهو المراد من كلمة اخيه فـــأن القاتل وان كان جانيا عظيما لكنّه لا يخرج بذلك عن عنوان الأخــوّة النوعية بالنسبة الى من قتل والى اوليائه فلا شىء عليه بعد العفـــو سوى ما يلزمه الشرع به من التكفير لكن هذا المفاد لا يؤخذ من منطوق الآية لان فيه عبارة (عفى له شىء) وانما يؤخذ من مفهومها لأن الآية تصرح بأن الأمر بيد ولىّ المقتول فهو الذى يجوز له ان يقتص كما يجوز له ان يعفو وكلمه شىء انّما جىء بها كناية عن اختيار الولىّ فـــى انتقاله من القصاص الى الدية فان نفس استحقاق القصاص شـــىء والعفو عنه بالأنتقال الى اخذ الدية شىء آخر كما ان الولى بعـــد انتقاله الى الدية اذا عفى عن شىء منها فقد عفى عن شىء من حقــه او انّ الولىّ مدّد فى الأمهال او فى توزيع الأقساط فكل ذلك يصدق عليه انه شىء قد عفى عنه من ناحية ولىّ الدم ·

اذن فالواجب على من عفى له عن شىء ان يتّبع ماقرر عليــــه

بالمعروف اى بالوفاء طبق الشرط ولا ينخذل عن تطبيقه او يعالج فيه الوليّ و يسيء معه المعاملة بعد أن أحسن اليه بالعفو عن دمه اوعن بعض الدية اوعن بعض شؤنها المقررة فى الشريعة بل يؤدى اليه ما عليه بأحسان والأحسان هو اظهار التشكر لتطيب نفس وليّ المقتول ·

و قوله تعالى ذلك تخفيف من ربّكم و رحمة معناه انّ جعل اختيار الدم بيد وليّه ان شاء عفى و ان شاء اخذ الدية كاملة اومنقوصة و ان شاء اقتصّ تخفيف من اللّه اذ يجوز له تعالى ان يحكم بالقصاص فقط ولا يجيز لوليّ الدم الانحراف عنه فأن افعال المكلفين مرتهنة بالشريعة و ليست اليهم و بعد ابراز هذه المنّة هدّد سبحانه كل من يعاود جناية القتل ليستفيد سوء من هذا التخفيف بأنّ له عذابا عظيما وراء ما يتعلق به من احكام الشرع ·

* (ولكم فى القصاص حياة يا اولى الألباب لعلّكم تتّقون) *

هذه الآية هى التى اشرنا اليها انها تشعر بحكمة القصاص الذى تعرّضت الآية الآنفة لبعض أحكامه و مفاد الآية دفع ايهام من يتوهم ان القتل بأية صورة اذا حصل فقد ازهق روحا و تجويز القصاص معناه ازهاق روح ثانية امّا اذا حكم على القاتل بضرب غير مبرّح او بسجن غير متلف او بأداء جريمة وغرامة فقد جوزى على اجرامه و لم يردف ازهاق روح المقتول بأزهاق روح اخرى هذا منطق جملة من الناس فى هذا الباب .

و البارى سبحانه ردّ عليهم بما هو واضح مكشوف عند اعارة النظر و اعادته فى هذا الموضوع و ذلك ان الأنسان اذا تحقق لديه انه يقتل اذا تعدّى على انسان فقتله منعه هذا الخاطر عن ان يمدّ يده الى هذا العمل الاّ اذا كان جازعا من حياته بالمرّة و مثل هذا من الندرة بمكان .

امّا اذا علم انّه آمن من القتل فأنه يقدم بلا تردد لأنّ الذى يعزم على القتل لا يتحاشى من بذل الدرهم او دخوله السجن ،واذا اقدم مرّة اقدم ورائها مرّات فتستشرى الجنايات و تكثر الجناه ، اذا فاستحضار القصاص حين الأقدام على القتل وازع منه فيسلم من يريد القتل ومن يراد قتله .

و هذا هو الحياة وهو معنى قوله لعلّكم تتّقون اى تخافون ارتكاب القتل لما يتعقبه قصاص ولىّ المقتول للقاتل ،ومن امثال العرب القتل انفى للقتل وقد قارن علماء البيان بين مقالتهم هذه و بين الآية

الحاضرة (فى القصاص حياة) مقارنة لفظية و معنوية و اثبتوا الترجيح للآية بمرجحات ملخصها ان قوله تعالى (فى القصاص حياة) اقل حروفا من قولهم القتل انفى للقتل فان حروف الآية مع تنوينها احد عشر حرفا و كلمتهم الآنفة اربعة عشر حرفا . و الآية نصّ على المطلوب وهو الحياة دون كلمتهم فان معنى الحياة فيها ضمنيّ و تنكير حياة فى الآيه يدلّ على التعظيم لمنع القصاص ايّاهم عمّا كانوا عليه من قتل جماعة بواحد فحصل من طريق الحكم بالقصاص حياة عظيمة ولان مفاد الآية بما قصد منها مطرد دائما اذ القصاص على كل احواله سبب للحياة بخلاف كلمتهم فانه قد يكون القتل انفى للقتل اذا كان على وجه القصاص وقد يكون ادعى للقتل اذا كان على وجه الظلم - الى غير ذلك - .

* (كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا
الوصية للوالدين و الأقربين بالمعروف حقا
على المتّقين) *

كتب بمعنى قنّن و فرض و الخير هو المال المعتدّ به عند العرف و المتقون هم الذين يراعون ذممهم و ينساقون مع ضمائرهم الطاهرة وحقا مصدر بمعنى اسم الفاعل اى ثابتا منصوب على الحالية بمعنى ان ما كتبناه عليكم ثابت حسنه فى العقول مرغوب اليه بحكم العواطف الصحيحة و مفاد الآية بحسب ظاهرها ان من اللازم على الأنسان المتمكن بما يقال فى حقه انه ذو حال مستقيمة وعنده فوق الكفاف اذا لاحت له امارات الموت من صعود سنّ او مرض مجحف ان يوصى من ماله لوالديه و اقاربه بالمعروف يعنى بما لا يجحف بحال الورثة الباقين كما لا يقال انه اوصى لوالديه و اقاربه بشىء تافه لا وزن له فأن هؤلاء لهم انتظار عند قريبهم هذا فاذا ضنّ عليهم وهو حىّ صحيح لطول الأمل ففى ساعة الاحتضار تبطل هذه الاحتمالات منه و يكون من الجدير ان يذكرهم فعلا حيث اغفلهم سابقا .

لكنه قيل ان هذه الآية منسوخة بآية الأرث الآتية فأن الوالدين من ورّاث الطبقة الأولى فهم وارثون على كل حال مالم يكن هناك مانع من الأرث كالرقّ و الكفر و القتل على ان الآية مصروفه عن هذه التقادير بنفس سياقها و الأقارب قد يكونون وارثين ايضا حسب مساعدة الموازين الشرعية عليهم بما يجىء تفصيله فى تفسير آيات الأرث ومع هذا فلا مجال للوصية لهم .

و الحقّ انها ليست بمنسوخة اذ لا تنافى بين مفادها و مفاد

آيات الأرث الآ على القول بانه لا وصيّة لوارث وهو ضعيف غايته انه يجب تقييد الوصية لهؤلاء وارثين كانوا ام لا بما لا يزيد على الثلث اذا لم يرض الوارث و امّا مع رضاه فلا اشكال ٠

وقد روى الامامية عن ابى جعفر الباقر عليه السلام انه سئل هل تجوز الوصية للوارث فقال نعم و تلا هذه الآية ،وروى عن علىّ عليه السلام انه قال من لم يوص عند موته لذوى قرابته ممّن لا يرث فقد ختم عمله بمعصية و المنظور بالمعصية هنا الكراهة الشديدة للأجماع على ان هذه الوصية ليست بفرض بل هى مندوبة و لفظ كتب هنا كالاوامر الاستحبابية الكثيرة الواردة فى الشريعة ٠

ومحصول الآية ان الأنسان اذا لاحت له لوائح ارتحاله عن هذا الوجود الى عالم ثانوى ليس من سنخ هذا العالم بكل اشيائه يجب عليه ان يتلافى كل مافاته او قصّر فيه فلعلّ هذا التلافى يسدّ له ثغرة تعينه على ما يستقبل فمن جملة ذلك خروجه من حقوق الناس بكل صورة ممكنة و تداركه لما يمكن تداركه من حقوق الله ومن جملة ذلك ما تضمنته الآية ٠

* (فمن بدّله بعد ما سمعه فأنّما اثمه على الذيــن يبدّلونه انّ اللّه سميع عليم) *

التبديل هو التعويض بحذف الشيء و اقامة بدله مكانه ،فى هذه الآية هدّد اللّه سبحانه الموصى اليه بأنه يجب عليه ان يجرى الوصيــة كما اراد منها الموصى فاذا بدّل مورد الوصية جريا مع رغبته بأن قــال الموصى اعط زيدا كذا فادعى الموصى اليه انّه اوصى لعمرو او اعط زيدا الف درهم مثلا فادّعى الوصى انه قال الفان او خمسماءة مثلا و نظيــر ذلك من التغييرات فأنّما اثم هذا التبديل على من بدّل لا علــى الموصى نعم من وظيفته ان يختار لوصيته الأمين العفيف حتى يخــرج من مسئولية الوصية اللازمة عليه انّ اللّه سميع ما يقوله الموصى وما يدّعيه تزويرا الموصى اليه عليم بالحقيقة .

و ضمير بدّله المذكر يرجع لما يتصيّد من المقام وهو مورد الوصية ..

و اصولا وحى السماء تحمّل العلم تفويض العمل ايداع الأعــراض و الحيثيات و الأموال وما بين هذه المراتب من كل أمر يقيم فيــه الأنسان انسانا آخر مقامه كل ذلك أمانات يجب على كل انسان مؤتمن ان يقوم بأقصى حدود الأمكان فى الحفظ و الضبط و لهذا اشترط فى حامل الوحى العصمة لأن خطره عظيم وفى الأمانات الاخر الوثاقــة لأنها اقل خطرا ولو نظر الأنسان نظرا صادقا فى اطراف الوجــود و جنباته لوجد كل انسان مطوقا بأمانات بينه و بين اهله و بينه و بين المجتمع فى كل شيء من اشياء الحياة ومن هنا ابان اللّه تعالى خطر الأمانة حيث قال انّا عرضنا الأمانه على السموات و الأرض فأبيــن ان يحملنها و حملها الأنسان انه كان ظلوما جهولا و ذلك لانه تحمّــل

مالم يقم بلازمه من الحفظ و الأئتمان ٠

* (فمن خاف من موص جنفا او اثما فأصلح بينهم فلا اثم عليه أنّ اللّه غفور رحيم) *

الجنف هو الجور و الهدف من هذه الآية انّ على حضّار المحتضر او الموصى الذى يسرد وصيّته على من احبّ ان يوصى اليه ان يلفتوا نظره الى ما فيه حيف او خلاف شرع كأن يوصى بتفضيل بعض اولاده على بعض حيث لا مزيّة لمن يريد تفضيله فهذا حيف وقد يجرّ الى فتنة فيلفت نظره الى ذلك او انّه يوصى بحرمان بعض ولده من الأرث فينبّه الى انّ ذلك لا يمضى له وهو خلاف الشرع و نظير امثال هذه القضايا ممّا هو خلاف الأولى او خلاف دساتير الدين ٠

فالذى ينبّه الموصى الى امثال هذه النكات يعتبر مصلحا بين المورّث و الوارث فكان ينبغى ان يعبّر عنه بأنّه مثاب مأجور لا انّه لا اثم عليه لكنّ الذى اوجب العدول الى هذا التعبير ان الآية السابقة عبّرت عن مبدّل الوصية بأنه آثم و هذا الأصلاح قد يصدق عليه عنوان التبديل لانه تغيير لوصيّة الموصى و ادارة له من لون كان يريده الى لون اشير عليه به فيكون المدير له من الآثمين لكنّ الآية التى نحن بصددها اخرجته من ملاك الأثم و لم تتعرض لملاك اثابته و مأجوريته لكنّ القواعد العامّة لذلك تدخله فى عداد من يثاب و يؤجر لأنه مصلح آمر بمعروف دالّ على هدى ؛

و المغفرة و الرحمة هنا بقوله انّ اللّه رحيم معناها انه تعالى غفور لذلك الموصى الذى اراد جنفا وما يوجب اثما لكنه انساق الى الطريقة بألفات المصلحين لنظره رحيم له لانه هدى الى طريق الحق

فاهتدى و مثل هذا المكلّف محل للمغفرة و الرحمة .

و ملاك الآية يشير الى أن كل انسان اذا حضر مناسبة و رأى فيها خلاف حق وجب عليه ان ينطق بالحق بما يجعل له مساغا فى الحضور ففى مقام اللين لين و فى مقام الشدّة شدّة بسرد الدلائل و اقامه الحجج و نصب الشواهد فأن ذلك نوع من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ولا يجوز له السكوت الآ اذا لم يجد له مجالا و قول الأنسان و ما انا و ذا تكثير للجهل و افشاء للفساد و العامية بين الناس و متى فشا الفساد عمّ او توسعت العامية انتشر الجهل .

* (ياايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتّقون :ايّاما معدودات فمن كان منكم مريضا اوعلى سفر فعدّة من ايام اخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوّع خيرا فهو خير له و ان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون) *

الصوم من اشرف الطاعات و افضل القربات و لو لم يكن فيه الآ الأرتفاع عن حضيض النفس البهيمية الى ذروة الروحانية لكفى به منقبة وقد ورد فيه من الآثار الشئ الكثير وهو احد الاركان الخمسة التى بنى عليها الأسلام و انّه جنّة من النار و كلّ اعمال بنى آدم قدّر لها ثواب من عشر امثالها الى سبعمأة ضعف الآ الصبر الذى هو الصوم فأنّه للّه لانه امر خفى لا يمكن الاطلاع عليه لغيره تعالى فهو يجازى عليه بما هو مخزون فى علمه و فى الصوم الصادق تصفية للعقل و اماتة للشهوة و فيه معرفة فضل اللّه بما انعم من انواع النعم والتوجه الى

ما عليه الفقراء البؤساء •

كتب بمعنى فرض و قرّر و قنّن و الصيام هو الأمساك و السكون كما قال الشاعر

ولقد تجوب بى الفلاة اذا صام النهار و قالت العفر

هذا فى اللغة ،و فى الشرع امساك عن المفطرات المخصوصة مع النيّة فى الزمان المخصوص ما بين طلوع الفجر الى غروبها من مكلفين مخصوصين كأن لا يكون المكلّف حائضا ولا نفساء ولا مسافرا يجب عليه قصر الصلاة ولا مريضا يضرّه الصوم الى غير ذلك ممّا هو مقرّر فى محلّه و الطاقة القدرة و الفدية هنا الكفارة و التطوع هو التنفّل •

المراد بالذين آمنوا هنا المسلمون و ان كان التكليف واردا على كل مكلّف آمن بالله ام لم يؤمن و تخصيصهم بالخطاب لانهم متوجهون له غير معرضين عنه كشحا و معنى كما كتب على الذين من قبلكم ان هذه الفريضة التى يحسبها جملة من الناس فريضة شاقة ليست مرتجلة فيكم او انها لا سابقة لها عند من تقدمكم من الأمم بل هى متقدمة منذ اول ازمنة التشريع فالكاف التشبيهية لأصل الوجوب فى القدر المتيقن و امّا الكم و الكيف و الزمان فيجوز ان تختلف حسب المصالح التى يراها المكلّف، لعلكم تتقون ،من طريق الصوم ارتكاب المعاصى و تهتدون و لو من طريق هذا التكليف الى جملة من الفضائل •

ولا شكّ ان الصوم مقلل من القوّة و بذلك تنكسر الشهوة و تسكن العرامة النفسية و يقل هياج الهائج و يستحضر المقتدر من طريق جوع الصوم وعطشه و خفوت الملابس له ما يعانيه البؤساء فى الحياة فهناك يكون له حافز من نفسه الى المواساة و التوجه الى الفقراء •

و ايّاما :يجوز ان يكون منصوبا على المفعوليّة لكتب بهذا التقدير

يا ايّها الذين آمنوا كتب الله عليكم الصيام اياما كما يجوز ان يكون منصوبا على الظرفية اى فى ايّام و معدودات صفة لأيّام تشعر بالقلة و يجوز انطباقها على الشهر و هذا الأبهام يفسّره ما يجئ من قوله تعالى شهر رمضان اذ لم يعهد فى شريعة الأسلام صوم واجب بالعناوين الأولية غير صوم شهر رمضان .

فمن كان منكم ايها المؤمنون المكلفون بالصوم مريضا يتعذر او يتعسّر عليه الصوم من طريق مرضه امّا لأنّ المكلف المريض لا يستطيع مع مرضه ان يصوم لضعف المقاومة او يخاف اشتداده او زيادته او لأنّ بذرة المرض فيه فاذا صام برز مرضه و يرى بعض العامة ان كُلّ ما يصدق عليه المرض يجوز معه الأفطار حتى فيما لا يتفاوت على الصائم صومه و افطاره ولا شكّ ان السياق العرفى يرفضه اذ من المعلوم انّ العرف يفهم من قوله فمن كان منكم مريضا ان مرضه ينافى صومه لا مطلق المرض كالوجع العادى الذى ينسجم مع الصوم ولا ينافيه .

او على سفر : يوجب قصر الصلاة لانه هو المراد شرعا لا مطلق قطع المسافة و الاعتبار العقلى يساعد السفر الشرعى لا مطلق قطع المسافة لان الأنسان البعيد عن اهله مشوش الوضع فتكليفه بالصوم فيه مشقة عليه من ناحية سحوره و افطاره و عطشه و غير ذلك ممّا يكون فى السفر ولا يكون فى الحضر ،فعدّة من أيام أخر ،اى عليه القضاء خارج ايام المرض و السفر عندما يصحّ و يحضر او يكون بحكم الحاضر .

وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين :وقرئ مساكين بصيغة الجمع و فى معناه احتمالات منها ما قيل ان المراد بالذين يطيقونه كافة المكلفين فقد كانوا فى بدء الأسلام مخيرين بين الصوم و بين ان يعطوا الفدية بدل الصوم وكان الصوم افضل من الفدية وان ذلك نسخ

بقوله تعالى فمن شهد منكم الشهر فليصمه ٠

و منها ما قيل ان المراد وعلى الذين كانوا يطيقونه لاجتمـــاع اشدّهم يومئذ اك لكن عرض لهم العجز كالشيخ و الشيخة وذي العطاش فأن على هؤلاء مكان صوم كل يوم فدية طعام مسكين واحد وهي مـــدّ وقيل مدان ٠

و منها ما يجوز احتماله خصوصا على قراءة من قرأ طعام مساكين وهو ان الذي يطيق الصوم و يفطر عليه فدية ـ اي كفارة ـ وهي طعام مساكين و بيان العدد موكول الى شرح السنّة له انّه كم هو ،فمن تطوع خيرا ،اي اعطى اكثر من مسكين واحد او اعطاه اكثر من مدّ او زاد المد أداما ،فهو ،اي التطوع الذي بينّاه ،خير له ،عند اللّه و اكثر اجرا،وان تصوموا خير لكم ،بمعنى ان الصيام في نفسه خير من الأفطار و هـــذا لا ربط له بالمرض ولا بالسفر وغيرهما من العوارض و امّا قول من قـال و ان تصوموا ايّها المرضى او المسافرون فهو خير لكم من افطاركم فهـو غلط فأن لسان قوله تعالى فمن كان منكم مريضا اوعلى سفر فعدّة مـن ايام اخر يفيد بقوّة ان صوم المريض و المسافر حرام لانه اوجب علـــى المريض و المسافر القضاء حتما بقوله فعدّة من ايام اخر جوابا للشـرط في قوله فمن كان منكم مريضا اوعلى سفر فكيف مع هذا يعود فيقول وان تصوموا خير لكم ،ان كنتم تعلمون ،ما في الصوم من فوائد صحيّـــــة و معنوية و يأتي في الآية اللاحقة ما يعين على المراد بهذه الآية ٠

* (شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس
و بيّنات من الهدى و الفرقان فمن شهد منكم
الشهر فليصمه ومن كان مريضا او على سفر فعدّة
من ايام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم
العسر و لتكملوا العدّة و لتكبّروا الله على
ما هداكم و لعلكم تشكرون) *

الشهر هو العدّة من الأيام الواقعة بين هلالين و رمضان مأخوذ من رمض الصائم اذا احترق جوفه من شدّة العطش و الرمضاء شدّة الحرّ فعلى هذا لا يستعمل رمضان بدون اضافة شهر اليه فلا يقال دخل رمضان مثلا بل يقال دخل شهر رمضان فأن قيل ليس كل شهر رمضان ممّا يقع فى فصل حار فما وجه التسمية اجيب بأنهم لمّا نقلوا اسماء الشهور من اللغة القديمة سموّها بمناسبة الأزمنة التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر ايّام رمض الحرّ .

و ارتفاع شهر رمضان على انه خبر لمبتدأ محذوف و مفاد الجملة مفاد بدلية امّا من الصيام فى قوله كتب عليكم الصيام اى وهو صيام شهر رمضان او من ايّاما معدودات اى هى شهر رمضان او انّه مبتدأ وخبره الذى انزل فيه القرآن : و نزول القرآن فيه تارة يكون بمعنى ابتداء نزوله ثم استمرّ متمشيا على بقية الأزمان او انّه انزل مرة واحدة الى السماء الدنيا ثم انزل بعد ذلك نجوما و هدى مصدر كالهداية منصوب على الحالية اى انزل هاديا او على المفعول لأجله اى لأجل هداية الناس .

و بيّنات جمع بيّنة اى واضحات صفة لموصوف محذوف تقديره انزل

آيات بيّنات مادتّها هداية الناس و مابه يفرّق بين الحق و الباطل فيكون من باب عطف مفصل على مجمل و خاص على عام لأن هذا المعنى افيد بقوله هدى للناس بطور اجمالى وما بعده ابسط منه بالنسبة و انتصاب بيّنات كانتصاب هدى على الحالية او المفعول لأجله·

فمن شهد منكم الشهر فليصمه بمعنى فمن كان منكم حاضرا في شهر رمضان غير مسافر فليصم هذا الشهر وعليه فيكون انتصاب الشهر على الظرفية بمعنى من حضر منكم فى الشهر و قيل بمعنى من رأى منكم هلال الشهر فليصمه فتكون هذه الفقرة معبّرة عن ميزان وجوب الصوم على المكلف من حيث الرؤية وعدمها ولا تعبر عن شيء آخر ·

و من كان مريضا اوعلى سفر فعدّة من ايام أخر: تقدّم معنى هذه الفقرة و انما كرّرت تأكيدا لمفادها و تثبيتا لمعناها و معناها ينسجم مع كلا المعنيين من قوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه فعلى المعنى الأول يكون المفاد من حضر منكم فى الشهر فليصمه ما لم يكن مريضا او يعرض له سفر فأن كان مريضا اوعلى سفر فعدّة من ايام أخر: وعلى المعنى الثانى يكون المفاد انّ من رأى هلال شهر رمضان لزمه صومه الاّ ان يكون مريضا او مسافرا فانه يفطر و يقضى صوم ما افطر ·

يريد الله فى مرضاكم و مسافريكم بكم اليسر وعدم الأعنات ولا يريد بكم العسر حتى يحتّم الصوم عليكم فى جميع الحالات اصحّاء كنتم ام مرضى حاضرين كنتم ام مسافرين ، و لتكملوا العدة ، اى انما اوجب عليكم قضاء ما فاتكم زمن المرض و زمن السفر لتكملوا عدة شهر رمضان بالصوم فتكونوا فى ظرف السنة قد صمتم شهرا امّا نفس شهر رمضان مع الصحة و الحضور او بدله مع المرض او السفر وعلى هذا المنوال لا تكونون مضيّعين منه شيئا ، و لتكبروا الله ، تعليل آخر معناه انّما سهّل تعالى

على المسافر و المريض بالتسهيل الآنف لتقدّسوه و تسبّحوه و تكبّروه على رأفته بكم وعلى ما هداكم الى معرفة احكام دينكم حيث لم يجعل عليكم فى الدين من حرج ، و لعلكم تشكرون ، هذه النعم التى انعم بها عليكم ٠

و قيل ان المراد بالتكبير تكبيرات ليلة الفطر الوارد استحبابها عقيب اربع صلوات المغرب و العشاء و الصبح و صلاة العيد بمثل هذه الصورة : اللّه اكبر اللّه اكبر لا اله الاّ اللّه و اللّه اكبر اللّه اكبر و للّه الحمد على ماهدانا و بحث ذلك مستوفى فى الفقه : لكنّ هذا الأحتمال لا ينسجم مع سياق الآية الاّ بتكلف زائد ٠

* (واذا سألك عبادى عنّى فأنى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى و ليؤمنوا بى لعلّهم يرشدون) *

يجوز أن يكون مورد سؤال العباد قرب الله منهم وأنه لا فاصلة او لا حاجب بينهم و بينه او بعده عنهم وأن هناك فواصل او حجابا بينهم و بينه او أنه يجيب الدعاء او لا يجيبه فأجاب سبحانه بما يصلح للتعميم أنه قريب بعلمه من كل أحد و مجيب للدعاء بشرائط ·

(١) أن لا يكون ما يدعو به الداعى اثما كأن يدعو الله أن يمكّنه من الايقاع برقيبه فى العمل حيث تناله من رقابته قلة نفع فيرى وجوده مزاحما لزيادة منافعه حتى أنه لو انفرد بمكسبه انحصر البيع و الشراء به مثلا فيزداد نفعه فأمثال هذا الدعاء لاقيمة له بل هو اثم ·

(٢) أن لا يكون فيه خلاف مصلحة ظاهرية او فى علم الله كمن يدعو بالثراء المديد وهو يعلم أنه لا يتحمل غروره ولو بملاحظة حال غيره من امثاله و أخرى لا يتجسّم له ذلك من نفسه ولكن الله سبحانه يعلم به ·

(٣) أنه قد يكون ما ورد عليه من ظلم بحسب الظاهر ايقاعا به من الله عقوبة له لظلم سبق منه على غيره فأن دعائه لا ينجع فى دفع هذا الظلم عنه لأنه أوقع به عن عقوبة لا عن محض ابتلاء ·

(٤) أن دعاء الانسان قد يكون مستجابا و لكن بعد ازمان عن الدعاء لعدم المصلحة فى تعجيله و قيامها فى تأجيله كأن يكون اعطاء الجاه له فى اواخر عمره اصون له من اوّله ·

(٥) وقد يكون دعاء الداعى بحصول شئ معوضا عنه بدفع بليّة لم يتخطرها الانسان فيحسب ان دعائه لم يستجب له فى حال ان اثر

دعائه تحقق فى صرف البلية عنه او يعوّض عنه بحصول مصلحة غير مـــا دعى به لعلم الله ان صرف البلية التى لم يتخطرها عنه او جلـــب المصلحة التى لم يدع بها اولى به ممّا دعى به واراده لنفسه فليستجيبوا لى ، بما آمرهم به و انهاهم عنه لما يسعدهم و يصلحهم ، و ليؤمنوا بى اى يستمرّوا على الايمان ويسلكوا معه مسلك الأستقامة ، لعلّهم يرشدون الى ما فيه سعادتهم فى عموم النشئآت ، و انمّا اعترض سبحانه بهـذه الآية خلال آيات احكام الصوم ليحصل الأشعار بأن الدعاء حســـن ووقوعه فى مظانّ الأجابة احسن ومن اهمّ مظانّه كون الداعى مشغـــولا بعبادة الصوم المطلوبة لله سبحانه المرغوبة عنده ٠

* (أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هنّ لباس
لكم و انتم لباس لهنّ علم اللّه انكم كنتم تختانون
انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنّ
و ابتغوا ما كتب اللّه لكم وكلوا و اشربوا حتى يتبينّ
لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر ثم
اتمّوا الصيام الى الليل ولا تباشروهنّ و انتم
عاكفون فی المساجد تلك حدود اللّه فلا تقربوها
كذلك يبيّن اللّه آياته للناس لعلّهم يتقون) *

أحل بمعنى صار حلالا و الرفث افضاء الرجل الى المرءة ولذلك عدّى بألى حيث قال تعالى الرفث الى نسائكم و قيل ان الرفث يطلق على كل ما يريد الرجل من امرءته و كون النساء لباسا للرجال والرجال لباسا لهنّ انما هو باعتبار اشتمال احدهما على الآخر فی النوم و التعانق و تقال الخيانة فی مقابل الأمانة و المباشرة هنا هی المواقعة وهی من كنايات القرآن و الابتغاء هو الطلب والفجر هو الانبثاق يقال انفجرت الدملّة اذا انهزع جلدها و اخذ يخرج ما فيها ونظيره انفجار الليل وهو انهزاع سواده عن بياض ضعيف و لذلك شبّه بالخيط و لأن هذا البياض الضعيف المتفشی من جانب المشرق يكون فی ضمن سواد يتخلله شبّه السواد المتخلل بين البياضين ايضا بأنه خيط و العكوف هو اللبث المتطاول و فی الشرع عبادة خاصة .

كان جواز الأكل و الوقاع فی اوّل تشريع الصوم مختصا بزمان اليقظة بعد الغروب فاذا نام الأنسان حرم عليه أن يأكل او يواقع ولو استيقظ قبل الفجر بزمان ، و كان رجل من اصحاب رسول اللّه (ص) يقال له مطعم

ابن جبير شيخا ضعيفا وكان صائما فلمّا حصل الأفطار أبطأت عليه اهله بالطعام فأخذته عينه فنام قبل أن يفطر فلما انتبه قال لأهله قد حرم عليّ الأكل فى هذه الليلة فلما اصبح حضر الخندق مع من حضره من المسلمين فأغمى عليه فرآه رسول الله فرقّ له .

وكان قوم من الشبّان ينكحون بالليل سرّا وهكذا فعل عمر بن الخطاب واتى الى رسول الله واعتذر اليه من نفسه كما ذكر ذلك اعاظم المحدثين (راجع لذلك أهمّ تفاسير العامة) فكان ذلك سبب نزول قوله تعالى أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم .

كلوا واشربوا حتّى يتبيّن لكم الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر ، هنّ لباس لكم وانتم لباس لهنّ ، بمعنى انكم مشتملون عليهن وقت النوم وهنّ مشتملات عليكم كذلك وهذا التضّام والتعانق مظنّة قويّة للرفث لكنّ الاختبارات الشرعية أنما تكون فى مثل هذه المظانّ فالمكلف أنما يعرف طائعا بمعاصاة نفسه فى شهواتها وفى مثل المورد يلزم الانسان أن يبتعد عن مظنة الانحراف بالبعد عن فراش زوجته حتى يكون فى راحة من مغالبة نفسه ومقاومتها .

علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم ، تتسترون بالمعصية من الناس لكن الله لا تخفى عليه خافية ولا شك ان مخالفة التكليف خيانة لأنه خلاف الموثق المأخوذ من المكلف بدينونته بالدين الذى اختاره لنفسه بقبول من عقله وهذه الخيانة أنما تعود عليه لانه هو الذى يتحمل مسؤليتها ولا تعود على الله لأنه لا ينوشه من ذلك ضرر ولذلك قال تختانون انفسكم ولم يقل ربّكم ، فتاب عليكم ، اى قبل توبتكم بعد ما تبتم وعفا عنكم ، بالنسبة الى ما فرط منكم ، فالآن ، اى بعد تحليل الرفث الى نسائكم ليلة الصيام ، باشروهنّ ، اى يجوز لكم ان تباشروهنّ لا انه الزام

لأن اصل الجماع المشروع مباح و ليس بواجب خصوصا فى وقوع الأمر بعد الحظر فأنه قرينة واضحة على ارادة رفع المنع، وابتغوا ما كتب الله بمعنى اتبعوا فى مباشراتكم الشهوية ما قرره الله لكم مباحا غير حرام فالوطىء فى نهار الصوم مثلا و زمن الحيض و نظير ذلك لا تفعلوه ·

و قيل ان المنظور هو انكم اطلبوا من الوقاع حصول الولد لا الأفضاء بالشهوة فقط و الهدف من تكثير النسل تكثير المؤمنين بالله القائمين باوامره هكذا يريد الشرع من التناسل و لكن القضايا فى هذا الموضوع تحققت فى الأغلب على خلاف ما أرتهنه الواقع فأن كثرة البشر اصبحت من اعظم موبقات الحياة ماديا و معنويا ·

ثم أتموا الصيام الى الليل ، اى من حد الفجر يجب عليكم أن تستمروا بصومكم الشرعى الى الليل فلا يجوز لكم أن توقعوا خلال ذلك شيئا من موهنات هذه العبادة و مفسداتها ، ولا تباشروهن و انتم عاكفون فى المساجد ، فى هذه الفقرة جنبة استدراك لما سلف من قوله أحل لكم ليلة الصيام الرفث يعنى ان هذا الحلال للصائم ليس بحلال له اذا كان معتكفا فى المساجد يؤدى وظيفة هذه العبادة و هى اللبث فى المسجد بلا خروج منه الا لضرورة و الهدف منها الانحصار بالعبادة و تلاوة القرآن و الدعاء و تستفاد من ذلك خصوصيات (الاولى) ان الصوم شرط فى الاعتكاف فلا اعتكاف بدون صوم شرعى (والثانية) ان فعل ما يوجب خروج النجاسة فى المسجد فيه حزازة لأن الجماع فى الأغلب يوجب خروج المنى وهو نجس كما يوجب الجنابة ولا يجوز للجنب ان يكون فى المسجد ، تلك ، الأحكام التى بيناها من ، حدود الله فلا تقربوها ، فتكونوا من المعتدين ، كذلك اى كالبيان السالف ، يبين الله آياته ، و يقيم دلائله ومعجزاته للناس لعلهم اى حتى يكون البيان

موجبا لأتمام الحجة عليهم فيتقون موارد قيامها اذ لا عذر لهم مع قيام الحجة عليهم .

هذا ومن مماشاة الاسلام لأيجابات الطبيعة يظهر فضل هذا الدين وأنه دين للحياة لا للتزمت فما عليه النصرانية من دعوتها للترهب الكاذب في حقيقته انحراف صريح لا يلائم ذوق الحياة .

* (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالأثم وأنتم تعلمون) *

يقال الباطل في قبال الحق والحق هو الثابت فالباطل هو الزائل وأدلى يدلي اصله من ارسال الدلو في البئر والفريق من الشيء القطعة منه والأثم هو الحرمة .

تفيد الآية حرمة أكل الأنسان مال غيره بالباطل وحرمة كافة التصرفات المالية الباطلة ومعيار الباطل في المعاملات عدم اعتراف العرف العامل به ومساندة الشرع لهم بالتقرير والأمضاء وكل مقام للشرع فيه قانون فالمتبع هو دون العرف ، مثلا العرف العاقل يحرم البغاء فكل مال يؤكل من طريقه يراه العرف اكلا بالباطل فالمال الحاصل في يد البغي والمال الذي يصرفه الباغي كلاهما من الباطل عرفا وشرعا .

لكن العرف قد لا يرى في ثمن الخمر بأسا فلا يراه اكلا ولا صرفا له في الباطل لكن الشرع يخالفهم في ذلك فيراه باطلا فالمتبع هو ، ثم ابان سبحانه بقوله وتدلوا بها الى الحكام حرمة الرشوة بطور مطلق اذا تعقبتها هذه الغاية وهي اكل الراشي من طريق رشوته للحاكم الفاسق

فريقا من مال غيره بالأثم وهو يعلم انه لا يستحق هذا الفريق من المال ٠

نعم لو كان انسان مظلوما لغيره بطور لا غبار عليه ولا يستطيع دفع هذه المظلومية عن نفسه الاّ بأرشاء الحاكم جاز له هذا الأرشاء وان حرم على الحاكم لأن الراشي يدفع بذلك عن نفسه ظلما وعن حقّه هضما ولا يريد به اكل مال الناس بالأثم و بالنتيجة المال له وقع عظيم فى الشريعة فلا يرضى الشارع بصرف درهم منه فى الباطل و يحثّ على صرف الكثير منه فى سبيل الخير ٠

* (يسألونك عن الأهلّة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها و لكن البرّ من اتقّى و أتوا البيوت من ابوابها و اتقّوا اللّه لعلّكم تفلحون) *

السائلون عن الأهلّة سألوا عنها فى مستوى طبيعى يخصّ علم الهيأة كما جاء فى الأثر ان جماعة من الأنصار سألوا رسول اللّه (ص) فقالوا ما بال الهلال يطلع دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ثمّ لا يزال ينقص و يدقّ حتى يعود كما كان ولا يكون على حالة واحدة فكان الجواب قل هى مواقيت للناس و الحج وهو لا يطابق السؤال ولم يؤت به على ما يرقب السائل و السرّ فى صحة مثل هذا الجواب من كل مجيب عارف هو ان المجيب يلزمه أن يراعى فى جوابه ما فيه نفع لسائله بحيث يترتب عليه أثر عملى و معرفة السائل بمجارى القمر من حيث الهلالية و البدرية وما سواهما من الحالات التى تعتوره مما لا يترتب عليها اىّ أثر عملى و انما هو علم لا يستتبع عملا ولا يثمر ثمرا للأنسان فى عامة نشآته الحيوية كما هو واضح مكشوف و لذلك يعدل

المجيب العاقل الى مافيه نفع للسائل فيقول لسائله ليكن الهلال اىّ شئ فى طبيعته ولكن المفيد من تحولاته هذه بالنسبة اليك و الى غيرك كون هذه التحولات فيه حدودا للزمان الذى تناط به الأعمال وتعلّق عليه الأفعال كموارد الأجارات و مواعد اداء الديون و انتهاء الخيارات فيما بين المتعاملين و نظير ذلك ومنها الحجّ لأن جملة من اعماله منوطة بالزمان الخاص كموقف عرفة فى التاسع من ذى الحجة و ما يتعقبه من الوقوف بالمشعر و اعمال منى يوم العاشر و مبيت ليالى التشريق فيها وما الى ذلك ·

وكان الانصار اذا حجّوا لا يدخلون من ابواب بيوتهم مادامــوا محرمين لأن فى دخول ابوابها مشيا تحت الظلال والمشى تحت الظل من منافيات الأحرام فكانوا يتسلقون لبيوتهم ظهورها حتى يبقوامكشوفين، هكذا ورد الأثر بذلك فأبطل اللّه زعمهم فى هذا الأمر العبادى وقال ليس من برّكم بربّكم و بوظائفه التى كتبها عليكم ومن جملتها الحجّ والأحرام له أن تأتوا بيوتكم من ظهورها وتتحملوا هذه المشقة من غير جدوى ولكنّ البرّ برّ من اتقى اللّه فى ما حرّم و اتى بعمل مثبت تترتب عليه آثار عملية شرعية و اتوا البيوت من ابوابها ولا تحرجوا انفسكم حيث لا حراجة عليكم شرعا و اتقوا اللّه فى موارد تقواه الواقعية التى ارادها منكم فى فعل واجب محتّم وترك مبغوض محرّم فانكم اذا اتقيتموه فى هذه الموارد افلحتم ·

وقيل ان قوله تعالى وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها الى آخر الآية اشعار بأن السؤال يجب ان يكون من العالم بالشئ ولا يجوز اسناد السؤال الى كل احد فالعالم هو باب السؤال وغيره هو اتيان البيوت من ظهورها و ان اتيان العالم برّ بالعلم وتقوى للّه وأتيان غيره

عقوق للعلم و تمرّدعلى الله و انما جاز الأشعار بهذا المطلب بمناسبة تصد ير الآية بقوله يسألونك .

* (وقاتلوا فى سبيل الله الذ ين يقاتلونكم ولا تعتدوا
أن الله لا يحب المعتد ين) *

تقييد القتال بكونه فى سبيل الله يحصر مشروعيته بما كان منه لأجل اعلاء كلمة الحق وتشييد المحقين وفرض الواقع على الناس لأجل سعادتهم التى الووا عنها صفحا اذن فالقتال للعاطفة و الرغبات النفسيه و الأهواء الشخصية ليس بمشروع من كل مكلف لكن الخارج اوقعنا على عكس هذا القانون تماما وذلك اننا نرى ان الأنسان دائما انما يصارع أخاه على حساب اغراضه الشخصية ليس غير واما انتصاره للحق بما هو حق فهو عقيم معدوم بالمرة .

وهذه الآية تفهم ان القتال جهادا ليس بمشروع و انما المشروع القتال دفاعا و ان المبتدأ بالقتال ولو فى سبيل الله معتد على من يقاتله و ان الله لا يحبّ المعتد ين وهذا المفهوم خلاف المقرر الشرعى وتجويزات العقول بلزوم الجهاد لكافة اعداء الحق و انصار الباطل و ان الجهاد من اعظم القربات ومن هنا ورد فى الأثر ان هذه الآية اول آية نزلت فى القتال بعد الهجرة الى المدينة فكان رسول الله (ص) يقاتل من قاتل ويكف عمن كف حتى يقوى امره ويثبت موقعه ولذلك نسخ هذا المفاد بلزوم مقاتلة المشرك حيث وجد و مناجزة المشركين بل الكافرين كافة بعد أن اشتدّ ساعد المسلمين .

وقيل أن المنظور هو جواز مقاتلة من يقاتل ولا يجوز التعدّى منها الى النساء والعجزة والصبيان و أن مقاتلة هؤلاء عدوان عليهم لضعفهم عن

المقاومة وقلة غنائهم في المبارزة والانسان انما يجوز له دك المغالب وهو الانسان القادر على المقاومة والمناضلة لا كل أحد ٠

* (و اقتلوهم حيث ثقفتموهم و اخرجوهم من حيث
اخرجوكم و الفتنة اشدّ من القتل ولا تقاتلوهم عند
المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فأن قاتلوكم
فأقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) *

ضمير المفعول فى قوله و اقتلوهم يرجع الى قوله فى الآية السابقة الذين يقاتلونكم ومعنى ثقفتموهم وجدتموهم والفتنة هى الأمتحان المحرج و مفاد الآية ان الناصبين لكم الراصدين لمبارزتكم ناجزوهم القتال اينما كانوا الاّ المسجد الحرام اذا لم يبارزوكم فيه و امّا اذا لم يحترموه فلا تحترموهم حتّى فيه و اذا ظفرتم بهم فأخرجوهم من ديارهم وهى مكة كما اخرجوكم منها بعدما أروكم فيها الوان العذاب و انواع المحن بل ذلك البلاء الذى انزلوه فيكم اشدّ من القتل لو انزلوه بكم ٠

قيل لبعض الحكماء ما اشدّ من الموت قال الذى يتمنّى معه الموت وذلك لأن الموت يريح صاحبه والبلاء المحرج مقلق موجب للأضطراب وسلب الراحة ٠

وقيل ان المنظور بالفتنة هنا هو كونهم مشركين عند بيت اللّه ولا شك ان الشرك والتظاهر بمجاليه عند بيت اللّه الحرام اعظم هتكا له من القتل عنده لأن القتل عمل آنىّ لا اطالة فيه والحياة مع الشرك والتظاهر بلوازمه مستمرة ذات الوان وانواع اذن فلا بأس عليكم اذا قتلتموهم على شركهم عند المسجد الحرام وقتل الذى تقتلونه واخراج من تخرجونه هو جزاء الكافرين ٠

* (فأن انتهوا فأن الله غفور رحيم) *

يعنى ان هؤلاء المشركين اذا رفعوا ايديهم عن الشرك بالله ومدّوها الى الأيمان به فأن الله يقبل توبتهم ويغفر ما سلف منهم ويتفضل عليهم برحمته .

* (وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فأن انتهوا فلا عدوان الاّ على الظالمين) *

تظهر من هذه الآية رائحة النسخ للآية التى تقول وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم فأن مفادها ان من لم يقاتل من الكافرين فلا تتعرضوا له بقتال وسياق قوله تعالى حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله مشعرّ بلزوم اقرار التوحيد فى الاجتماع ومحق الشرك ولوازمه حتى يصفو الجو للحق والحقيقة ويكون الدين واحدا ولله فقط فاذا انتهى المشرك عن شركه ولازم الأيمان والالتزام بمقرراته فلايجوز التجاوز عليه لعصمته بالأيمان نعم الباقون من المشركين على ظلمهم قاتلوهم حتى تقمعوا ظلمهم وتنيموهم الى الذلّة وتبطلوا منهم كل ريح وصوت .

* (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص
فمن اعتدى عليكم فأعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
عليكم و اتقوا الله و اعلموا أن الله مع المتقين) *

الأشهر الحرم اربعة رجب و ذو القعدة و ذو الحجة و المحرّم وكانوا يحرّمون فيها القتال حتى لو ان الأنسان ظفر بألدّ اعدائه لم يتعرض له بسوء وهو فى حدود هذه الأشهر والحرمات جمع حرمة بمعنى الأحترام والحيثية والله تعالى فى هذه الآية كشف لهم عن شبهات ربّما تعتور اذهانهم وتوقفهم عن مناجزة المشركين فى الأشهر الحرم او فى اىّ زمان او مكان لهما حرمة فى نظر الناس فقال اذا تجاسروا عليكم فى الشهر الحرام فلا تحترموهم فيه لأنّهم هتكوا حرمة انفسهم بأيديهم وكذا عند المسجد الحرام اوغيره ممّا له كيان فى انظار الناس فأن القصاص فى امثال ذلك جائز لأنّ طرف القصاص لم يحترم نفسه وكل انسان تجاوز عليكم فلكم ان تقابلوه بمثل تجاوزه و اتقوا الله فى الأفراط والتفريط جميعا فلا تقصروا فى نصرة الحق ولا تسرفوا فى احقاقه و اعلموا انّ الله مع المتقين الذين لا يقصّرون ولا يسرفون بل يمشون على صدق الحق وميزان العدل ·

* (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحبّ المحسنين) *

كان فيما سبق حثّ على الجهاد فى سبيل الله وهنا تعرّض سبحانه للشق المقابل للجهاد وهو الأنفاق فى سبيل الله ذلك لأنّ الجهاد حافظ لكيان الأنسان و حريته و استقلاله و عزّته و فخاره و امّا الانفاق فى سبيله على المعوزين و العاجزين وسائر طرق الخير والبرّ فأنه ممشّ للحرية و مستمرّ بالاستقلال و مقدّم للعزّة و رافع لحاجة المحتاج وضرورة المضطر و كلّ امّة توفّر فيها هذان العنصران عاشت عيشة راضية موفورة الحظّ من كل شىء .

ثمّ انه سبحانه الفت انظار المكلّفين الى نكتة وحذّرهم من التغافل عنها وهو ان الجهاد حقّ حيث يستحصل منه على نتيجة معقولة و امّا التطويح بالنفس حيث لا يفيد فحرام لأنه لا يثمر ايّة ثمرة وهكذا الأنفاق الذى يأتى على كافة ذخائر الأنسان بما يحيله الى معدم فاقد للوسيلة فأنه بمنزلة التطويح بالنفس والاتلاف لها و فى الختام امر المكلفين بالأحسان الى ارواحهم و اموالهم و الى المحاويج من الأغيار بسلوك الطريق الوسط و الأعتدال الذى لا تعقم معه ايّة محاولة .

* (وأتمّوا الحج و العمرة للّه فأن أحصرتم فما أستيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محلّه فمن كان منكم مريضاً أو به اذى من رأسه ففدية من صيام او صدقة او نسك فأذا امنتم فمن تمتّع بالعمرة الى الحجّ فما أستيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام فى الحجّ وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن اهله حاضرى المسجد الحرام وأتقوّا اللّه و اعلموا أنّ اللّه شديد العقاب) *

قد تقدّم القول فى معنى الحجّ والعمرة عند التعرض لتفسير قوله تعالى ان الصفا والمروة من شعائر اللّه ومفادهما معا فى الشرع واحد وهو قصد البيت الحرام لأيقاع مجموعة مناسك مشروحة فى كتب الفقه والأتمام هو الأنهاء واللام فى للّه بمعنى لأجل اللّه كما يقال فعلت ذلك لك أى من اجلك وحصره اوقعه فى محاصرة و احتكر وجوده فلم يستطع ان يتصرف بنفسه كما يريد وهو بمعناه العام شامل لكل منع ومن جملته من منعه العدوّ عن المضىّ فى وجهه لأنجاز عمل حج او عمرة او غيرهما او قعد به المرض عن القيام بواجبه الذى يريد ايقاعه حجّا ام عمرة كان ذلك ام غيرهما و اصطلح الفقهاء الحصر على الممنوعية بالمرض والصدّ على الممنوعية بالعدوّ و الأحصار فى الآية قابل للتعميم أخذاً بعموم المعنى اللغوى ويرى بعضهم ان الأحصار فيها مخصوص بالصدّ بالعدو فقط لانه تعالى يقول فاذا امنتم و الأمان لا يستعمل الاّ فى مقابل الخوف ولا ربط له بالمرض لكن لا اثر لهذا القول لان الأمان يستعمل

بمعناه العام فی کل مقام لا محذور فيه ومن جملته السلامة من المرض ٠

والحصر غير الأحصار صيغة فما معنى الأحصار اذا كان الحصر ما عرفت معناه فقيل يقال أحضره اذا عرضه للحصر وحصره اذا اوقعه فيه ومعنى استيسر كان ميسورا ای مقدورا بدون كلفة والهدی من الهدیّة وجمعه هدیّ على زنة فعيل كعبد وعبيد وحلق الشعر ازالته بالموسى ونحوها وأصله من الرفع حيث يقال حلّق الطائر اذا ارتفع فی الهواء فيكون معنى حلق الشعر رفعه عن الرأس وغيره من اماكن البدن والأذی ما يؤذی والنسك هو العبادة والمراد به هنا الذبيحة والتمتع نيل المتعة وهی اللذة ومتعة الحجّ هی أن يعتمر الآفاقیّ فی اشهر الحجّ وبعد تمام اعمال عمرته يحلّ ويتمتع بكل ما يحل للمحلّ حتى تأتی ايام الحجّ فيحرم للحج فالفاصلة بين اتمام اعمال العمرة و اوّل احرام الحج مفسوحة امامه يفعل فيها جميع ما يفعله المحلّ فهی متعة له والمراد بالأهل فی قوله تعالى لم يكن اهله حاضری المسجد الحرام منزله ووطنه ويطلق لفظ الأهل على عدّة معانی ماذكرناه احدها ٠

ومفاد الآية هو لزوم انهاء اعمال الحج والعمرة لأجل الله ای قربة اليه وكل عمل عبادی مشروط بالقربة والحج والعمرة من العبادات ولا شكّ فی وجوب الحج على المستطيع من المكلّفين عند جميع المسلمين و اختلف العامّة بينهم فی وجوب العمرة و بعضهم يرى انّها مستحبة لكن متى شرع فيها وجب اتمامها و افعال الحج كثيرة هی النيّة والاحرام والتلبية والوقوفان والنحر او الذبح ورمی الجمار والحلق او التقصير والمبيت بمنى و طواف الزيارة و ركعتاه و السعی بين الصفا و المروة و طواف النساء وصلاته ، وافعال العمرة هی النية و الأحرام والتلبية و طواف الزيارة و ركعتاه والسعی و طواف النساء و ركعتاه فی

العمره المفردة، وتفاصيل ذلك موكولة الى مفصّلات كتب الفقه ٠

فأن أحصرتم :اى منعتم بعد الأحرام من اتمام العمل الواجب بعدوّ صدّكم او مرض قعد بكم فعليكم ما تيّسر لكم من الهدى حتّى تحلّوا من بعده و الهدى يكون من الأنعام الثلاثة و أيسرها شاة :ولا تحلقــوا رؤسكم :لأجل ان تتحللوا به حتى يبلغ الهدى محلّه بمعنى انه ينحر او يذبح ففى مقام الصدّ بالعدوّ يذبح هديه فى مكانه و فى مقام الأحصار بالمرض يرسله و يصبر حتى يصل هديه الى منى ان كان احرامه بحج و الى مكة اذا كان احرامه بعمرة ٠

وأفيد من طريق سياق الآية ان الحلق للاحلال فأفاد سبحانــه حكما آخر لا ربط له بالمحصر وهو ان المخرم قبل اتمام اعماله قد يمرض فى رأسه فيحتاج الى حلقه وليس عليه البقاء غير حالق الى اتمام اعمال حجّه او عمرته فلا مانع حينذاك من الحلق غايته أنّ عليه فدية من صيام ثلاثة ايام او صدقة على ستة مساكين او شاة مخير فى ذلك ٠

فاذا أمنتم :اى كنتم آمنين من محاذير الصادّين والأمراض والموانع تقف امام انجاز اعمالكم :فمن تمتّع بالعمرة الى الحج :اى حجّ حجـا تمتعيا فى قبال المفرد والقارن وهو ان يحرم بالعمرة من الميقات فى اشهر الحج ثم يدخل مكة فيطوف و يسعى و يقصر و يحل من احرامـه منتظرا ايام الحجّ فينشأ احراما آخر من مكة و يخرج الى عرفات و يأتى ببقية اعمال الحج التى اوجزنا ذكرها سالفا :فما استيسر من الهدى: بمعنى لزوم هذا الهدى عليه ٠

فمن لم يجد :الهدى ولا ثمنه فأنّ له بدلا يقوم مقامه و يسدّ فراغـه وذلك صيام ثلاثة ايّام فى ايام الحج المكتنفة به قبل يوم التروية ويومهـا ويوم عرفة و ان صام فى اوّل العشر الأوائل من ذى الحجة جاز امّا اذا

شرع بيوم التروية اتى باليوم الثالث بعد ايام التشريق و ان فاته ذلك صام بعد ايام التشريق و سبعة اذا رجع الحاجّ الى اهله و بلاده وانّما وصف سبحانه العشرة بالكمال دفعا لمحذور ان يراد بالواو في قوله ثلاثة ايّام في الحج و سبعة معنى او بمعنى انه يجزيكم احد امرين صيام ثلاثة ايام فى الحج او الصيام سبعة ايّام بعد رجوعكم الى اوطانكم فأن الواو وردت بمعنى او فى كثير من الكلام الذى يحتجّ به كقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث و رباع فأن الواو هنا بمعنى او بلا ريب فذكر الوصف بالكاملة دفعا لهذا المحذور و للتأكيد ايضا ٠

ذلك لمن لم يكن اهله حاضرى المسجد الحرام :اشارة الى من وظيفته حجّ التمتع وهو من يكون بينه وبين مكة اكثر من اثنى عشر ميلا (وهى تبلغ اربعة فراسخ لأن كلّ ميل اربعة آلاف ذراع بذراع اليد) من كل جانب :واتقوا الله اى خافوه فى مجارى اوامره و نواهيه ولا تغيّروا من تكاليفه شيئا :واعلموا انّ الله شديد العقاب للمتمردين عليه العاصين له و ان ارخى لهم فى هذه الحياة ٠

* (الحجّ أشهر معلومات فمن فرض فيهنّ الحجّ
فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحجّ وما
تفعلوا من خير يعلمه اللّه و تزوّدوا فأن خير
الزاد التقوى و اتقون يا اولى الألباب) *

الرفث الجماع وقيل حتى المواعدة باللسان على الجماع رفث والفسق هو الأنحراف عن الطاعة والجدال المنازعة مأخوذ من الجدل وهو الفتل كأن المنازع يفتل كلامه و يقويه و الزاد الطعام الذى يتخذ للسفر وتزوّد حمل الزاد معه و اللبّ هو العقل لأنه جوهر الأنسان كما ان جوهر كل شىء لبّه ٠

ومفاد الآية ان الزمن الذى يصلح لأن يوقع فيه الحجّ اشهر معلومات فى الدين لا تقديم فيها ولا تأخير كما يفعل النسأة فى الأشهر الحرم واشهر الحجّ هى شوّال و ذو القعدة وعشر من ذى الحجة على قول وكل ذى الحجة على قول آخر فلا يجوز للأنسان ان يحرم للحجّ خارج هذه الازمنة المعلومة وكذلك لا يجوز الأحرام لعمرة التمتّع خارج هذه الازمنة لأنّ هذه العمرة مرتبطة بالحج نعم العمرة المفردة تقع فى كل ايّام السنة ٠

ونتيجة الفرق بين قول من يقول بالعشرة الأوائل من ذى الحجة وقول من يقول بذى الحجة كلّه ان الأوّل يرى وقوع الاحرام بالحجّ فيها والاعمال اللاحقة ليوم النحر يعتبرها تابعة لما سبق منها والثانى يرى ان جملة من اعمال الحجّ تقع خارج العشرة كما ان صوم الثلاثة الايام بدل الهدى من بعض مظانه وقوعه بعد ايام التشريق وهو خارج عن العشرة ومع ذلك سمّاه اللّه حجّا حيث قال ثلاثة فى الحج ٠

فمن فرض فيهنّ الحجّ : اى الزم نفسه فيهنّ بالحج و احرم حرم عليه الرفث وهو الجماع مادام محرما كما يحرم عليه الفسوق وهو الكذب حرمة مؤكدة فيه او يحرم عليه كل مأثم بلا تخصيص لمعصية وكذلك يحرم عليه الجدال وهو قول لا والله وبلى والله فى الصدق والكذب او مطلق المجادلة ، و فى هذه الأمور ذاتا منقصة وتزداد نقصا فى أطار هذا العمل العبادى الذى يلزم الانسان ان يمحض نفسه فيه لله وحده ٠

وما تفعلوا من خير فى السرّ والعلانية يعلمه الله ولا يغيب عنه وربط ذلك بالمقام ان اثابة الله لفاعل الخير فيه آكد لوقوعه فى مظانّه وتزوّدوا من الأعمال الصالحة فأنها خير الزاد للدنيا والآخرة لان المتزوّد منها محبوب فى الدنيا مأجور فى الآخرة والأعمال الصالحة نتيجة تقوى الله والخوف منه ، و اتقون اى خافونى فيما آمركم به وأنهاكم عنه يا ذوى العقول اى الملتفتين اليها غير المعرضين عنها ٠

* (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فأذا
افضتم من عرفات فأذكروا الله عند المشعـــر
الحرام و اذكروه كما هداكم و ان كنتم من قبلــه
لمن الضالّين) *

الجناح المنع و الأبتغاء الطلب و الأفاضة مأخذها الفيضــــان ويختلف معناها بحسب المتعلق فمعنى أفاض فيه اكثر فى التكلم عنــه وأفاض منه خرج كالفائض من الماء عن اطراف الأناء وعرفات اسم مكـان بعينه قيل انّه مرتجل لا عن مناسبة وقيل لأن ابراهيم عرفها بما تقدّمله من نعتها وقيل لأن آدم و حوآء اجتمعا فيها و تعارفا من جديد بعد أن افترقا بالهبوط وقيل لأنها مرتفعة عن الأرض كارتفاع عرف الديــك عن سطح رأسه والمشعر كالمعلم محلّ الشعار وشعاره العبادة والدعاء ويسمّى المزدلفة لأن الناس يزدلفون اليه بعد الأفاضة من عرفات كمـا يسمّى جمعا لتجمع الناس فيه او لأنّه يجمع فيه بين صلاة المغـــــرب والعشاء بأذان واحد و اقامتين ، والضالّ التائه الحائر ٠

ومفاد الآية ان الناس كانوا يظنّون حرمة المعاملة فى الحجّ لأنــه عمل عبادة فلايجوز أن يشاب بعمل الدنيا فدفع الله ذلك بأنه لا مأثم على الحاج اذا اكتسب ما يمون به نفسه ومن يعول به فأبتغاء الفضـل هو ذلك ٠

فأذا أفضتم من عرفات : اى اندفعتم منها كما يفيض الماء المتراكـم فأذكروا الله عند المشعر الحرام : اى ادعوه بما يقدمكم عنده و يخلصكم من تبعات الذنوب ثم شرح لهم ماهية ذكره بأن شبّهها بهدايته لهـم بمعنى ان ماهية ذكركم له يجب ان تكون طبقا لأنعمه عليكم وهــــى

هدايتكم الى الطرق المستقيمة المثمرة المخرجة لكم من الضلال الماحق الى النور الصادق ولقد كنتم قبل أن يهديكم بمواعظه وتعاليمه توسط سفرائه و امنائه من الضالّين الحائرين ·

* (ثمّ افيضوا من حيث أفاض الناس و استغفـــروا
اللّه انّ اللّه غفور رحيم فأذا قضيتم مناسككـــم
فأذكروا اللّه كذكركم آبائكم او اشدّ ذكرا فمـــن
الناس من يقول ربّنا آتنا فى الدنيا وما له فـى
الآخرة من خلاق) *

اى انكم بعد أن تؤدّوا وظيفة المشعر الحرام أفيضوا منه الى منى لأداء وظائفها من نحر او ذبح و رمى للجمار كما كان المؤمنون قبلكـم يفعلون هذا الفعل ويمشون على هذا الترتيب و ليكن ورد ألسنتكم فى هذه المواقف طلب المغفرة من ربّكم فأن لكل شيء مظانّ ومن مظـانّ طلب المغفرة هذه المواقف المحترمة عند اللّه سبحانه فأذا قضيتم هذه المناسك وأديتم هذه الوظائف فليكن ذكركم للّه وحده ولا تتعرضوا فـى هذه المواقف الى المفاخرة والمهاترة كما كان العرب قبلكم اذا فرغـــوا من حجّهم وقفوا عند الجمرة وعدّدوا مآثر آبائهم ومفاخر اسلافهم فأنـــه ان يكن عندكم فخر واقعىّ ومأثرة محقّقة فأن ذلك من اللّه سبحانه فهـو الجدير بالذكر والحقيق بالشكر ·

ثم ابان سبحانه أنّ فريقا آخر لا يبعد فى رويّته عن هؤلاء المفاخرين بآبائهم فى مظان الدعاء و اجابته فهم لا يعرفون فى هذه المواقـــف سوى الدنيا ولا يعيرون الآخرة اقلّ نظر فهؤلاء ما لهم فى الآخرة مـن حظّ او نصيب ·

* (ومنهم من يقول ربّنا آتنا فى الدنيا حسنة و فى
الآخره حسنة وقنا عذاب النار : اولئك لهم
نصيب ممّا كسبوا و اللّه سريع الحساب) *

ثم ذكر سبحانه فريقا ثالثا وصفه بالأعتدال كما يريد منه عقله ودينه وهو السائل من ربّه فى تلك المواقف تيسير امور معاشه ومحقّقات معاده امّا معاشه فهو من ضرورات جبلّته و مستدعيات ماهيّته و اصل خلقته وامّا محققات معاده فهى من لوازم عبوديته للّه و مؤمنات مستقبله وهذا هو الاعتدال الصحيح المطلوب عقلا و شرعا وقد أثر عن النبىّ(ص)انه قال من اوتى قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة مؤمنة تعينه على امر دنياه وأخراه فقد أوتى فى الدنيا حسنةً و فى الآخرةِ حسنةً و وقى عذاب النار ٠

اولئك : اى الذين يعملون لدنياهم وأخراهم : لهم نصيب ممّا كسبوا : وهو الذى يكسبونه فى الطاعات فأنه محّل الثواب لا الذى يكسبونه لأرضاء ميولهم و اطفاء شهواتهم ولو كان عن طريق محلّل فأن ذلك لا يحقّق ثوابا اذ لا ربط له به و اللّه سريع المحاسبة على الخير و الشر يصدران عن المكلّف لا يشغله حساب احد عن احد كما لا يتأخر عن عقاب المسىء و اثابة المحسن لأن فى تأخير التنفيذ لأىّ حق يفرض نوعا من الظلم و اللّه سبحانه اجلّ من ان يظلم ٠

* (واذكروا اللّه فی ايّام معدودات فمن تعجّل فی
يومين فلا اثم عليه ؤ من تأخر فلا اثم عليه لمــن
اتّقی و اتقّوا اللّه و اعلموا انكم اليه تحشرون) *

كلمة معدودات تدل علی القلّة فی قبال قولهم لا يحصی ولا يستقصی والمراد بهذه الأيام المعدودة هی ايام التشريق الثلاثة بعد يــوم النحر والذكر المأمور به فی الآية مستحب لا واجب بقرينة الأجماع علـی عدم وجوبه وهو ان تقول عقيب خمس عشرة صلاة اوّلها الظهر من يــوم النحر و اخرها صلاة الفجر من اليوم الرابع من النحر والثالث بعــده (اللّه اكبر اللّه اكبر لا اله الّا اللّه و اللّه اكبر اللّه اكبر و للّه الحمد اللّه اكبر على ما هدانا والحمد للّه على ما اولانا واللّه اكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام) هذا لمن كان بمنی وأمّا اهل الامصار فيستحب لهم ان يكبروا عقيب عشر صلوات اوّلها صلاة الظهر من يوم النحر كالسابق .

ثم اشار سبحانه الى حكم النفر من منی فقال :فمن تعجّل فی يومين يعنی انه يجوز للحاج ان ينفر فی اليوم الثانی من ايام التشريـــق وان كان الأفضل ان يقيم الى النفر الأخير وهو اليوم الثالث واذا نفر فـــی النفر الأول لزم ان يكون بعد الزوال وقبل غروب الشمس فأذا غربــت وجب عليه المبيت بمنی :وأن تأخّر: الى النفر الثانی وهو الثالث مــن ايام التشريق فجائز ايضا ،ومعنی لاأثم عليه فی التعجّل والتأخــر ان ذلك مباح له وهذا التخيير ثابت لمن اتّقی الصيد فی حجّه ومن لــم يتق الصيد فلا يجوز له النفر فی الأول فقوله تعالی : لمن اتّقی :خبــر لمبتدأ محذوف تقديره ذلك :واتقّوا اللّه فی كافة اعمالكم واعلمـــوا انّ مرجعكم اليه وتجمّعكم عنده ولا مفرّ لكم منه ،والحشر هو الجمع والمحشـر

اسم مكان له

* (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا
ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدّ الخصام :
واذا تولّى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك
الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد) *

الأعجاب بالشئ استغراب النفس له من جهة حسنه والأشهاد اقامة الشهادة حقيقة او ادعاء وألدّ الخصام شديد الخصومة و التولّى هو الأعراض والسعى هو المشى بسرعة والأهلاك الأفناء والأتلاف والحرث هو الزرع ويطلق بالتجويز على النساء والنسل الذرية .

والآية تتعرض لبيان حال المنافق والخطاب للنبىّ بدء ولغيره على سبيل عموم الملاك يقول سبحانه يا محمّد ليس كلّ المعجبين بظواهرهم أولى واقعيّات فأن منهم من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا بأننى مؤمن بك ناصر لك محب مشفق ولا يكتفى بهذه الدعوى المجردة حتى يشفعها بقوله والله يشهد على ما فى قلبى لكنه فى الواقع عدو شديد وخصم لدود و من هذه الروية الفاسدة والطوية الخبيثة اذا فارقك وتولّى عنك دبّت عقاربه فمشى جهد مقدوره فى الأفساد عليك و اغذّ يفتّش عمّا يطيح بك ويهلكك ، وهذا المعنى كثير الوجود فى العالم منتشر اشدّ الانتشار فى كافة الطبقات عصمنا الله منه ومن اهله .

* (واذا قيل له اتق اللّه أخذته العزّة بالأثـم فحسبه جهنّم ولبئس المهاد : و من الناس من يشرى نفسه أبتغاء مرضاة اللّه واللّـه رؤف بالعباد) *

العزّة هى الحمية والغيرة فتارة تكون على حق كحمية الانسان على عرضه و دينه و تارة تكون على باطل كأعتزاز الانسان بنفسه حتى فـى قبال الحق و المهاد ما يمهّد لأستراحة الأنسان و الشراء من الفـاظ الأضداد فيقال شرى اذا باع ويقال شرى اذا ابتاع والرؤف كثير الرحمة .

ثم ذكر سبحانه من وصف المنافق أنه اذا دلّ على الحق وتجلّى له استكبر عن قبوله وأصرّ على الخطأ الذى ارتكبه بادئا عن جهل وهذا من العيوب الأخلاقية العظيمة و قلّ انسان لم يبتل به والآية تشعر بقـوّة ان من دلّ على الحقّ و أوضح له ومع ذلك تمرّد عليه فقد ارتكب موبقـة من الذنوب وقد قال بعض الأكابر ان من الذنوب التى لا تغفـر ان يقال للرجل أتق اللّه فيقول عليك نفسك .

و فى قبال هذا العنصر النازل السافل ذكر سبحانه من يضحّـى بنفسه فى سبيل اللّه طلبا لمرضاته وطاعة له وهو كلّ مجاهد فى احقاق الحق و ابطال الباطل ومثل هذا العنصر الشريف يرأف به اللّه اضعافا على ما يستحق .

وجاءت الرواية بطرق متعددة عن العامة و الخاصة ان هذه الآية نزلت فى أمير المؤمنين على بن ابى طالب ليلة مبيته على فراش رسـول اللّه حين قصد المشركون قتله فخرج الى الغار و بات علىّ فى مضجعـه وقد استوفينا الكلام على ذلك فى كتابنا نتائج الفكر فى شرح البـاب

الحادى عشر عند تعرضنا لمبسوط سيرة الرسول (ص) .

* (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا
تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدوّ مبين :
فأن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فأعلموا ان
الله عزيز حكيم) *

يقال السلم على ما يقابل الخصومة والمبارزة والتحيّزوكافة بمعنى جميع من كفّ الثوب اذا جمع اطرافه ونصبه على الحال من ضمير الجماعه فى ادخلوا والزلل الأنحراف والمراد بالذين آمنوا هنا كل من اطلق على نفسه كلمة الأيمان بحق او بغير حق وانّما عممنا ذلك لأن البشر منذ يتعقلون الحياة يسعون جهد المقدور وراء مؤمناتها وأنّما يختلفون فى المؤمن بمقدار نضج افكارهم وعدم نضجها فالناضج الفكر يتبع المقاييس الصحيحة فلا تراه يعبد شمسا او قمرا او يلتجأ الى حرز او عوذة من الشعوذ يين والدجّالين وأنّما يعبد المبادء التى يراها علة لكل مبدأ كما عليه الموحدون المترسمون لخطوات الأنبياء والذى لم ينضج فكره تراه لا يستقرّ به قرار لتطلّب ما يحفظ وجوده و يوسع عليه رزقه و يؤّمن له مستقبله فتراه يؤمن بالعوذة والشجرة يقال له انها مباركة والنذور ولو للأوهام وعلى كل حال فالناس فى العالم يؤمنون بمبادئ كل على حسب تفهمه لها ولا شك ان الذى يتطلب موجبات البقاء والسعادة من لازمه ان يتطلب السلم والسلامة وقمع الفتن والباطل وعلى هذا المبنى فكافة الناس مؤمنون بمبادء يرونها مؤمنة لبقائهم و سعادتهم غايته كل واحد له عقيدة خاصة بشىء خاص ،فأهل الكتاب يدّعون الأيمان لأنفسهم والمنافق يتظاهر به والمشرك لا ينكر المبدأ بالمرّة

وأن خلط وخبط فيه والدعوة بالنداء من الله فى هذه الآية لكل احد بلا استثناء بمفاد انه يلزم كل انسان ان يترك اللجاج والعناد والأنحياز وينضمّ الى جامعة واحدة نظامها الأسلام والوئام وقول الحق والعمل به والدعوة اليه ونبذ الباطل والأنشمار عنه والتنديد به وان هذه التحيّزات السارية فى اطراف البشرية كلّها نتيجة تسويلات نفسية واغوآت شيطانية وان امانى النفس حراب حادّة لهتك صاحبها والفتك به وانتم يا جماعة الناس بعد هذه الدعوة الصارخة والنداء العام العارى عن التحيز والغرض الشخصى ان زللتم عن الجادّة المستقيمه والطرق القويمة من بعد ما أوضحنا لكم الحجج واقمنا لكم العلائم فأعلموا ان الله عزيز لا يخضعه شئ ولا يفوته شئ حكيم فى تشريعاته التى شرعها وقوانينه التى قنّنها فهو اذن جامع بين صفتين قلّما اجتمعتا فى واحد صفة العزّة والقوّة والمنعة وصفة الحكمة والصواب وهما أبعد ما يتصور فى الحاكم المسيطر لأحقاق حق وابطال باطل ٠

* (هل ينظرون الآ أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر و الى الله ترجع الأمور) *

النظر هنا بمعنى الانتظار والترقب اى هل ينتظرون والماده واحده وهى المعاينة فأن النظر الذى هو فى مقابل الانتظار يكون بالفعل وبمعنى الانتظار يكون لما هو مستقبل والظلل جمع ظلّة وهو ما يوقع الظلّ على مسامته والغمام هو السحاب الأبيض ومفاد الآية ان هؤلاء الذين يزلون عن الجادة وينحرفون عن الطريق المستقيم مع تهديد الله لهم ووعيده ايّاهم لا ينتظرون فى الواقع ــ وأن كان ليس فى خيالهم ذلك ــ الاّ أن يأتى الله اى يجئ عذابه وانتقامه بمثل قطع الغمام العظيمة التى تستر صقعا عظيما بسعتها فيهلكهم بذلك اهلاكا جماعيا لا يبقى ولا يذر ويأتى الملائكة المأتمرون بأوامره منفذين لما يريد بهؤلاء من تنكيل وتعذيب حتى يتمّ الأمر ويحق القضاء وينتهى ما يراد بهم من ايقاع وايجاع ومآل الامور كلها الى الله والمراد بذلك يوم القيامة وختم نشأة الدنيا بأبتداء نشأة الآخرة وهل فى مبتدأ الآية استفهام بمعنى النفى اى لا ينظرون الاّ .

وكلّ مجرم وخاطئ ومرتكب خلاف الصحيح يعلم جزما ان لما ارتكبه اثرا وضعيا ولكن تسويلات نفسه الفعلية تحول بينه وبين المستقبل وحتى لو كان قريبا جدّا ويكفينا شاهدا على ذلك ان الشابّ المغرور يرتكب من الشهوات ما يؤلمه الما شديدا فى المستقبل القريب ومع قرب الوقعية به لا ينثنى ولا يرعوى فكيف به مع العواقب التى يظنّها بعيدة عليه .

* (سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة و من
يبدّل نعمة الله من بعد ماجائته فأن اللّه
شديد العقاب) *

هذه الآية كضرب مثل للزالّين عن الطريقة المنحرفين عن الجادّة فأن بنى اسرائيل من اولئك الذين أقيمت لهم البيّنات من جعل العصا ثعبانا و شقّ البحر لهم واغراق فرعون وجنوده الى غير ذلك من الآيات العظام ومع هذه كلّها كانوا ينتهزون الفرص لمخالفته والسوانح لمعصيته ولا شك ان ذلك تبديل نعمة بجحود ومجازاة فضل بكفران وقد نال هؤلاء المتلونون جزاء تلاعبهم بضمائرهم فى اشواط كثيرة من الحياة وما يرونه فى الآخرة اوفر واكثر و فى هذا تسلية للنبىّ (ص) عمّا دخل عليه منهم من مخاتلة ونفاق وغدر ٠

و فى هذه الآية بيان نكتة مهمّة وهو انّ الله يدلى الى الجهلة بالحجة بعد الحجة حتى ترتفع عنهم الشبه بحذافيرها ولا يكون لهم اقلّ عذر فى مقام المخالفة والأنحراف فأن كلمة كم فى الآية خبرية مفادها التكثير فانحراف المنحرف بعد مزيد البيان واقامة البرهان فيه حزازتان احداهما تعمّد الأضرار بالنفس من طريق وضعها بين يدى الجهل والجهل عبّاث وثانيتهما كفران نعمة التعليم واسداء المعروف وكل واحده من هاتين الحزازتين كافية فى تصحيح المؤاخذة بل لزومها ٠

* (زيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) *

قيل ان الآية نزلت فى ابى جهل وغيره من رؤساء قريش الذين بسطت لهم الدنيا فأنهم كانوا يسخرون من قوم من المؤمنين فقراء مثل عبد الله بن مسعود وعمّار و بلال و خبّاب ويقولون لو كان محمد نبيا لأتبعه اشرافنا لا فقراؤنا ، ومفاد الآية انّ الله سبحانه خلق الناس نوع خلقة لها ارتباط وثيق بالشهوات وبسط أمامهم فى هذه النشأة ما ترتبط به شهواتهم من مال وجاه ونساء وغير ذلك فحملهم الغرور على انتقاص كل مقلّ فاقد مؤمنا كان ام غير مؤمن و ان كان انتقادهم للمؤمن ازيد وأشدّ ، بهذه اللهجة ينتقدون : ياهذا المؤمن ان الحياة بمافيها من الله الذى تعبده فعلام اعطى الكافر به و زواها عن جملة المؤمنين فها نحن نتمتع بما نريد وها انت بعيد عن ذلك كل البعد .

وهذا المنطق المطوى فى ضمائرهم مما يزيدهم استحقارا للمؤمن المتقى الذى يتورع عن الشهوات المحرمة وأن كانت يده تنالها ولو بالشحذ والسرقة والأغتصاب فردّ الله عليهم بأنّ هؤلاء المقلّين المتورعين فوق اولئك المغرورين يوم القيامة مقاما ونعمة بل ولا قياس فأن الغرور يطوّح بصاحبه الى دركات جهنم والتقوى ترفع صاحبها الى أعلا علّيين وفضلا عمّا يلاقيه المتقون من تجليل والمغرورون من تحقير يوم الجزاء فأن المتقى النشيط فى خطته عظيم فى هذه الحياة ايضا عند الكثيرين وأن استخفّ به الجهلة وقصّر فى حقّه السفلة .

وقوله سبحانه والله يرزق من يشاء بغير حساب ينطبق على الدنيا

والآخرة امّا فى الدنيا فأنه يعطى ويمنع اختبارا ومحنة لا عن داع للعطاء فيمن يعطيه او للحرمان فيمن يمنعه وامّا فى الآخرة فأنه يعطى ويمنع عن اسباب ملزمة اجراء للعدالة الربانية فيمنع الكافر به عن كل خير ويعطى المتقى له عطاء يتفق مع سعيه فى الحياة الدنيا لتثبيت كلمة ربّه واذا شاء اضافه تفضلا والتفضّل لا حدّ له الّا فيما يوجب مساواة الأنزل درجة للكامل فيها فأن فى ذلك نوع غمط لحق الكامل واللّه سبحانه يجلّ عن ذلك ويتنزّه .

وأنما خصّ التزيين بالكافرين لأن الكافر لا يدرى وراء هذه النشأة نشأة اخرى يتنعم بها ومن اجل هذا تبدو له الحياة الدنيا اكثر ممّا تبدو لغيره من الذين يعتقدون وراء هذه الدار دارا ثانية ونظير ذلك ظهور رونق الأكل النفيس عند من يعلم انه لا يناله الّا بعد زمان بعيد بالنسبة الى من يعلم ان هذا الغذاء يحصل له فى فترات قصيرة .

* (كان الناس امّة واحدة فبعث الله النبيّيـــن
مبشّرين ومنذرين و انزل معهم الكتاب بالحـق
ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلـف
فيه الّا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهـــم
البيّنات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما
أختلفوا فيه من الحق بأذنه والله يهدى مـن
يشاء الى صراط مستقيم) *

كان الناس امة واحدة اى فريقا محدودا معدودا لا انشعاث فيه من جهة العناصر ولا من جهة الأمكنة ولا من حيث العواطـــف والعصبيات ولا شكّ أنّ هذا المعنى يشير الى اوّل ازمنة البشرية وأقدم عهودها والاجتماعات المحدودة يكون تفكيرها بحكم الطبيعة لونا واحدا او متقاربا فكون الناس امة واحدة يستلزم ان تكون ملتها وعقائدهـا واحدة او متقاربة كما اسلفنا وليس من المعقول ان يكون الناس فى هذا الدور مهملين من ناحية الله مسيبّين لم يبعث نبيّا هاديا ولا رسـولا مرشدا نعم بحكم بساطة افكارهم وسذاجة افهامهم كانت الرسالة اليهم بسيطة وفقا لمستوى عقولهم وطبقا لموازين معرفتهم .

ولمّا نمى رشدهم بالتدريج بعث الله فيهم النبيّين فى الفاصلـــة بعد الفاصلة وحتما على مرور هذه الأدوار تكثروا وانتشروا وشغلوا آفاقا متباعدة من سطوح الكرة ومهمة كل نبىّ التبشير قبل الأنذار والانـذار بعد الأعذار و انزل معهم الكتاب بالحق والالف واللام فى الكتـاب للجنس والحق معناه هو الثابت الواقع الذى لا ريب فيه ولا شبهـة تعتريه ليكون الحاكم بين الناس هو الكتاب نفسه لأنه ليس المنبىّ مـن

الأمر شئ الّا ما حمله الله وأمره بتبليغه وحكومة الكتاب بين الناس هى تثبيت الحقيقة بينهم سواء كان فيهم من ادركها بفطرته او كان الجميع على خطأ فأن حكومة الواقع هى الحكومة اللازمة الاتباع و اهل الضمائر الصافية لا يتخلفون عنها ولا يختلفون فيها وانّما يتخلف المرموز الذى لا يؤمن بضميره ولا يستسلم لوجدانه لذلك اوّل من تخلّف عن مسايرته اهل الكتاب المعروفون بهذه السمة وهم اليهود والنصارى امّا اليهود فحدّث عنهم ولا حرج فى تلوّيهم على نبيّهم الأعظم موسى وتمردهم عليه فى مجالات شتّى لا تعد ولا تحصى .

وأمّا النصارى فقد أسف بهم الخضوع للعاطفة حتّى الّهوا المسيح وأمّه وعبد وهما مع الله او من دون الله فعلوا كل ذلك من بعد ما جائتهم البيّنات ناطقة بحرمة الأفراط فى العقيدة كما عليه النصارى والتفريط فيها كما عليه اليهود ومنشأ هذه التموجات فيهم عدّة دواعى مرذولة من بعضها حقد بعضهم على بعض وحسد بعضهم لبعض من اجل مجارى هذه الحياة حتى كأن العقيدة سلعة يتاجر بها ومتاع يعرض فى الأسواق طلبا للربح المادّى وابتغاء للجاه الدنيوى .

امّا الذين توجهوا الى الله وتشبثوا بالطاعة ورغبوا اليه فى الهداية وانقطعوا الى جانبه فأنه تعالى هداهم للحق الذى كان محطة نزاع وخلاف بين اهل ملتهم ونحلتهم والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ولكن مشيئته ليست اعتباطية حتى يشكل بأن ذلك تبعيض وترجيح لا تسوّغه العقول ولا يرضاه العدل الألهى وأنّما هى عن رصيد والرصيد هو ما اسلفنا من تشبث العبد بالله وطلبه المعونة منه وامّا الذين بقوا متمردين راضين بما هم عليه من النفاق والجدل و الجدال استمرّوا كذلك وحرموا من فيض البارى وهدايته .

* (أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة و لمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء و الضراء و زلزلوا حتى يقول الرسول و الذين آمنوا معه متى نصر الله الا انّ نصر الله قريب) *

الحسبان هو الظن و المثل هو ما سار عن الأنسان وعرف من قصّة او تأريخ او حادثة والبأساء في مقابل النعماء والضرّاء في مقابل السرّاء والزلزال هو التحريك والخضّ والتقليب .

ومفاد الآية هو ان الله سبحانه يريد ان يكشف للمؤمنين به عمّا يرونه في طريقهم الى السعادة من المآزم خفيفة كانت ام ثقيلة كثيرة كانت ام قليلة فأن النتائج العالية لا تأتي بدون مشقة والا رباح الغالية لا تحصل عفوا من غير كدّ فقال سبحانه لا تحسبوا ان تدخلوا الجنّة بعنوان أنها دار قرار لكم وموطن لمعيشتكم و انتم لم تتحملوا مثل ما تحمّله اخوانكم المؤمنون السابقون عليكم زمانا في طريق تمشية ايمانهم الى الأمام فقد مسّهم في مجاري حياتهم بؤس و ضرّ وتقليب بالحوادث تتناوبهم حتى يزعجهم البلاء والامتحان فيقول الرسول والمؤمنون به في مقام الاستغاثة بالله وطلب الأرخاء عنهم متى يجيئنا نصر الله حتى نخلص من هذه المشكلات ونستريح من اذايا الحياة فيجابون بالتأميل الّا انّ نصرالله قريب .

والمجيب هو امّا الرسول من طريق الوحي اليه من الله سبحانه او من طريق حسن الظن بالله وأمّا أن يكون هو الرسول والمؤمنين جميعا يجيبون انفسهم عقيب قولهم متى نصر الله بأنّ نصر الله حاصل لنا فلا نستعجل ولا نبتئس .

قيل فى مورد نزول هذه الآية اقوال (١) انها نزلت يوم الخندق لمّا حوصر المسلمون بالمدينة من كفّار قريش فدعاهم الله الى الصبر وأن لا يخرج بهم الرعب عن الأيمان طلبا للراحة ووعدهم بالنصر فى نهاية المطاف (٢) وقيل انها نزلت فى حرب احد حيث قال عبد الله بن أبّى للمؤمنين برسول الله الى متى تقتلون انفسكم لو كان محمد نبيا ماوقع عليه من القتل والأسر ماوقع (٣) وقيل نزلت فى المهاجرين الذين خرجوا من مكة وتركوا ديارهم واموالهم فرارا بأنفسهم وعقائدهم ٠

وملاك الآية هو بنيان الحياة على ميزان الجدّ والنشاط جوابا عمّن يقول ان الأعتراف بالصانع القادر الحكيم الرؤف الرحيم يقضى عليه ان يمدّ الحياة لمخلوقه هذا بما يجعل ساحة الوجود أمامه كروضة غنّاء تتفوح ازهارها وتطرّد انهارها وتغرّد اطيارها فيعيش الأنسان على محانى هذه الساحة عيشة رخية مديدة والجواب ان الله بسط هذا الوجود على اساس الاستثمار والاستنتاج وأن الاستحقاق لأىّ شىء كان من اىّ احد كان لابد وأن يكون على هذا الملاك تحريما للبطالة والكسل وأكل المال من غير جد وأكتساب وأودع الله فى الانسان هذا المعنى حتى ان العاقل يدرك من نفسه أنّ ما يأكله من كدّ يمينه هو اللذيذ المستطاب وأنّه ماله وما يأكله من كسب غيره لا ذائقة له فى عواطفه ان كان انسانا وبالنهاية الحاصل بعد الكدّ والتعب ألذّ من الحاصل بلا طلب ٠

* (يسألونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم من خير
فللوالدين و الأقربين واليتامى والمساكين وأبن
السبيل وما تفعلوا من خير فأن الله به عليم) *

المسؤل عنه هو جنس النفقة في سبيل الله على احتمال ان يكون لها جنس خاص لا يعرفونه وتكون الأثابة عليه مربوطة بخصوصيته فأجيبوا عن النفقة ذاتها وعمّن ينفقون عليه تبيينا للمطلب من كافة جهاته امّا الجواب عن النفقة فهو ان تكون خيرا يدخل على مستحقها فأن الطفيف الضعيف لا يعدّ خيرا فلابد وأن يكون مفيدا لمن يعطى له يرفع عنه حاجة ويقوم له بمؤنته ٠

وامّا المنفق عليه فسلسلة مراتب بعضها اقدم من بعض في مقام الدوران ولا شك ان الأبوين اقدم من كل انسان لما لهما على الولد من خدمة والاقارب في درجة ثانية لأنّ نظرهم الى قريبهم في مواساتهم اقرب بكثير من نظرهم الى غيره ثم سلاسل المستحقين الباقين من اليتيم وهو الذي يفقد اباه ولم يبلغ رشده فأن مثل هذا الانسان محتاج الى المساعدة لعجزه عن الكسب بنفسه ولفقده اباه الذي لو كان حيا لتكفله على كل حال والمسكين وهو المعوز الذي اخضعته الحاجة و ابن السبيل وهو الذي قعد به وقته عن ايصال نفسه الى مقرها الآمن المطمئن فهو بأحتكار الطريق له محتاج الى من يوصله الى وطنه ٠

وهذا كلّه في الانفاق المستحب امّا الحقوق المفروضة فأن انفاقها على الوالدين مع عجزهما عن اعاشة انفسهما وتيسر الامور على ولدهما فليس بجائز لأنهما من واجبي النفقة عليه وأمّا الباقون فيجوز ذلك عليهم مع الاستحقاق ٠

قيل انّ الآية نزلت فى عمرو بن الجموح وكان متمـــــولا فسأل الرسول(ص) بماذا يتصدق وعلى من يتصدق فنزلت هذه الآية ٠

ومدارها يدور على انّ كل شئ فى العالم له انتساب الى شخص او اشخاص وبغفلة صاحبه عنه يضيع او يتلف وبتوجهه اليه يسلم ويستفاد منه ويسدّ خلّة ويقوم بحاجة يجب حفظه والأنفاق عليه بسهر او رعايــة وخدمة بدن او بذل مال فآباء الأنسان واولاده العاجزون يجــب الانفاق عليهم حتى لا يتلفوا ومملوكه من انسان وحيوان كذلك فــاذا امتنع أجبر على بيعه او النفقة عليه وهكذا شجرته المغروسة يجب ان يتعاهدها لأنها بالغفلة عنها و اهمالها تتلف فيكون من باب اضاعـة المال و اضاعة المال حرام من كل وجه و اصولا بقاء العالم الصناعـى والاجتماعى مرهون بحسن اشراف البشر عليه ومتى اعتزّ الانسان براحته او بفنّه الذى يعرفه او بدرهمه الذى يجده فقد الوى بتعادل المجتمع و اورثه خللا فى توازنه وبذلك تنهار الحياة وتعود شقية على كل احـد حتى الواجد للزاد والراحلة فأن وجدانه لزاد نفسه لا يفيد اذا كــان موضع نفاسة المتنافسين ورقابة المتراقبين ٠

* (کتب علیکم القتال وهو کره لکم وعسی ان تکرهوا
شیئا وهو خیر لکم وعسی ان تحبّوا شیئا وهو
شرّ لکم واللّه یعلم وانتم لا تعلمون) *

قوله کتب علیکم ای قرّر وقنّن وفرض والمراد بالقتال هنا ماکان لأحد امرین امّا الدفاع عن الحیثیة ومصونیة الکرامة وحفظ الأموال والأعراض والدماء والأوطان وامّا الجهاد لأجل تثبیت کلمة الحق واقامة النظام العادل بین الناس وطرد الموبقات والخرافات والفساد عن ساحة عزّ البشریة ولا شكّ ان کل واحد منهما اصل أصیل لا تطلع الحیاة بدونه الّا شوهاء الطلعة ساقطة الکرامة ولا تکون الّا کحیاة الحیوان الهامل الذی یعدو وینزو بالمیل البعید عن المنطق المترهل فی کل اشیائه والأنسان بطبیعته یحبّ الحیاة حبّا لا یقاس بمقیاس وهو معذور فی ذلك لوکانت حیاته جامعه لأطراف المحاسن من کل جهه

امّا حبّه للحیاة الفاقدة للکرامة المعوزة من الأحترام البعیدة عمّا تحاوله الروح فهو حب ساقط لا قیمة له ومنشأه السقوط والأمتهان والرضاء حتی بالمرذول من المعیشة والأنسان العاقل الحرّ المؤمن بمبادئه الصادقة لا یکره القتال لتثبیت وجوده وعقیدته وانّما یکره ذلك الغثاء من الناس ومن لا تصمیم عنده والأشارة بالآیة الی هذا الفریق لأنه یختار لنفسه الأدنی وهو جرّ الانفاس بالفعل علی ما هو خیر وحیاة فضلی فالأنسان الفاقد للشهامة یحب الحیاة ولو مع الذل ولا شكّ ان ذلك شرّ له ویبغض المبارزة واضطرار الطرف الی احرج المضائق حتی یردّه الی الأستسلام او السلام وهی خیر .

واللّه الحکیم یعلم کل تیك الفضائل وهذه الرذائل والأنسان قد

يعلمها كما يعلمها اللّه ولكن يلوى عنها صفحا ولذلك ينزّل منزلة الجاهل ويخاطب خطابه .

و فى الخلاصة يقال ان القتال قد يكون كناية عن كل مكروه للنفس غير محبوب لها لتكون دائرة الجهاد والدفاع اوسع من القتال الذى هو خروج الى ساحة الميدان ومصارعة الأقران ولا شكّ ان الأنسان الكاسل يخلد الى كل شىء قذر لا حبا بالقذارة ولكن بناء منه على ان الأمور تصلح له بعد حين عفوا من غير تعب وهذا امر من مستحيلات العادات امّا الشهم فهو من بدء امره لا يدع على نفسه طريقا للذلة والهوان والقذارة ولا شك ان الشهم اذا تكثّر افراده فى المجتمع نجح وكلّما قلّ افراده سقط ويتسفّل به السقوط حتى يعود اذلّ من كل شىء وأحقر وهذا المعنى ممّا يكرهه كل احد وأن اصاخ له مرغما .

* (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير و صدّ عن سبيل اللّه و كفر به والمسجد الحرام و اخراج اهله منه اكبر عند اللّه والفتنة اكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم ان استطاعوا و من يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة و اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) *

ذكر كتّاب السيرة و اهل الحديث والتفسير ان رسول اللّه(ص)بعث سرية من المسلمين تحت امرة عبد اللّه بن جحش وذلك قبل قتال بدر فأنطلقوا حتى هبطوا مكانا يقال له نخلة فوجدوا به عمرو بن الحضرمى فى تجارة لقريش يسوقها وكان ذلك فى يوم مشتبه بين آخر يوم من جمادى الثانية و اوّل رجب (ورجب من الأشهر الحرم) فأختصم المسلمون فيما بينهم فقال قائل منهم هذه غرّة من عدوّ وغنم قد سنحا لكم ولا ندرى انّ هذا اليوم من الشهر الحرام او غيره وقال آخر لا نعلم هذا اليوم الّا من الشهر الحرام ولا نرى لكم ان تستحلوه لطمع فغلب على الأمر الذين يريدون عرض الحياة الدنيا فشدّوا على ابن الحضرمى فقتلوه وغنموا ما معه فبلغ ذلك كفّار قريش فركب وفد منهم حتى قدموا على النبىّ(ص) فقال أيحل القتال فى الشهر الحرام فأنزل اللّه هذه الآية .

و اعراب قتال فيه انه مجرور على البدلية من الشهر الحرام لأن الشهر الحرام مشتمل عليه كما قال الآخر وما كان قيس هلكه هلك واحد

وقتال فيه كبير مبتدأ وخبر بتقدير قل القتال فيه جرم كبير وارتفع صدّ على الأبتداء وعطف عليه كفر به واخراج اهله منه والخبر عن ذلك قوله اكبر عند الله وجرّ المسجد بالعطف اما على الشهر الحرام او على سبيل الله وتقدير الآيه هكذا يكون يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام والمسجد الحرام فقل فى جوابهم القتال فى ذلك ذنب عظيم لكن الصدّ عن سبيل الله والكفر بالله واخراج اهل المسجد الحرام منه اكبر خطيئة من القتال فى الشهر الحرام والمسجد الحرام ٠

والمراد بالصد عن سبيل الله اما التعرض للمؤمنين بالله المسلمين له فى طرقهم ومعابرهم او صدّ من يريد الأيمان عن الأيمان او منع كل من يريد التظّاهر بوظائف الاسلام عن الظهور بها والصد عن المسجد الحرام معناه منع المسلمين عن الدخول اليه والزيارة له :وأخراج اهله منه طردهم عن مساكنهم بسوء المعاملة معهم حتى يلتجؤا الى الفرار عن اوطانهم ٠

وقوله تعالى والفتنة اكبر من القتل معناه ان فتنتكم ياكفار قريش للمسلمين المقيمين فى دياركم حتى ترجعوهم كفّارا اكبر جرما من قتل انسان واحد كافر وهذا كله فعلتموه وتنتقدوننا على ارتكاب بعض افرادنا شبهه ما كان لهم ان يرتكبوها ومن هنا روى ان النبىّ (ص) عقل ابن الحضرمى وداه ٠

ثم التفت سبحانه الى المسلمين فحذّرهم بوائق المشركين وقال لا يزال المشركون يقاتلونكم حتى يضطّروكم الى الارتداد عن دينكم الذى دنتم به مهما استطاعوا سبيلا الى ذلك ولتعلموا انّ من يرتد منكم عن دينه ويمت وهو مرتد فقد حبطت اعماله الصالحة التى عملها قبل الارتداد ومهما عظمت وضخمت وحشر مع اصحاب النار المحكومين

بالخلود فيها .

* (انّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل اللّه اولئك يرجون رحمة اللّه واللّه غفور رحيم) *

الهجر هو القطع والترك والمهاجر عن وطنه فى سبيل العقيدة يترك وطنه وقومه والقاعدة أن يقال هاجر (بصيغة اسم الفاعل) لا مهاجر لأن المفاعلة انما تقع بين اثنين وهنا انّما صح ذلك لأن الهجر يتصور من طرفين ايضا فأن الأنسان الذى يهجر قومه كذلك قومه يهجرونه بالملازمة وان لم يكن هجرهم له عن رغبة منهم .

واللّه سبحانه فى هذه الآية ذكر من موجبات الرحمة ثلاثة امور الأيمان به وبمن ارسل وما انزل والهجرة عن ديار الكفر ترفيها عن العقيدة وابرازا لها والجهاد فى سبيله فهؤلاء ينتظرون رحمة اللّه ان يوافوها وتوافيهم يوم الوفود عليه كما ان هذه الأمور مجتمعات ومنفردات من اسباب المغفرة للذنوب ولكن على تفصيل ولازم ما اسلفناه ان فاقد الأيمان باللّه او واجده مع الغفلة عنه كما هو شيمة الكثيرين او ذاكره لكن مع عدم المحافظة على كيانه وشرفه ورفعته واظهاره والتجاهر به وعدم المجاهدة فى سبيل حفظ كرامته باللسان او القدم او القلم او الدرهم او بالنفس فهذا لاقيمة له ولا طريق له فى رجائه رحمة اللّه لأن الذى يرجو ان يؤثر رجاؤه فى احد كما يزوى فى نفسه لابدّ له ان يتعرّف عليه وان يرتكب مايقرّ به اليه ويبتعد عمّا يبعده عنه كالتجافى عن رفقة اعدائه ومجانبة اوليائه .

* (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير
ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما ويسألونك
ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبيّن الله لكم
الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة
ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان
تخالطوهم فأخوانكم والله يعلم المفسد من
المصلح ولو شاء الله لأعنتكم ان الله عزيز حكيم) *

اصل مادة الخمر هو الستر ومنه اخذ الخمار للمرءة والمسكر باعتبار تغطيته للعقل قيل خمر والميسر مأخوذ من اليسر فأن الغالب فيه قد تيّسر له ما حاول من الغلبة وحيازة المال والميسر هو القمار ٠

تعرّض الله سبحانه فى هذه الآية للجواب عن اسألة ثلاثة وجّهت الى نبيّه(ص) ،امّا السؤال الأوّل :فهو عن حكم شرب المسكرات والمقامرة بأيّة آلة حصلت وجوابه ان فى الخمر والميسر اثما والأثم انما يكون فى الحرام اذ لا اثم فى غير محرّم واما المنافع التى فيها لصانعى الخمر وبائعيه والرهان التى يستفيدها الغالب فى المقامرة فهى منافع ساقطة لما يترتب عليها من مضار عديدة ولا تقصر عن المنافع التى تعود للفواحش وما متّ متّها ، واما مضارّها اخلاقيا و اجتماعيا فلا تستقصى و واحد منها فى شارب الخمر جنونه وما يأتى عن جنونه من هيضات عارمة و فى المقامر تلف امواله فى غير جهة معقولة و اتلاف مال الآخرين كذلك و لدعوته الى البطالة نوعا و جرّه الى المنازعة كثيرا وكونه مدعاة للفقر والانهيار الى ما سوى ذلك ٠

واما السؤال الثانى :فهو عمّا ينفقه محبّ الاحسان ومريده فأجيب

بأنه العفو وقد تكثرت الأقوال فى الترجمة عنه فقيل انه ما يفضل عــن اهله وعياله ينفقه ولا يحتكره وقيل انه ما توسط بين الأسراف حتــى لا يبقى خالى اليد مخذولا وبين الأقتار حتى لا يعدّ ما اعطاه بمنزلـــة العدم فى عقمه عن الفائدة وقيل انه ما فضل عن قوت السنة وقيل انــه الطيب من المال والفاضل منه وكلّها متقاربة فى الملاك ٠

وامّا السؤال الثالث: فهو عن العمل فى اموال اليتامى والامتــزاج بأموالهم والمخالطة لهم فى المأكل والمشرب فأن كل من كان عنده يتيم فيما سبق على انزال قوله: ولا تقربوا مال اليتيم وأن الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما ،كان ممتزجا به مختلطا معه فى المأكل والمشرب والتصرف فى المال فلما نزلت هذه الآيات انطلق كل من كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعامه وشرابه عن شرابه و اشتدّ ذلك على اليتامى وكافليهم فسألوا عـن حكم ما طرق أسماعهم من تلك الآيات فنزلت هذه الآية ومفادهـــا ان اصلاح اموالهم وترتيبها وتنميتها من غير اخذ اجر عليها خير وأحسان لا شك فيهما: وامّا اذا خالطتموهم وشاركتموهم وأصبتم منهم عوضا و اجرا على قيامكم بمصالحهم فهم اخوانكم يجوز لكم ان تستفيدوا منهم كـــما يستفيد الأخ من اخيه ولكن فوائد متهاودة والله يعلم المفسد فى اموالهم من المصلح اى انه تعالى يعلم من يرد الى هذه الخطة لســـوء الاستفادة و من يرد اليها للأحتساب والتفضل والخدمة الأجتماعية ٠

ولو شاء الله لأعنتكم: اى اوقعكم فى المشاق بالنسبة الى قيومتكـم على اليتامى فأوجب عليكم عزل طعامكم عن طعامهم وشرابكم عن شرابهم ولكنه لم يفعل تيسيرا بكم وبهم ان الله عزيز لم يقسره على تيسيره قاسـر حكيم لا يشرع الّا ما تدعو اليه الحكمة ولا تحمله قدرته على تشريع ما لا يتكافأ مع المنطق والحكمة كما يفعله القادرون من الازعاج والأعنات ٠

* (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ و لأمة مؤمنة
خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين
حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو
اعجبكم اولئك يدعون الى النار والله يدعو الى
الجنّة والمغفرة بأذنه ويبيّن آياته للناس
لعلّهم يتذكرون) *

النكاح يقع على كل واحد من العقد والوطء والمشرك من عبد مع الله غير الله وعدّد الآلهة ومنابع التأثير ، هذه الآية تفيد بوضوح حرمة نكاح المؤمن للمرأة المشركة وحرمة انكاح المشرك بالمرأة المؤمنة و ذلك بحسب الظاهر مورد اجماع اما اذا اعتبرنا اهل الكتاب من يهود ونصارى مشركين باعتبار انهم ينسبون لله الأبناء اذا كانت هذه النسبة تفيد شركا فى المبدأ فأن المسألة لا تكون ذات لون واحد بين الفقهاء فأن بعضهم يجيز للمؤمن نكاح الكتابية ولكن الذى يلوح منهم حرمة انكاح الكافر مطلقا بالمرأة المؤمنة .

ويجىء الكلام فى قوله تعالى ولأمة مؤمنة خير من مشركة هل ان المنظور منه هو ان نكاحكم للأمة المؤمنة خير من نكاحكم للمرأة المشركة حتى يقال هل يجوز نكاح الأحرار للأماء حتى مع الطول او ان المنظور به ايقاع المقارنة بين الأمة المؤمنة والحرّة المشركة وأن الأولى بسبب ايمانها خير من الأخرى لآفة شركها : الحقّ هو الثانى : بلا أرادة تعرض لجواز نكاح الأمة حتى مع الطول .

ولا شكّ ان كل ذى عقيدة يهوى تسييرها على من يستطيع ان يهيمن عليه فالزوجة المشركة تحاول اقناع زوجها المؤمن بعقيدة الشرك

وكذلك الزوج المشرك يحاول اقناع زوجته بأن تشرك والدعوة الى الشرك دعوة الى النار لكن هيمنة الزوج فى الأعم الأغلب اكثر من هيمنة الزوجة وقد تكون هى مع وقوعها منه موقع الرغبة والاستحسان اشدّ تأثيرا منه ٠

اما اللّه سبحانه فأنه يدعو كل احد الى الأيمان السالك بصاحبـه الى الجنة والعبد المؤمن مثل اللّه فى هذه الدعوة لأنه متأثر بالأيمان به ومتخلق بأخلاقه ودعوته سبحانه الى المغفرة دعوة الى ما يسبّبهامن التوبة والطاعة : بأذنه : اى بما يأذن باتباعه من الشرائع والطرائق ويبيّن علاماته الهادية للناس لعلّهم عندما يشاهدونها يتذكرون تعديهـم عنها وانحرافهم منها ويعودون الى البابهم وما فطرهم اللّه عليه مـن الأيمان به ٠

وحصيلة البحث ان كل شيء فى جوهره وغاياته الشريفة وأن لم يكن مطلّا الظاهر خير من المزوّق الجميل الحسن المنظر اذا كان تافـه الجوهر قليل الحظ من النتيجة ولا يجوز للانسان ان تستميله التزويقات الجوفاء بدل الحقيقة الراهنة وعلى هذا فالمؤمن الصافى السريـرة لا تسومه قيمة لأنه اغلا وأعلا منها والمشرك الجميل الوسيم القذر الباطـن لا تسومه قيمة لأن كل قيمة تفرض ولو كانت هابطة هى اعلا منه وأغلا ٠

* (ويسألونك عن المحيض قل هو اذى فأعتزلوا
النساء فى المحيض ولا تقربوهنّ حتى يطهرن
فاذا تطهرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله انّ الله
يحبّ التوّابين ويحب المتطهرين) *

يقال حاض الحوض و فاض اذا سال ماؤه كما يقال حاضت الشجرة اذا سالت رطوباتها والمحيض امّا مصدر ميمى او اسم زمان او مكان وطهرت فرغت من الحيض وتطهرت اسبغت عليها الطهور ٠

ومفاد الآية يتضمن حكم الحيض من حيث جواز المقاربة وعدمه ولا ارتباط له بالسؤال عن حقيقته وأنه لأية علة يكون فمعنى يسألونك عن المحيض يجوز ان يكون يسألونك عن حكم الحيض نفسه اوعن زمانه او عن مكانه فقل فى الجواب يا محمّد الحيض قذر تقذفه الطبيعة لصالح البدن فأعتزلوا ايّها الرجال النساء اذا حضن في خصوص المقاربة وفيما سوى ذلك يجوز الاختلاط بهن فى المأكل والمشرب والمضاجعة والاستمتاعات ما دون الوقاع ولا تقربوهن بالجماع حتى يطهرن من الحيض فاذا فرغن منه جاز وقاعهن على كراهة امّا اذا اسبغن على انفسهن الماء وأغتسلن فاتوهنّ من غير حزازة لكن من النواحى المباحة من الله بأن لا تكون المرءة صائمة او حاجّة او معتكفة او مريضة مرضا يضرّ به الوقاع ونظير ذلك : انّ الله يحبّ التوابيّن الراجعين عن الخطأ الى الصواب المتنزهين عن الأقذار ٠

واحكام الحيض كثيرة وأنما تعرضت الآية لحكم الوقاع فيه وخلاصة بعض احكامه ان اقلّ الحيض ثلاثة ايام واكثره عشرة فيما بين الخروج من السنة التاسعة من عمر الأنثى الى تمام الخمسين سنة من العمر لغير

القرشية والنبطية امّا هاتان ففيهما خلاف هل انهما تيأسان كالسائرات او تستمرّان تحيضان الى تمام ستين سنة من اعمارهن ومن احكام الوقاع فيه كما هو وارد في السنّة لكنه مورد خلاف بين الفقهاء انّ على المواقع في اوّله دينارا وفي وسطه نصف دينار وفي آخره ربع دينار .

ويحرم الصوم والصلاة عليها مادامت محكومة بالحيض غير انها تقضي الصوم اذا طهرت ولا تقضي الصلاة كما يحرم عليها دخول المساجد ومسّ كتابة القرآن الى غير ذلك ، وزمان الحيض هو زمن العادة او ما حكم الشرع بكونه حيضا ولو تجاوز عن العادة ، ومكان الحيض هو الفرج .

* (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انّى شئتم وقدّموا لأنفسكم واتقّوا اللّه واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين) *

الحرث هو المكان الذي يحرث بالآلة اي يثار بها فتارة لأجل الزرع واخرى لأجل الأصلاح والأعداد والمرءة كذلك تؤتى لأجل النسل ولأجل الاستمتاع بكافة انحائه وأنّى معناها من اين وهو يدلّ على تعميم الاستمتاعات وبما ان شهوة الوقاع وسائر المتع في المرءة من اعظم الشهوات عند الأنسان حذّر اللّه الرجل كما حذّر المرءة ايضا بوجوب التحفظ عمّا لا يحلّ بقوله وقدّموا لأنفسكم من الخير ما يكون ذخيرة ليوم معادكم وتأمينا لمستقبل حياتكم فأن المنساق مع شهوته لا كرامة له في الدنيا كما لا آخرة عنده واتقوا اللّه في اوامره ونواهيه واعلموا انكم ملاقوه يوم القيامة وأنه محاسبكم على ما اخذتم وتركتم وبشّر المؤمنين القائمين بواجب الأيمان انّ لهم الجزاء الحسن والمنقلب الطيب .

* (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم) *

العرضة المعترض (بزنة اسم المفعول) وهو الذى يعرض فى الكلام وغيره كثيرا يقال فلان عرضة لى اى يعرض لى فى اغلب اوقاتى والهدف من الآية ان الانسان يلزمه حين يسترسل فى كلامه ان لايجعل اتكائه على ذكر الله مقسما شبيه المؤيد لصحة كلامه بذكره فأنه اذا اعتاد ذلك كثر كذبه فى يمينه وابتذل المقسم به فى نظره وقد ورد عن ابى عبد الله الصادق عليه السلام انه قال لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين فأنه سبحانه يقول ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ٠

وأن تبرّوا يجوز ان يكون بمنزلة المصدر المنسبك المجرور بحرف جر محذوف تقديره لأجل بركم واظهار صدقكم فأن الصدق من التقوى و من اصلاح الناس ايضا فأن الصادق متق ومصلح بقوله وعمله بين الناس والناس يقبلون منه متى شخّصوه صادقا غير كاذب ولا مرموز فيكون المعنى على هذا التقدير بهذا الترتيب ولا تنصبوا الله علما فى ايمانكم التى تريدون بها تثبيت مقاصدكم لأجل ان تبرزوا انفسكم مبرز البررة الصادقين المصلحين فأنكم بكثرة تناولكم له بالسنتكم تعتادون على ذكره فى كل شىء فى الشريف والسخيف من المقاصد ولا يبقى له احترام فى انظاركم و فى ذلك انزال له عن مقام قدسه الذى يستحقه عليكم كما هو ثابت له واقعا والله سميع لاقوالكم الصادقة والكاذبة الشريفة والسخيفة عليم بمنوياتكم يجازيكم على موجب علمه بكم ٠

وهذا كالتهديد للناس فى ان لا يجعلوا الله عرضة لأيمانهم بل ولا يقسموا لأجل تثبيت مقصد بل ولا يتساهلوا فى مجرى كلامهم حتى

يكون فيه الغثّ والسمين والصادق والمشوب بالكذب بل اللازم المؤكد عليهم في كل كلام مراعاة الواقع الثابت والحق الصائب والشريف الفاضل فأن لسان الأنسان معيار كماله ونقصه وقيمة وجوده منوطة به .

* (لا يؤاخذكم اللّه باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم واللّه غفور رحيم) *

اللغو من كل شئ هو الذى لا طائل تحته ولا فائدة فيه وعدمه خير من وجوده واليمين اللاغية هى التى يستعملها الأنسان لا بقصد اليمين ولكن كأتكاء لكلامه كقول القائلين فى مجارى كلامهم لا واللّه وقد يكونون غير ملتفتين اليها حين جريها على السنتهم كما انها لا مفهوم لها عند السامعين لها منهم لأعتياد ابتذالها عند المتكلم والسامع ولا شكّ ان مثل هذه الأيمان ليست مورد مؤاخذة فأن المؤاخذة انما تكون على المقصود الذى يجاء به لأجل الهيمنة على الطرف وأخضاعه لقبول قول القائل وأنه صادق فيما يقول كما لا شكّ ان ابتذال المقسم به فى كلام المتكلم فيه نوع استخفاف وأن كان غير مقصود ومن هنا اعتبره اللّه كالذنب وأن كان مغفورا من ناحيته تعالى ثم ذكر سبحانه انه حليم على عباده لا يؤاخذهم على البوادر كيفما تكون وأنما يؤاخذهم على البادرة المقصودة المرصودة التى يراد بها سوء .

* (للذين يؤلون من نسائهم تربص اربعة اشهر
فأن فاؤا فأن الله غفور رحيم وأن عزموا الطلاق
فأن الله سميع عليم) *

الايلاء يمين على ترك وطء الزوجة اكثر من اربعة اشهر اضرارا بها والتربص الانتظار والفتنة الرجوع والعزم الارادة والطلاق حلّ عقدة النكاح :الذى يحلف على ترك وطء زوجته اقلّ من اربعة اشهر لا يسمّى موليا شرعا وانما هو حالف بيمين متعارفة تلحقه احكامها وكذلك من يحلف على ترك وطئها اكثر من اربعة اشهر استصلاحا لمزاجها او طفلها او لحال نفسه فأنه ليس موليا شرعا وانما هو مقسم بيمين سائرة امّا الذى يحلف على ترك وطء زوجته اكثر من اربعة اشهر لأجل ان يغيظها ويضرّها وينتقم منها فأن مثل هذا يقال له مولى شرعا .

اذا فمن شريطة الأيلاء الشرعى ان يكون الزمان المحلوف على ترك وطء الزوجة فيه اكثر من اربعة اشهر وأن يكون ذلك لأجل ازعاجها واغاظتها وتحريك حميّتها فاذا توفرت هذه الشروط كان للمولى من الحق أن لا يطالب ولا يزعج الى خلاف يمينه مدة اربعة اشهر لأنّ لكل زوج من الحق ان لا يطأ زوجته فيما دون اربعة اشهر وهو حق عام للمولى وغير المولى امّا اذا انتهت الاربعة الأشهر الزم بالرجوع الى زوجته او تطليقها .

فأن صادف الزامه بالرجوع اليها انتهاء المدة المحلوف عليها كأن حلف ان لا يطأها اربعة اشهر وعشرة ايام مثلا وانتهت المدة قبل الالزام فلا كفارة عليه لأنه برّ بيمينه وأن صادف ذلك والمدة باقية ولم يرد الطلاق فلابدّ من الكفارة وهى كفارة يمين ،والرجوع من القادر الجماع

ومن المعذور اظهار العزم عليه متى قدر وأن عزم الطلاق فله ذلك ٠

وقوله سبحانه عقيب الفئة بعد الأيلاء فأن اللّه غفور معناه ان اللّــه يغفر له بادرته مع زوجته وهى اغاظتها واغضابها والحلف على تـــرك وطئها بأعتبار أن الفئة منه ندم واستقالة ٠

وقوله عقيب العزم على الطلاق فأن اللّه سميع عليم معناه ان اللّــه يسمع ما يجريه وينشأه من صيغة الطلاق ويعلم دخيلة صدره مع زوجتـــه وأنه لا يهواها ولا يريدها ولذلك اختار شقّ الطلاق عندما خيّر بـــه وبالرجوع ٠

* (والمطلقات يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء ولا يحلّ
لهن ان يكتمن ماخلق اللّه فى ارحامهـــنّ ان
كنّ يؤمنّ باللّه واليوم الآخر وبعولتهنّ احـــق
بردهنّ فى ذلك ان ارادوا اصلاحا ولهنّ مثل
الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة
واللّه عزيز حكيم) *

المطلقة اسم مفعول من طلّقها اى اوقع عليها صيغة الطلاق بقوله انت طالق فهى مطلقة قد حلّ قيد نكاحها من المطلّق ورفع رابـــط الاتصال بينها وبينه والتربص الانتظار واصل القرء الوقت الجارى على العادة فيقال هبّت الريح لقرئها اى لوقت عادتها ووقت العادة يصلح للحيض والطهر جميعا لأن النساء لهنّ فى المعمول عـــــادات لأطهارهن وعادات لحيضهنّ فالقرء اذن من الألفاظ المشتركة بحسب المتعلق والبعل هو الزوج والأصل فى البعولة الأرتفاع ومنه قوله تعالى ــ أتدعون بعلا ــ اى ربّا ٠

وعنوان المطلقة ينطبق على اقسام من النساء المطلقة الصغيرة والمطلقة فى زمن اليأس والمطلقة قبل الدخول والمطلقة مع الحمل والمطلقة بعد الدخول من دون حمل والمطلقة ثلاثا والمطلقة ولو مرة واحدة بنحو الخلع او المباراة والمطلقة التى تحيض والتى هى فى سنّ من تحيض ولا تحيض وليس قوله سبحانه والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثا قروء ممّا يشمل هذه الاقسام كلّها بل انما يشمل غير الصغيرة وغير الآيس وغير الحامل مع حيضها والدخول بها سواء كان طلاقها رجعيا ام بائنا بخلع او بثلاث طلقات فأن الصغيرة والآيس لا عدة عليها وعدة الحامل وضع حملها وعدة التى لا تحيض وهى فى سنّ من تحيض ثلاثة اشهر و بيان احكام هذه الأقسام بعضه يأتى فى آيات أخر وبعضه الآخر قد تكفلته السنة .

وقد اختلف العلماء فى القروء هنا هل هى الأطهار او الحيضات وبكل قائل فالقائل بالاطهار يرى البياض بين الطلاق وأول حيضة تحيضها المرأة عقيب الطلاق قرء والقائل بالحيضات يرى القرء فى حيضها اوّل مرة بعد الطلاق ولاحكم لذاك البياض عنده من حيث (القرئيّة) ويتفاوت بذلك انتهاء العدة فبمجرد رؤيتها الدم الثالث تخرج من العدة بناء على الأطهار ولا تخرج منها الأبتمام الحيضة الثالثة بناء على الحيضات وتحقيق المسألة فى الفقه .

وقوله يتربصن خبر بمعنى الأمر اى لا بدّ لهنّ من التربص ثلاثة قروء حتى يخرجن من العدة ،ولا يحلّ للمطلقات ان يكتمن ما خلق اللّه فى ارحامهن من حمل او حيض او طهر فأن فى وجود كل واحد من ذلك وعدمه حكما خاصا عليها وقد يسرى الى زوجها بوجوب النفقة عليه وأتلاف حقه من الرجعة فالمطلقة البائن وأن لم تجب لها النفقة على

زوجها مدة عدتها الآ انها اذا كانت حاملا استحقت ذلك على الأقوى والمطلقة الرجعية الحامل قد يكون أمد عدتها اطول من الاقراء بمرآت وهكذا يختلف حكم المطلقة بتلاحق حيضها وتباطئه من حيث زيادة المدة التى تستحق نفقتها وقلتها وبقاء مجال للرجوع وعدم ذلك .

وبما ان موضوع الحمل والطهر والحيض امر لا يعرف الآ من جانبها كان القول قولها فيه الآ ان يثبت خلاف ما تدعيه ولذلك حذرهن اللّه من ان يسكتن او يقلن ما هو خلاف الواقع بقوله تعالى ان كنّ يؤمنّ باللّه واليوم الآخر ، وبعولة المطلقات احق بردهن ، هذا الضمير ليست فيه صلاحية الرجوع الى كل مطلقة من حكمها ان تتربص ثلاثة قروء لأنه انما يصلح ان يرجع للمطلقة التى يجوز الرجوع فيها وهى غير المطلقة ثلاثا وغير المختلعة والمباراة اللاتى حكمهن فى الاعتداد التربص ثلاثة قروء فأن المطلقة البائنة المحكومة بالاعتداد ثلاثة قروء لا يجوز الرجوع بها فى حال انها من مشمولات قوله والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء فضمير بردهن انما يرجع الى فريق من المطلقات المزبورات وهى المطلقة غير البائنة ومن الرجعيات من ليست بمدخولة لهذه الآية وهى المطلقة الحامل فأن تربصها بوضع الحمل لا بالقروء وما دامت حاملا يجوز الرجوع بها .

وقوله تعالى (فى ذلك) قيد لحق الرجوع بمعنى ان الرجوع انما يكون له محل فى مدة التربص لا خارجها فأنها اذا تربصت ثلاثة قروء وانتهت منها انتفى هذا الحق فليس للزوج ان يرجع ، ثم ان الرجوع بالزوجة تارة يكون لأجل الندم واخرى لأجل اللجاجة وايقاع المضرّة بالطرف كأن يرجع بها ويهملها اضرارا بها او لداع آخر غير مشروع فأن كان الرجوع للندم كان فعلا جائزا وضعا وتكليفا وأن كان للمضارة كان

حراما تكليفا الآن علقة الزواج تعود به ان قلنا ان النهى فى المعاملة لا يفسدها وهذا معنى قوله تعالى (ان ارادوا) بالرجوع (اصلاحـــا) بينهم وبين ازواجهم ٠

وقرّر سبحانه فى آخر الآية حكم ما للزوجة على الزوج وما للزوج على الزوجة من الحقوق فقال (ولهنّ) على ازواجهن من الحقوق المادية والأخلاقية (مثل الذين عليهن) لأزواجهن (بالمعروف) اى بالمتداول فيما بين الازواج والزوجات من اولى العقل والانصاف فان هؤلاء هـم المعيار فى هذه المطالب لا الشاذون والشاذات ٠

هذا مابه الاشتراك بينهما وينفرد الرجل بان له مزية عليها يختصّ بها وهى وجوب طاعة الزوجة له فى نصيحته لها وأرشاده ايّاهـــا لأن الرجل العاقل الورع الذى هو المعيار فى هذا المقام وغيره اعظم حنكه من المرءة واوفر شعورا وابعد تأثرا بالعاطفة ٠

واللّه سبحانه فيما قرّر من هذه الأحكام غير مغلوب عليها كجملة من المقننين الذين يوشّحون القانون بالرغم عليهم من حاكمية عليا فوقهـم وحكيم فى توظيفها قد راعى فيها وجوه المصالح لعباده تأمينـــا لسعادتهم ٠

وجاء فى الأثر ان امرءة معاذ قالت يارسول اللّه ما حق الزوجة على زوجها قال أن لا يضرب وجهها ولا يقبّحها وان يطعمها ممّا يأكـل ويلبسها ممّا يلبس ولا يهجرها ، وروى ايضا عنه (ص) انه قال اتقوا اللّه فى النساء فأنكم أخذتموهن بأمانة اللّه وأستحللتم فروجهن بكلمه اللّه ومن حقكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم من تكرهونه فان فعلن ذلـك فاضربوهنّ ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعـروف والحديث فى ذلك لا يحصى ٠

* (الطلاق مرتان فأمساك بمعروف او تسريح
بأحسان ولا يحلّ لكم أن تأخذوا ممّا آتيتموهنّ
شيئا الّاأن يخافا الّا يقيما حدود اللّه فأن
خفتم الّا يقيما حدود اللّه فلا جناح عليهما فيما
افتدت به تلك حدود اللّه فلا تعتدوها ومن
يتعد حدود اللّه فأولئك هم الظالمون) *

المرّة قطعة من المرور فهى تقال فى مقابل الاستمرار والأمساك هو القبض والتسريح هو الأرسال والخوف قد يستعمل بمعنى سببه فأن سببه قد يكون ظنا وقد يكون يقينا ·

تفيد الآية بوضوح ان الانسان انما يستطيع ان يوقع الطلاق بزوجته مرتين بحيث يتمكن من ورائهما أن يعيدها الى حباله فأذا اوقع بها طلاقا ثالثا سدّ بابها عنه مادامت كذلك بلا فرق بين ان يوقع بها الطلاق ويرسلها حتى تخرج من عدتها ويتزوجها من جديد بعقد جديد او يراجعها فى اثناء العدة وقوله تعالى (مرّتان) صريح فى ان الطلاق المتعدد انما يقع بصيغ متعددة فلو اوقع مندمجا بأن قال المطلق انت طالق مرتين او ثلاثا لم يقع تعددا مع الخلاف فى صحة الواحد منها ايضا بين الفقهاء (فأمساك بمعروف) يعنى انّ المطلق بعد المرتين اذا ارجعها الى حباله فمن لازمه : لازم كل زوج بالنسبة الى زوجته : هو الأمساك بالمعروف لا الاضرار واللجاجة فان ذلك حرام لا يجوز (او تسريح بأحسان) فان وجد من نفسه انه لا يقوم بواجب حسن المعاشرة وجب عليه ان يطلقها محسنا لها بان لا يزاحمها على ما كان اعطاها من رياش او لوازم معاش ويجهد نفسه فى ارضائها او تقليل تغيظها عليه من ناحية تطليقه لها وفراقه ايّاها ·

(ولا يحلّ لكم) ايها الازواج المطلقون بدافع انفسهم لزوجاتهم (ان تأخذوا) وتستعيدوا الى انفسكم (ممّا آتيتموهنّ) من صداق وغيره امّا الصداق فأنهنّ يملكنه بمجرد التمكين والتصرف وامّا غيره من الهبات او ما أعطى لهن من باب كسوة ونفقة فكذلك الاّ فى الهبات غير المعوضة على خلاف فيها : شيئا : اى ولو كان حقيرا فى كمّه وكيفه (الاّ أن يخافا) هنا التفات من الخطاب مع الجماعة الى الأثنين الغائبين اللذين احدهما الزوج والآخر الزوجة (الاّ يقيما حدود اللّه) اى يتخلف كل من الزوج والزوجة عن القيام بوظائفه اللازمة عليه فى مقابل طرفه وهذا التخلف تارة يكون لكراهة كل منهما صاحبه وأشمئزازه منه و فى الشرع يقال لمثل هذا الطلاق مع هذه الاحتفافات مباراة و اخرى يكون لكراهة الزوجة فقط امّا الزوج فهو يرغب فى ادامة زوجية طرفه ولكن لا يتهيأ له ذلك وهذا يقال له خلع (فأن خفتم) ياجماعة الأزواج (الاّ يقيما) اى الزوجان من فريقكم (حدود اللّه) اللازمة لهما فى أطار الزوجية (فلا جناح عليهما) على الزوج فى الأخذ وعلى الزوجة فى البذل (فيما افتدت به) نفسها ليطلقها زوجها والآية مطلقة فى كمّ الفدية وكيفها لكن يجب فى كيف ما تفتدى به ان يكون ممّا يملكه المسلم ويصح منه بذله وامّا الكمّ فيه ففى مقام الخلع تجوز الزيادة على مادفع اليها من صداق لأنها هى الكارهة المريدة للفراق و فى المباراة لا تجوز له الزيادة اذا طالب بها وتجوز لو ابيحت له .

(تلك) الأحكام السالفة (حدود اللّه) جعلها بين الناس ليمشى كل مكلف على ما حدّ له (فلا تعتدوها) ويتجاوز كل منكم ما رسم له وعيّن (ومن يتعد) ويتجاوز ما وظف له وعليه من (حدود اللّه فأولئك هم الظالمون) لأنفسهم ولغيرهم .

* (فأن طلّقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح
زوجا غيره فأن طلّقها فلا جناح عليهما ان
يتراجعا ان ظنّا أن يقيما حدود اللّه و تلك
حدود اللّه يبيّنها لقوم يعلمون) *

قوله فأن طلّقها تفريع على ماسبق من قوله او تسريح بأحسان بمعنى انه اذا طلّقها من بعد المرّتين فصار طلاقه هذا ثالثا لهما فان هذه المرءة لا تحلّ له حتى تتزوج بأنسان غيره فأن طلقها الثانى جاز للزوج الأول ولها أن يتراجعا بعقد جديد ان ظنّا انهما يقيمان حدود اللّه فى هذه المراجعة وأمّا اذا لم يظنّا بأنفسهما ذلك فبطبيعة الحال لا يتراجعان لأن نفس الداعى الذى اوجب التطليق ثلاثا موجود وعلى فرض انهما مع ذلك تراجعا فقد فعلا حراما لأعانة كل منهما صاحبه على الأثم ومخالفة فرائض اللّه وصح العقد ان لم نقل ان النهى التكليفى يفسده ٠

وظاهر الآية لم يشترط وراء النكاح الصادق بالعقد وحده شرطا آخر وقد اشترط الفقهاء فى نكاح التحليل شروطا (١) انه بالعقد الدائم فلا يكفى المنقطع (٢) ولا بدّ من الأصابة فلا يكفى مجرد العقد (٣) وأن تكون الاصابة فى القبل دون غيره (٤) وأن يكون المحلل بالغا لاغيره ٠

فاذا تجمعت هذه الشروط وطلقها الزوج الثانى برضاه وخرجت من عدته فلا جناح عليهما ان يتراجعا ٠

وقوله سبحانه لقوم يعلمون اى مستعدين للتعلم متلقين له عن رحابة صدر طالبين لتلقيه فان من يكون غير ذلك يكون بطبيعته معرضا

عن البيان لا أن الله معرض عنه اذن فلا قصور في الفيض ولكن القصور في قابله .

* (واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فأمسكوهن بمعروف او سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا وأذكروا نعمة الله عليكم وماأنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به وأتقوا الله وأعلموا أن الله بكل شيء عليم) *

يريد تعالى في خطابه للأزواج ان يقول لهم اذا طلقتم النساء طلاقا رجعيا فقاربن نهاية العدة فجوسوا خلال انفسكم فأن وجدتموها نادمة على مافرطت في سبيل هذه الازواج فراجعوهن و امسكوهن بمعروف معاشرة طيبة واخلاقا ملتئمة وأن وجدتم انفسكم بالنسبة الى هاته الازواج كما كانت حين الطلاق وقبله فدعوهن يتممن عدتهن بمعروف منكم ومعنى ذلك عدم التعرض لهن بالرجوع فأن رجوعكم بهن وانتم غير راغبين مضارة ومشاقة ولجاجة وعدوان لا شك في حرمته ومن يراجع زوجته منكم مضارا فقد ظلم نفسه لأنه عرضها لغضب الله ولا تتخذوا هذه الآيات كمهازل لا تعيرونها نظرا ولا تشفعونها بعمل : واذكروا نعمة الله عليكم في كل شيء ومن جملتها مؤمنات شهواتكم الجنسيه وكذلك اذكروا ماانزل عليكم من الكتاب القائم بجميع ماينفعكم و يدفع المضار عنكم وهكذا ماانزل عليكم من الحكمة وهي تبيين حقائق الأمور وفتق غوامضها ودقائقها لتتفطنوا لما يصلحكم ويؤمن سعادتكم فأن الله سبحانه يعظكم بما انزل عليكم ويبشركم بالنجاة دنيا وأخرى كما يحذركم

من ارتكاب المنافيات وخافوا الله فى اوامره ونواهيه واعلموا انه تعالى لا تخفى عليه خافية ولا يلبّس عليه مطلب فيجب ان تكون بواطنكم كظواهركم التى تتظاهرون بصيانتها حذرا من الناس ومجاملة لهم فأن الله احدر بذلك من الناس لأن قدرة الله فوق قدرتهم وعلمه بأطوار عباده اوفى من علمهم ٠

* (واذا طلّقتم النساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ ان ينكحن ازواجهنّ اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم ازكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون) *

الخطاب فى طلقتم وتعضلوهنّ يجوز ان يكون للأزواج بمعنى انكم ايها الأزواج اذا عافت نفوسكم نسائكم فطلقتموهن وانتهى اجل عدتهن وفرغن منكم شرعا فلا تأخذكم العزة بالأثم فيهن فتمنعوهن من التزوج بغيركم تعصبا ولجاجة بأخافه من يقدم عليهن او ارعاب اهلهن كما هو متداول فى عالم العشائر وبين المقتدرين من الناس حيث تعاف انفسهم جملة من نسائهم فيطلقونها وتأخذهم الحمية على تزوجهن بغيرهم فيقفون امامهنّ وأمام من يرغب بهنّ ويكون المراد بأزواجهن من يردن ان ينكحنه باعتبار ما يأتى او من هو زوج لهن بحسب الصلاحية ٠

كما يجوز ان يكون الخطاب للأولياء عند العرف الذين يتصدرون للدفاع عن حق امرئتهم فيطلقونها من زوجها ثم تحصل رغبة بين هذين المتطالقين فيحبّان اعادة الوصلة فتقف حمية الولى دون ذلك وكلا

المطلبين منهيان شرعا ·

امّا الزوج اذا طلق زوجته فقد ارتفعت ولايته وحمايته العرفية والشرعية عنها فليس له أن يمنعها من التزوج بغيره وامّا الأولياء العرفيون فليست لهم ولاية شرعية والوليّ الشرعى منهم لا يجوز له ان يمنع المرءة ان تتزوج بمن يلائمها ويحفظ ناموسها ويرضى بها وترضى به على الأخص المرءة الثيّب فأنها لا ولاية عليها لوليّ ·

ذلك: اشارة الى ماسبق من مفاد صدر الآية: يوعظ به من كان منكم ايّها الازواج او الاولياء: يؤمن بالله واليوم الآخر: حيث يزعه هذا الأيمان عن ارتكاب المآثم والجرائم: ذلكم: اى امتثالكم لما يريده اللّه بكم وبالنساء المزبورات: ازكى: اى انمى وانما يكون انمى لان المطلقة اذا تزوجت بكفؤها حصل النماء فيما بينهما قهرا فى الغالب كما تنمو العلاقات من طريق هذا التزاوج: وأطهر: لان التزاوج يحمى الطرفين من العهر والفجور فى الأعم الأغلب: واللّه يعلم: أسرار ما ينهاكم عنه وما يأمركم به: وانتم لا تعلمون: ذلك ومن ناحية هذا الجهل تقعون فى اشكلات جمّة من شؤن الحياة ·

وجاء فى الآثار ان معقل بن يسار قال كانت لى اخت فأتانى ابن عم فأنكحتها ايّاه فكانت عنده ما كانت ثم طلّقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطّاب فقلت له يا لكع اكرمتك بها وزوجتكما فطلقتها ثم جئت تخطبها واللّه لا ترجع اليك ابدا وكان رجلا لا بأس به وكانت المرءة تريد ان ترجع اليه فعلمت حاجته اليها وحاجتها اليه فأنزل اللّه: واذا طلقتم النساء ·

* (والوالدات يرضعن اولادهنّ حولين كاملين لمن
أراد أن يتمّ الرضاعة وعلى المولود له رزقهنّ
وكسوتهن بالمعروف لا تكلّف نفس الّا وسعها
لا تضّار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى
الوارث مثل ذلك فأن أرادا فصالا عن تراض
منهما وتشاور فلا جناح عليهما وان اردتم ان
تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلّمتم
ما آتيتم بالمعروف وأتقوا اللّه وأعلموا ان اللّه بما
تعملون بصير) *

الرضع هو مصّ الثدى والأرضاع هو التمكين من ذلك والحول هو السنة سمّى بذلك لأنه بمروره ينقلب وينصرم ويبتدأ حول آخر والوسع الطاقة ضارّه أدخل عليه الضرر والفصال الفطام والتشاور مبادلة الرأى والأسترضاع طلب المراضع .

هذه الآية تريد أن تبيّن حكم رضاع الطفل من حيث كمية زمانه وعلى من هو ومتى يكون الفطام وهى بظاهرها تعمّ الطفل الباقية امّه فى حبال ابيه والمطلقة منه لكن سياق الآية يميل بها الى جانب الأحتمال الثانى وهو ما لو طلق الانسان زوجته فكان او حصل بينهما طفل فما وظيفتهما فى مقابل هذا الطفل لأجل صون حياته وحفظ رمقه وروحه من التلف .

فقال تعالى (والوالدات) للأطفال الأولى بهن ان (يرضعن اولادهنّ) اى من يلدنه ولا يبدين الكسل عن ارضاعه حتى يلتجأ ابوه الى دفعه للمراضع فقوله يرضعن خبر بمعنى الأمر ومفاد الأمر هنا

الاستحباب نعم قد يجب عليهن الأرضاع فيما لو توقفت حياة الطفل على ارضاعهن له لأية ناحية فرضت(حولين كاملين) اى سنتين تامتين اربعة وعشرين شهرا وليس ذلك بلازم بل اللازم الذى لا بدّ منه ماحفظ وجود الطفل و امنه من الأنهيار ووخامة العاقبة من حيث البنية الطبيعية وقد اشارت الآية الى عدم اللزوم بقوله(لمن اراد ان يتمّ الرضاعة) والمريد للأتمام قد يكون لسان حال الطفل بداعى بنيته الطبيعية وقد يكون هو الأب الذى هو الولىّ فى هذه المجالات المسؤل بالقيام بما يؤمّن الأرضاع من اجرة او تهيأة موضع(وعلى المولود له) اى الذى تكوّن منه الولد وصار وهذه الكلمة تشعر ان الولد للأب لا للأم لأنه القادر بحكم رجوليته نوعا على حفظه ومصونيته من التلف (ورزقهنّ) اى رزق الوالدة المرضعة(وكسوتهن بالمعروف) اى انه يجب على الوالد ان ينفق على الوالدة المرضعة زمن الرضاعة تمام النفقة بما يستطيع اذ لا تكليف فوق الطاقة وهذه القطعة من الآية تشعر بان المنفق عليها مطلقة وانما تستحق الأنفاق لأجل الأرضاع ولو كانت فى حباله لكانت النفقة لازمة للمزوج على كل حال أرضعت طفله ام لم ترضعه والوالدة المطلقة يجوز لها ان تشترط على الارضاع ما تريد نظير مؤجر نفسه لكنها اذا رأت ان الوالد ليس به القيام بما تشترط لقصور وسعه ولا مرضع له تقوم مقامها بهذا الأجر وان اهمال الطفل مع ذلك اتلاف له وجب عليها الرضوخ الى ما تبلغه سعة الوالد .

والأظهر من معنى قوله(لا تضارّ والدة بولدها) عدم جواز ادخال الوالدة الضرر على ولدها بقلة التوجه له وعدم القيام بواجب ارضاعه حتى يبقى يتضور ويفحص بأعضائه لتؤذى والده عندما يراه فى حالته هذه اذ لا طريق لها الى اذية الوالد الّا من طريق ولده لأن يدها

لا تنوش الولد مستقيما ومباشرة و انما تنوش الولد الموجود في احضانها وهذا المعنى كما ينطبق على الوالدة المطلقة ينطبق على غير المطلقة اذا لم يكن بينها وبين زوجها وئآم تام ومحبّة متبادلة (و) هكذا (لا) يدخل الضرر (مولود له) اى الوالد (بولده) بأن ينقله الى مرضعة غير والدته لحاجة معها فيتضرر الولد بفراق امّه لأنّ حدب الأُمّ حسب المعمول اكثر من حدب الغير (وعلى الوارث مثل ذلك) يعني انّ اب الطفل اذا فقد ومات فمن الذى يقوم مقامه في تحمل وظائفه بالنسبة الى اجراء حالة الطفل وتمشية اموره من اجرة رضاع ونحوها فقال تعالى ذلك على الوارث واختلف في الوارث من هو فقيل هو وارث الأب اى ارحام الطفل وعصبته وقيل هو وارث الطفل لو مات فانه المكلف بمراعاة وظائف الطفل كل ذلك اذا لم يكن للطفل مال وصل اليه بالأرث فاذا كان له مال صرف القيّم عليه من ماله ٠

(فأن ارادا) اى الأب والأم فصل الطفل عن الرضاعة وفطمه سواء اراد ذلك كلاهما ارادة بدوية من غير تأمل او اراد أحدهما ذلك ارادة جدّية (فصالا) اى فطاما وكان ذلك (عن تراض منهما وتشاور) وتبادل نظر (فلا جناح عليهما) فيما قلّ عن الحولين او زاد اذا ادّى نظرهما الى ذلك في صلاحه وحفظه (وان اردتم ان تسترضعوا) اى تتخذوا المراضع (اولادكم) اى لأولادكم حذف وسيلة التعدية استخفافا لظهورها امّا لأن الأمهات أبين الأرضاع او عجزن عنه او طلبن عليه ما يزيد عن طلب الغير فحينذاك (فلا جناح عليكم) ايّها الآباء في استيجار المراضع (اذا سلّمتم) لهنّ (ما آتيتم) اى شرطتم لهنّ (بالمعروف) اى بالأجر العادل (وأتقوا الله) آباء وامّهات في الأحكام السالفة (واعلموا أنّ الله بما تعملون) من خير وسوء (بصير) عليم ٠

* (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصـــن
بأنفسهن اربعة اشهر وعشرا فاذا بلغـــن
أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى انفسهنّ
بالمعروف والله بما تعملون خبير) *

يريد سبحانه أن يبيّن ان الرجل اذا توفى وترك ورائه زوجة فمـن وظيفة الزوجة بعنوانها الجنسى اى سواء كانت واحدة ام اكثر بعقـد دائم ام منقطع مدخول بها ام غير مدخول آيسة كانت ام غير آيسة حـرة كانت ام امة لان هذه المذكورات داخلة فى عنوان الأزواج فهذه الزوجة تتربص بعد موته بنفسها اربعة اشهر وعشرة ايام فيما لو كانت غيرحبلى امّا اذا كانت حبلى فقد اختلف المسلمون فى عدّتها من الوفاة فقال بعضهم ان فراغها من العدة فراغ بطنها من الحمل بلاتفاوت بين الطلاق والمـوت ويرى الخاصة ان عدتها من الوفاة ابعد الأجلين من وضع الحمل و أنقضاء اربعة اشهر وعشرة ايام وكذلك اختلفوا فى عدة الأمة من الوفاة فقـال جملة هى هنا مثل الحرة وقال آخرون ان عدّتها نصف عدة الحرة ٠

وقوله تعالى يتربصن خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهنّ يتربصـــن : ومعنى بلغن اجلهنّ أنهين عدتهن : والمخاطبون بقوله فلا جناح عليكم يجوز ان يكون هم الأولياء للمرءة او عامة المكلفين باعتبار ان هـــذه الحوادث والأحكام لا يشذّ عنها احد لأنها مورد ابتلاء الجميع يعنى لا محذور عليكم اذا انتهين من عدتهن ان تجدوهن ذوات زينة بنحـــو متداول متعارف فى حدود اعمار النساء من شبيبة وكهولة ومافوقها فان الحداد الذى يلزم المرءة المعتدة لوفاة زوجها ينتهى لزومه بانتهـاء العدة والله بما تعملون من خير وشرّ خبير ٠

* (ولا جناح عليكم فيما عرضّتم به من خطبة النساء
او اكننتم فى انفسكم علم الله انكم ستذكرونّهن
ولكن لا تواعدوهنّ سرّا الّا أن تقولوا قولا معروفا
ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله
واعلموا أنّ الله يعلم ما فى انفسكم فاحذروه
واعلموا أنّ الله غفور حليم) *

التعريض هو التلويح بالشىء فى قبال الصراحة به والخطبة هى استدعاء مشفوع بأدب من ولّى المرءة او المرءة نفسها للتزوج بها وأكنّ فى نفسه بمعنى أسرّ والعزم هنا هو تثبيت الشىء وجعله .

ومفاد الآية باعتبار ماسلف من ذكر العدة والنساء الموظفات بها انه لا يجوز التصريح بالنكاح للمرءة المعتدة بعدة بائنة واّما الرجعية فلا يجوز التعرض لها بكل لون لأنها بحكم الزوجة امّا البائنة فانه يجوز التلويح لها بما يفيد انّها اذا خلت من عدّتها فهذا الملّوح لها راغب فيها كأن يقول اننى فى حاجة الى امرءة من وصفها كذا وكذا بما ينطبق عليها كما لا محذور على الأنسان أن ينوى فى ضميره ان فلانة اذا فرغت من عدتها فانه يتزوجها وانما ابيح لكم ايّها الرجال التلويح او الأكنان فى النفس لعلمه تعالى ان الرغبة المتغلغلة فيكم بالنسبة اليهن لا تقعد بكم عن ذكرهنّ والتشهير بأسمائهن فهو سبحانه وقف امامكم بالنسبة الى التصريح واجاز لكم التلويح حذرا من الوقوع فى المأثم ولكن لا يجوز لكم ان يقودكم التجويز الى ارتكاب ما لا يجوز من مواعدتهن وهنّ معتدات سرّا بأن يقول لها لى غرض عندك لا ابوح به الّا فيما بينى وبينك فأن الاختلاء بها مظنة للريبة والكلام بصراحة معها

خيانة لانها بالفعل ليست خلية بتمام معنى هذه الكلمة ٠

وقوله تعالى الآان تقولوا قولا معروفا : يجوز فيه وجهان الأنقطاع على معنى انه لا يجوز مع المعتدة شـي ء الآ القول بالمعروف فيكـون هذا الاستثناء ممّا يحتمل فى المقام وان كان لا تصريح به كمن يقـول قام القوم الآحمارا فانه استثناء من حواشى قام القوم لا من لبّه وجوهره والقول بالمعروف هو التعريض كما بيّنا مثاله والاتصال على معنـى ان مواعدة السرّ انّما تجوز اذا كان الكلام الذى يفضى فيها هو القـول بالمعروف لا مازاد عليه وبلغ الصراحة ٠

ولا تعزموا عقدة النكاح : بمعنى لا يجوز لكم ان تجروا صيغة العقـد عليهن وهن معتدات فان ذلك حرام (حتى يبلغ الكتاب) اى ما كتـب عليهن من العدة (اجله) اى ينتهى (واعلموا ان الله يعلم ما) تكنّـون (فى انفسكم) من حق وباطل (فاحذروه) وخافوه (واعلموا) مع ذلك الحذر منه (ان الله غفور) لذنوب عباده (حليم) بهم ٠

* (لاجناح عليكم ان طلّقتم النساء مالم تمسّوهنّ او
تفرضوا لهنّ فريضة ومتعوهنّ على الموسع قدره
وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على
المحسنين) *

المسيس هنا هو الجماع قطعا والفرض هو تسمية المهر والأمتاع اعطاء النفع والموسع المرخى له فى دنياه والمقتر بعكسه ، هذه الآية تتعرض الى جملة من احكام الطلاق وتشير الى بعض احكام النكاح امّا ما يخصّ الطلاق فصدر الآية يعرب انّه لامانع على الزوج ان يطلق زوجته ولو لم يتصرف بها اذا دعت الدواعى المعقولة الى ذلك كما يجوز له ان يطلقها وهو لم يسمّ لها مهرا فيكون صدر الآية هذا معناه لامحذور عليكم فى طلاق النساء فى ظرف عدم المسيس او عدم تسمية المهر و من هنا يستفاد ان ذكر المهر ليس شرطا فى صحة عقد النكاح والطلاق مع عدم المسيس صادق مع تسمية المهر وعدمها كما ان عدم التسمية صادق مع المسيس ومع عدمه فصدر الآية انما يتعرض فقط لرفع الجناح عن ايقاع الطلاق بغير المدخول بها وغير المسمى لها ولا يتعرض الى ما يلزم الزوج فى طلاقه لزوجته من حق مالىّ ولكنّ المقارنات بين هذه الآية وغيرها من الآيات يعرب عن ذلك فان المسمّى لها من المطلقات امّا مدخول بها وحكمها تقدم فى قوله تعالى ولا يحلّ لكم أن تأخذوا ممّا آتيتموهنّ شيئا وامّا غير مدخول بها وحكمها يجىء فى الآية القادمة حيث يقول تعالى و ان طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم ٠

وغير المسمّى لها امّا مدخول بها فلها مهر المثل كما يجىء

التعرض له في قوله تعالى فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ اجورهن وامّا غير مدخول بها فيكون المذكور بقوله تعالى ومتعوهن هو حكمها اذن فالمتعة مختصة بالزوجة المطلقة غير المدخول بها ولا المسمّى لها

واعتبر سبحانه الأمتاع بحسب حال الزوج من السعة والضيـــــق فالموسع بما يتناسب مع سعته و المقتر بما يقاس الى قلة ما في يده فما ورد في ذلك من ان الواجد يمتع بالخادم والمعسر بثلاثة اثواب ونظير ذلك ليس تشخيصا شرعيا وانما هو نظر فلا تحديد فيه ٠

وقول بعض المفسرين في قوله تعالى متاعا بالمعروف انه بمعنى لا اسراف ولا تقتير فليس بصحيح فان الزوج لو اراد أن يعطيها ما شاء فلا محذور عليه ولا منع انما المنع في ان يعطي الموسع ما لا يتكافأ مع سعته ويعطي المقتر ما ليس بشيء وبما ان غير المدخول بها وغير المسمّى لها بحسب الظاهر لا تستحق شيئا لأنها رضيت بالعقد من غير تسمية عـــدّ الأمتاع احسانا و ان كان واجبا لمكان ان عقد العلقة بين الرجل والمرءة ممّا يعنونها في نظر العرف بعنوان غير البكر التي لم يطرأ عليهـــا ايّ طارئ ٠

* (وان طلقتموهنّ من قبل ان تمسوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون او يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا اقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير) *

هذه الآية تبيّن حكم الطلاق قبل الدخول لمن سمّى لها وانّها لا تستحق على الزوج اكثر من نصف المسمّى فاذا كانت اخذت الصداق كلّه لزمها ان ترجع نصفه وان لم تأخذ شيئا او انّها اخذت ماهو اقلّ من النصف وجب على الزوج ان يعطيها نصف المهر فلا يسوغ للزوج ان لا يعطيها شيئا الا ان تعفو عن حقها كما لا يجوز لها ان لا ترجع النصف اذا كانت قد اخذت الصداق كلّه الا ان يعفو هو هذا احد القولين فى معنى من بيده عقدة النكاح .

وقيل يجوز أن يراد به ولىّ الزوجة فيكون المعنى لا يسقط نصف المهر عن الزوج اذا كان لم يسلّم اليها شيئا الا اذا عفى ولىّ الزوجة عن النصف الذى تستحقه هى باعتبار ولايته عليها اذا وجد ان ذلك من المصلحة .

وأن تعفوا خطاب للجميع ازواجا وزوجات يعنى اذا كانت المرأة قد اخذت الصداق كله او اكثر من النصف فمن التقوى والايمان والشهامة ان لا يدعيها الزوج بما زاد واذا كانت لم تأخذ شيئا فمن تقواها وايمانها أن لا تطالبه بشىء ،ولا تنسوا الفضل بأن يفضل صاحب الحق منهما على قبيله : ان الله بما تعملون من حق وباطل بصير عليم محفوظ عنده مضبوط له جزاؤه .

* (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) *

المراد بالمحافظة عدم التساهل والأهمال والاستخفاف بالصلاة المكتوبة لأنها شعار المسلم ومن ابرز معالم الدين واهم اركانه وقد اختلف فى الصلاة الوسطى التى يظهر من السياق انها اهم من غيرها على اقوال كثيرة حتى لم تبق صلاة من الصلوات الخمس لم يقل فى حقها انها الصلاة الوسطى وكأن الاكثر هو القول بأنها صلاة العصر لما ورد ان النبى كان يصلى بالهاجرة وكانت اثقل الصلوات على اصحابه فلا يكون ورائه الا الصف او الصفان حتى قال (ص) لقد هممت ان أحرق على قوم لا يشهدون الصلاة بيوتهم وفسر القنوت بالدعاء والطاعة والخشوع وهو بالخشوع أنسب .

ومن الطريف ان فريقا من نصارى اليوم لما أفلسوا حتى من صبابة النصرانية وأغرقوا فى التهتك والاستهتار وذابت فيهم روح الأنسانية وخواصها وتجردوا من كل صفة تساق للأنسان سوى ضراوته فى كل شىء اخذوا يكيلون السباب للأسلام بانه دين عتيق مملوء بالأوهام والخرافات والتجافى عن المنطق وقوانين العقل واستدلوا على ذلك بأن المسلمين بالفعل لما ادركوا منه تلك الهنات تملصوا منه وتجردوا عن وظائفه وقد غفل هذا الجاهل عن ان تجرد المسلمين عن دينهم لا ربط له بأسس الدين ونظمه وانما تجردوا منه لانحطاطهم وخذلهم له وتنحيهم عنه وعدم انتصارهم فأفلسوا من حسناته بالاتسام بها لسقوطهم ومن مادياته بجبنهم وتخاذلهم حتى عن نصرة انفسهم والدفاع عن كيانها .

وبطبيعة ذلة كل محكوم امام حاكمه تراه يتشبه به لأجل أن يرفع

ذلة الظواهر عن نفسه وهكذا فعل المسلمون لمّا حكمهم الأجانب واسقطوهم عن درجة الاعتبار وجدوا من المحتم عليهم مماشاة الأغيار والتشبه بهم علّما يمكنهم الانتساب اليهم والحشر فى زمرتهم غافلين عن ان الأعزاء يترفعون عن استلحاق الأذلاء ولذلك عدّ هتلر جملة من الأقوام فى دوره الحاضر المعاصر فى الدرجة الثامنة من البشرية لأنه وجدهم اذنابا يتخطفهم العابر والمستطرق من كل جانب وان تشبههم بالغير لا يزيدهم الا سقوطا لا التحاقا بمن تشبهوا به ويكفى فضلا عن ضخامة مبانى الاسلام انه لمّا كان عزيزا بالمسلمين كان المسلمون يتسابقون الى معاليه والأتسام بالحسنات التى فيه حتى ترتفع درجتهم ويعلو مقدارهم وهذه النكتة وان كانت غامضة على الكثيرين واضحة جدا

* (فأن خفتم فرجالا او ركبانا فأذا امنتم فاذكروا الله كما علّمكم ما لم تكونوا تعلمون) *

الرجال هنا جمع راجل كصحاب وصاحب وقيام وقائم والمراد بالراجل هو الماشى على رجله لا على مركوب وركبان جمع راكب وهو ممتطى الوسيلة من فرس وغيرها .

وهذه الآية تتعرض الى صلاة الخوف فى حالة حرب او دهم عدوّ وانه يجوز ايقاعها لهذه الضرورة فى حالتى المشى والركوب الفاقدتين لما يلزم المختار المطمئن من قيام وطمأنينة وركوع وسجود واتمام فى الحضر وتفاصيل هذه الصلاة فى الفقه وسنشير فى ذيل الآية الى نتف منها .

فأذا امنتم اى عادت لكم حالة الأمن الاعتيادية فاذكروا اللّه بمعنى

ادّوا الصلاة بتمام اجزائها وشرائطها وعلى النحو المعمول كما علّمكم ربكم على لسان مبلّغيه ما لم تكونوا تعلمون من شؤن الصلاة وغيرها ·

صلاة الخوف مقصورة سفرا وحضرا على الأقوى وتصلّى فرادى وجماعة واذا صليت جماعة فالأمام بالخيار ان شاء صلّى بطائفة ثم بأخرى وكانت الثانية له ندبا وان شاء صلّى بالطائفتين فان كانت الصلاة ثنائية صلّى بالأولى ركعة وقام الى الثانية فينوى من خلفه الانفراد وجوبا ويتمّون صلاتهم ويستقبلون العدوّ وتأتى الفرقة الأخرى فيحرمون ويدخلون معه فى ثانيته وهى أولاهم فاذا جلس للتشهد اطال ونهض من خلفه فأتموا وجلسوا فتشهد بهم وسلّم فتحصل المخالفة فى ثلاثة اشياء للصلاة المتداولة فى الجماعة (١) لزوم انفراد المؤتم (٢) وتوقع الامام للمأموم حتى يتمّ (٣) وامامة القاعد بالقائم ، وان كانت ثلاثية فهو بالخيار ان شاء صلّى بالأولى ركعة وبالثانية ركعتين وان شاء بالعكس ·

وامّا صلاة المطاردة وتسمّى شدة الخوف مثل ان ينتهى الحال الى المعانقة والمسايفه فيصلى على حسب امكانه واقفا او ماشيا او راكبا ويستقبل القبلة بتكبيرة الأحرام ويسجد على قربوس سرجه فأن لم يتمكن اومأ ايماء وان خشى صلّى بالتسبيح ويسقط عنه الركوع والسجود ويقول بدل كل ركعة سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر ·

* (والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصيـة لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج فـأن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى انفسهنّ من معروف والله عزيز حكيم) *

هذه الآية تبيّن حكما من احكام المتوفى عنها زوجها منسوخا بغيره من القرآن نفسه ومفادها ان الذين يحضرهم الموت من الأزواج ويتركون ورائهم ازواجا يجب عليهم ان يوصوا وصية لأزواجهم حال كون الوصية تفيد امتاع الزوجة بالنفقة والسكنى من حين الموت الى تمام حول كامل لا يجوز فيه اخراجهن فى ثنايا الحول قبل تمامه بالقهر من الورثة او الأوصياء فأن خرجن من هذه المساكن بعفو ارادتهن ورغبتهن فـلا مسؤلية عليكم فيما فعلن بأنفسهن من خروج وتصدّى للأزواج ممّا هو غير مستنكر بين الناس .

والله عزيز فى تقنين احكامه حكيم فى طرحها وكيفية اخراجهـا وناسخ هذه الآية آيتان احداهما تقدمت وهى التى تكفلت احكـام عدّتها (اربعة اشهر وعشرا) والثانية سوف تجئ وهى الآية المتعرضة لميراث الأزواج وعلى هذا فليست عدة المتوفى عنها زوجها حولا كمـا لا يجب الأنفاق عليها فى العدة اذا لم تكن حاملا وسهمها من المتوفى ميراثها منه .

* (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقيـــن
كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون) *

.

قد اسلفنا فيما سبق بيان المتعة وانها للزوجة المطلـــقة غيـــر المدخول بها وغير المسمّى لها ومفاد هذه الآية عين مفاد تلك الّا أنّ فى هذه نوعا من الاطلاق فهو مقيد بما سلف والتكرار للتأكيد .

* (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف
حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ان
الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر النـــاس
لا يشكرون :وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله
سميع عليم) *

ليس المنظور بالرؤية هنا هى الرؤية البصرية للفاصلة السحيقة بين زمن المخاطبين وزمن الواقعة ولكن المنظور ماهو بالنتيجة مثل الرؤيـــة وهو العلم بمعنى ألم يصل اليك علم هذه الواقعة الشهيرة وشهرتهـــا جاءت عن اهل الكتاب فانهم كانوا يتحدثون بها للناس واختلف فـــى سبب خروجهم من ديارهم فقيل فرارا من طاعون حصل عندهم ففـــرّوا بأنفسهم طلبا للحياة وقيل انهم دعوا للجهاد ففرّوا ممّن دعاهم تخلصا من الموت .

وهم ألوف اى كثيرون فى العدد وحذر الموت مفعول لأجله علّل به خروجهم من ديارهم فأراد الله سبحانه ان يبيّن لهم ان تأخر الآجال هو الحارس للأنسان عن الموت لا الفرار من الموت فأماتهم لهـــذا الداعى (فقال لهم) قول تكوين(موتوا) فماتوا (ثم) بعد فاصلة متأخـــرة

عن موتهم قيل هى ثمانية ايام وقيل اتت على ذلك مدة حتى بليت اجسادهم وعريت عظامهم وتقطعت اوصالهم (أحياهم) الله تبيينا لهم وعبرة لغيرهم فعاشوا بعد الاحياء زمانا ومكثوا ما شاء الله ثم ماتوا بآجالهم .

وبعد هذا الرصيد خاطب سبحانه المكلفين فى عصر نبىّ الاسلام بقوله وقاتلوا فى سبيل الله ولا تهابوا خوض الميادين فان الانسان ربما مات على فراشه وعاش قائد الحروب عمرا طويلا من دون أن تشوكه شوكة واعلموا أنّ الله سميع لأقوال المنافقين الذين يخذلونكم عن الجهاد ويخوفونكم بالموت عليم بما تكنّه قلوبكم وقلوب اولئك المخذّلين لكم .

* (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون) *

من اداة استفهام وذا بعدها أما زائدة او استفهامية والقرض فى الأصل هو القطع كأن المقرض يقطع من ماله قطعة ويسلمها للمقترض والمضاعفة التكثير والقبض هو اللمّ ويقابله البسط وهو التوسعة ، والهدف من الآية دعوة الله الناس الى مساعدة اقويائهم لضعفائهم وواجديهم لمعوزيهم فاعتبر سبحانه اعطاء الأغنياء من البشر للفقراء بمنزلة اقراض له لأنّ الفقير عبده وله رابطته به فكلّ من يتقدم اليه بما يسدّ له خلة فكأنّما صنع المعروف مع الله سبحانه مضافا الى انّ ماله الذى بذله فى سبيله لا يذهب عليه من غير عائدة بل هو مثل المال الذى اقرضه صاحبه وأخذ عليه رهنا واضافة مشروعة تزيد على الأصل مرارا مدّخرة له فى يوم لا ينفع مال ولا بنون الّا مثل هذا المال .

(والله يقبض) رزقه عن الفقراء (ويبسط) عطائه للواجدين امتحانا لذلك فى صبره ولهذا فى شكره وانهما ماذا يفعل بهما الأقتار

واليسار : و اليه ترجعون : اى مآل الجميع الفقير والغنى المواسى وغير المواسى اليه تعالى فهو الذى يجزي كلّا ما يستحق .

وروى عن الصادق عليه السلام انه قال لمّا نزلت هذه الآية من جاء بالحسنة فله خير منها قال رسول اللّه (ص) رب زدنى فأنزل اللّه من جاء بالحسنة فله عشر امثالها فقال رسول اللّه رب زدنى فأنزل اللّه سبحانه من ذا الذى يقرض اللّه قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة .

* (ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد
موسى اذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل
فى سبيل اللّه قال هل عسيتم أن كتب عليكم
القتال الّا تقاتلوا قالوا وما لنا الّا نقاتل فى
سبيل اللّه وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا فلمّا
كتب عليهم القتال تولّوا الا قليلا منهم واللّه
عليم بالظالمين) *

الملأ جماعة الأشراف الذين يمتلأ بهم النادى على قلّتهم لشرفهم وسمّى الملك بهذا الأسم لأنّه يملك امور من تولى عليهم بالتصرف وعسى من افعال المقاربة تفيد معنى الترجّى والتولّى الأعراض .

ومفاد الآية الم يصل اليك علم هذه القضية وهى ان اهل الحلّ والعقد من بنى اسرائيل لما توفى موسى وبطرت بهم كرامة العزة والقوّة فهانوا بالأنغماس فى الملاذّ وكثرت فيهم الخطايا استذلتهم الجبابرة وظهروا عليهم وغلبوهم على الكثير من ديارهم وسبوا الوفير من ذراريهم فتجمّعوا الى نبىّ لهم قيل هو شمعون وقيل هو يوشع ابن نون وقيل هو اشمويل فقالوا ان كنت نبيا صادقا فابعث لنا ملكا اى قائدا يملك امورنا

حتى نكون جيشه ونقاتل فى سبيل الله ٠

قال ابو عبد الله عليه السلام كان الملك فى ذلك الزمان هو الذى يسيّر الجنود والنبىّ يقيمُ له امره فكان الجواب من نبيّهم (هل عسيتم ان كتب عليكم القتال) بمعنى قد يكون اذا كتب عليكم القتال ونجّزت فريضته (ان لا تقاتلوا) وتجبنوا وتتراجعوا الى الوراء عملا فقالوا فى جوابه وما لنا ان لا نقاتل فى سبيل الله والحال اننا ذللنا ودخل علينا الهوان وامتلك الكثير من ديارنا وسبى ابناؤنا فصاروا ارقّاء ٠

ومثل هذا الجواب يسلتزم حسن الوفاء لكنهم لمّا اجيبوا الى ذلك وعيّن لهم ملك يقودهم ودعوا للقيام معه وكتب عليهم القتال تحت لوائه احجموا واعرضوا وخانوا الا قليلا منهم كما يجئ نبأه فى الآيات اللاحقة والله سبحانه كان عليما بهذه القضايا قبل وقوعها وانّما اجاب اليها حتى لا تبقى حجّة للمكلّف على ربّه فى ظاهر الحال ٠

* (وقال لهم نبيّهم انّ الله قد بعث لكم طالـــوت
ملكا قالوا انّى يكون له الملك علينا ونحن احقّ
بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله
اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجســم
والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم) *

طالوت اسم اعجمي من ولد بنيامين ابن يعقوب وكانت الأسباط من لاوى ابن يعقوب والأماره والقيادة فى اسباط يهوذا ، وانّى يكون لـــه الملك بمعنى من اين يكون له الملك والسعة الأنبساط وتختلف باختلاف المضاف اليه وبسطة العلم كثرته وبسطه الجسم ضخامته فى أبعاده .

من بعد ما طلب بنو اسرائيل من نبيّهم ان يبعث الله لهم ملكـــا يقاتل بهم اعدائهم اجاب نبيّهم طلبتهم عن لسان الله وانّه اوعـــز بالقيادة الى طالوت ،وبعث الشيء توجيهه الى ما اريد به ،فكان منهم اوّل انحراف حيث قالوا نحن لا نقبل امارة هذا الانسان علينا اذ لا سابقة لأهله فى هذا الأمر وهذا النظر العامى الساقط قديم فى البشـــر ولا يزال فان العوام يعتبرون سابقة النسب هى الملاك ومن ناحية ثانيـــة السعة فى المال بما هو مدّخر يقول فى حقه صاحبه انّ عندى من المال كذا مقدار فنفس هذه النسبة لها كيان فى انظارهم جدّا فأنكر اللّـــه عليهم ذلك جدّ الأنكار بأن اختيار الله اياه لهذا الأمر كان عن داعيين زيادة العلم وجسامة البنية ودخالة العلم فى هذه الغاية ان تصرفاتـــه تكون عن عقل ودربة وتمييز للحق من الباطل فتؤمن بوائقه وتعدياته من هذه الجهة وجسامة البنية ملاك القوة والشجاعة فاذا جمع القائد بيـــن العلم والقوة والشجاعة فقد ملك مؤهلات ما أريد له من عمل .

والله سبحانه يؤتى ملكه من يريد ولكن لاعبثا كما يفعل الأنانيّون الجهلاء بل عن صلاحيات مؤهلة كما ذكرها فى طالوت، والله واسع فى عطائه لمن يستحق العطاء عليم بمخلوقاته وما يصلحهم .

* (وقال لهم نبيّهم انّ آية ملكه ان يأتيكم التابوت
فيه سكينة من ربّكم وبقية ممّا ترك آل موسى وآل
هارون تحمله الملائكة ان فى ذلك لآية لكم ان
كنتم مؤمنين) *

الآية هى العلامة والتابوت صندوق يطلق فى الأغلب على الصندوق الذى يقلّ الميت والسكينة هى الأطمئنان .

بعد ما بيّن النبىّ لبنى اسرائيل ان الله بعث لهم طالوت ملكا ذكر لهم ما يوجب اطمئنانهم وان كان من وظيفتهم تصديق النبىّ فيما يقول لكن من سوء الصدف ان البشر الدارج لا يتقبل الحق بعفو الأرادة وتراه يماطل فى قبوله ويتساهل فى حقّه امّا اذا رأى الجاء ودفعا بالقوّة ولو عن غير منطق قدّم له نراه يذعن له ويحترمه واصولا الانسان العادى لا يحترم المعنى وكل احترامه للمادة جاها كانت ام مالا أم قوة .

وقال ان علامة بعثه ملكا ارسال التابوت معه واختلف فيما أريد بهذا التابوت فقيل انه التابوت الذى انزل على امّ موسى فوضعت فيه ابنها والقته فى اليمّ وعلى هذا تكون الألف واللام فيه للعهد وقيل انه صندوق التوراة الذى وضع فيه الواحها فيكون للعهد ايضا وقيل انه صندوق انزل عليهم فتكون اللام فيه للجنس .

فيه سكينة بمعنى ان الله اودع فيه من روحه ما يطمأنون اليه فى مسيرهم لعدوّهم ويكون فيه سكون نفس لهم كما ان فى الصندوق نفسه

بقية من مواريث الانبياء جعلها الله فى هذا الصندوق بركة وتيمنا قيل فيها انها عصا موسى ورضاض الألواح وعمامة هارون وأضيف الى ماذكرنا غير ذلك ، تحمله الملائكة اليكم تشريفا له وزيادة فى تثبيت الآية المنزلة من الله سبحانه : ان فى انزال هذا الصندوق عليكم آية لكم أن كنتم مؤمنين ــ كما تزعمون ــ بالله وانبيائه .

* (فلمّا فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم
بنهر فمن شرب منه فليس منّى ومن لم يطعمه
فأنه منّى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الّا
قليلا منهم فلمّا جاوزه هو والذين آمنوا معه
قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال
الذين يظنّون انّهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة
غلبت فئة كثيرة بأذن الله والله مع الصابرين) *

الفصل هو الانقطاع والأنهزاع وهو هنا بمعنى السير والحركة والأقلاع من المكان والابتلاء هو الأختبار ويقال طعم اذا تناول الطعام والطاقة القدرة وجالوت امير العمالقة الذين حاربهم طالوت والفئة الجماعة .

والمعنى ان التابوت جاء بنى اسرائيل فآمنوا بقيادة طالوت وان بعثه ثابت من ناحية الله وانقادوا معه فلما فصل بهم طالوت من اماكنهم لحرب عدوّهم وكانوا عشرات الألوف وكان الماء الذى معهم قليلا قال لهم طالوت ان الله مختبركم بهذا النهر الذى يعترض طريقكم وتعبرونه لعدوّكم (قيل فى النهر انه نهر فلسطين وقيل هو نهر بين الأردن وفلسطين) فمن شرب منه وكرع فيه فليس من انصارى واعوانى

ومن لم يشرب منه الا غرفة بيده فهو المؤمن الصادق فى انقياده فلمّا مرّوا به وصاروا الى ضفته وكان فيهم اشتهاء للماء شربوا منه واستكثروا ولم يراعوا ماسبق به طالوت الا قليلا منهم اكتفى بالغرفة الواحدة بيده طبق الشرط .

فلما جاوز طالوت النهر وعبره وعبر معه من امتثل الأمر وقام بالشريطة وكان عونا لطالوت وانخزل الباقون عن متابعته لانه نفى ان يكونوا منه قال اصحابه عندما شاهدوا جموع العمالقة وكثرتهم لاقدرة لنا ونحن بهذه الكمية اليسيرة فى مقابل جالوت وكثرة اعوانه اذ لاتناسب بين العدد اليسير والجمّ الغفير .

فاعترض مقالة هؤلاء من كان اكثر ايقانا بربّه واشدّ ايمانا بوعده فقالوا لاترعبوا ايتها الجماعة فكم من فئة قليلة لا يهتمّ لها بالنظر غلبت فئة كثيرة فى العدد بأذن الله واذن الله معناه مساعدة الله لمن يتقدم وعونه لمن يصبر ويتوكل والقضايا كلها مربوطة بحسن التصميم ومعاناة الشدائد والنتائج المهمّة لاتأتى عفوا والمطالب العظيمة تحتاج الى مفاداة والله مع الصابرين ، والمراد بالظن هنا غلبة المقاربة لحريم العلم فمعنى كونهم ظانّين لملاقاة الله يعنى يوم المعاد عليه والوقوف بين يديه ان عقيدة المعاد مهيمنة على افكارهم مالئة لعقائدهم وامّا الاحتمالات المقابلة فانها قد تدور فى اذهانهم الّا أنها احتمالات زائلة لاتدوم مع التروّى ولا تنصرف بالنفس الى خلاف الحق ولا يخلو من هذا الاحتمال وجولان الاوهام الّا من عصم .

* (ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربّنا أفرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) *

البروز هو الظهور ويقال افرغ على يده ماء الأبريق اذا صبّه والمراد ان تلك الفئة القليلة التى تفألت بأن الأقدام مع الصبر والاستعانة بالله تحتمل معها الغلبة تقدموا الى عدوّهم داعين ربّهم بأن يفرغ عليهم صبرا اى يضفيهم بالصبر لمقابلة العدوّ ومقاتلته وان لا يتشعب الخوف بقلوبهم وان يملأهم تصميما وعزيمة حتى تثبت اقدامهم فى حومة الميدان فاذا ثبتت اقدامهم حسب لهم العدوّ كل حساب وهاب موقفهم فان الثبات والاستقامة فى كل شئ مفتاح كل سعادة وكل ثابت يتصل بمقصده ولو بعد حين وبالنهاية طلبوا منه النصرة على القوم الكافرين ٠

* (فهزموهم بأذن الله وقتل داود جالوت وآتاه
الله الملك والحكمة وعلّمه ممّا يشاء ولولا دفع
الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ
الله ذو فضل على العالمين) *

بعد ماتقدم من دعاء المؤمنين بالصبر لأنفسهم والنصر على اعدائهم أجابهم الله فقوّى روحياتهم وأسكن الطمأنينة في قلوبهم وهزموا عدوّهم بأذن الله وقتل داود وهو احد جنود المؤمنين جالوت رأس العمالقة وآتى الله داود بعد طالوت الملك والسلطنة الدنيوية بأن وفّقه لهامع الحكمة وهى النبّوة وعلّمه من علوم الدنيا والدين ماشاءه له ·

جاء فى الأثر انّ الله اوحى الى نبّى بنى اسرائيل أنّ جالــوت يقتله من يستوى عليه درع موسى وهو رجل من ولد لاوى داود ابــن ايشا وكان لأيشا عشرة بنين اصغرهم داود وكان راعيا لغنم ابيه شديد البطش شجاعا قويا فطلبه طالوت من ابيه فأحضره فلمّا حضر البسه درع موسى فاستوت عليه وبرز داود لجالوت نفسه فرماه بحجر من مقلاع فوقع بين عينيه فأماته وانهزم عسكره بموته ·

و أبان سبحانه ان الناس اذا تركوا بحالهم و على رسلهم افسدوا افسادا تتأثر له كل النفوس لكنه تعالى يهيأفى الجيل بعد الجيــل من يبارز الفساد فيكتسحه أحيانا و هذا من فضل الله على العالمين ·

* (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق و انك لمن المرسلين) *

تلك اشارة الى ما سبق من اماته الألوف و أحيائهم و غلبة طالوت بفئة قليلة من المؤمنين لجالوت و اتباعه على كثرتهم و ايتائه الملك بعد ان كان عاطلا منه و توفيقه لداود بالأنتصار و الزعامة و النبوّة ولم يكن قبل ذلك الاّ راعى غنم كل هذا و نظائره وما اكثرها من علامات قدرة الله و تطويره الأمور و تحويره المجارى نسردها عليك طبق ما حصلت لتحرّك فيك نشاطا فى مجارى الحياة و تميت منك كسلا و يأسا و انك من اولئك الذين يحصل التطوير و التحوير على ايديهم فاذا كان ظهور موسى امام فرعون لدكّ طاغيته و قلب جيله و هكذا ما كان قبله و بعده من المناورات العقائدية فانك من الذين اصطفيناهم لمثل هذه الأهداف الروحية الغالية و ستنال بسعيك و تحملك للشدائد ما نال سلفك وقد حصل له (ص) حيا و ميّتا ما كلفّه الله بتحقيقه ·

* (تلك الرسل فضلّنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وايدّناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جائتهم البيّنات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) *

تلك اشارة الى جماعة الرسل الذين ورد ذكرهم فى الوحى الى النبىّ قبل نزول هذه الآية وبما انّ سورة البقرة متأخرة فى النزول عن كثير من السور كان المذكورون فيما سواها وفيما سبق على هذه الآية من آيها كثيرين صالحين لما ورد فى تفاصيلهم من الفضائل والخصائص وتفضيل بعض الرسل على بعض يتبع كثرة المؤهلات وجليل الخدمات والأتعاب وتحمّل المشاق فى اداء الرسالة وسعة منطقتها وضيقها .

وقوله منهم من كلّم الله اشارة الى موسى بن عمران الذى عرف بكليم الله ؛ ويقال المنظور بقوله ورفع بعضهم درجات هو نبىّ الأسلام لانطباق هذا المعنى عليه باعتبار كون رسالته آخر رسالة ومنطقتها التى تجول فيها من حيث الكمّ والكيف اوسع منطقة وباعتبار ان الأنبياء الكبار ورد ذكرهم صريحا كموسى وعيسى وبيّن مالهم من خصائص فكان ذلك بمنزلة الحصر فيه .

والبيّنات التى اوتيها عيسى ابن مريم معروفة النسبة له من ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى ؛وروح القدس تقدم الكلام عليه وقد

يكون المراد به هنا جبرئيل حيث ألزمه الله به مؤيداً و مسدداً ؛ولوشاء الله تكوينا ما اقتتل اتباع الأنبياء من بعد رحلة انبيائهم عنهم بالموت متنازعين على العقيدة كل يقول انا خير منك و ديني خير من دينـــك كالنزاع المعروف بين اليهود و النصارى وكالنزاع القائم بين فرق هاتين الديانتين و سائر الديانات و فرقـها .

فعل الأتباع هذه الأفعال النابية لاعن تقصير فى حقّهم مـــن البيان و ايضاح الحجة بل من بعد ما جائتهم البيّنات و قامت عليهـم الحجج سواء من طريق الأنبياء شخصا او ممثّليهم عموما او خصوصـــا و لكنّ اقامة هاته البيّنات لم تؤثر على عواطفهم فتجعلها تابعة للمنطق بل اعتزّوا بعصبيّاتهم وما زووه فى أنفسهم من جهات نفع خاصة ربطتهم الى حدود خاصة لا ينجع فيها التبشير او التحذير .

فمن الناس الذين بلغتهم الدعوة من آمن و منهم من كفر امّـــا تقليدا للسلف من اهله و امّا انانية و تعصبا :لكنّ الله سبحانه فـــى اطار الأمتحان و الأختبار لم يشأ تكوينا ان لا تقتتلوا او ان تقتتلـــوا فأن عالم التكليف معناه ابانة الطريق و الهداية اليه و التبشير بسلوك طريق الحق و التحذير من سلوك طريق الباطل .

و لكنّ الله يفعل مايريد مما شاة لمصلحة عبيده فى التكويـــن و التشريع جميعا .

* (يا ايّها الذين آمنوا انفقوا ممّا رزقناكم من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة و الكافرون هم الظالمون) *

الخطاب مع الذين آمنوا بالله و بشرائعه دعاهم فيه ربّهم الى الأنفاق فى سبيل الخير و طرق المعروف ممّا سهّل عليهم رزقه ينفقونه فى هذه النشأة ذخيرة ليوم معادهم حيث لا كسب فى ذلك اليوم وانّما هو يوم جزاء و مكافئة كما لا تنفع فيه صداقات الناس بعضهم لبعض فليس بمقدور الصديق يومذاك اعانة صديقه مادّيا ولا معنويا اذا كان محكوما بما يوجب عذابه و اضطرابه كما لا يشفع له احد من خاصة الله فانّ العريقين فى حبّ الله يمقتون المتجاسرين على قدس عظمة الله بالمعاصى الثقيلة : و الظالم البالغ فى الظلم هو الكافر امّا الظالم مع الأيمان بالمبدأ فهو اهون من ذاك واخفّ مسؤلية .

* (اللّه لا اله الاّ هو الحى القيوم لا تأخذه سنة
ولا نومٌ له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا
الذى يشفع عنده الاّ بأذنه يعلم ما بين ايديهم
وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه الاّ بما شاء
وسع كرسيه السموات و الأرض ولا يؤده حفظهما
و هو العلى العظيم) *

اللّه علم شخصى لواجب الوجود علة كل العلل و الأله هو المعبود و الحصر يفيد اختصاص المعبودية بالحق بواجب الوجود و ان كل معبود سواه معبود بباطل و هى دعوى واضحة الصدق و الحى يقابل الميت و ليس معنى الحياة فى الواجب كما يفهمه الناس فى الأحياء الباقين فأن الحياة فى المادىّ توجب نموّه وفى المجردات لا موضوعية لها بالمعنى المذكور ·

و القيّوم صيغة مبالغة من القيام على الشىء و هى النظارة عليه و السنة كسل النوم و مقدمته اما النوم فهو المستولى على كافة الحواس : و اللام فى (له) لام الملك بحقيقته وما فى السموات و الأرض معناه الوجود كلّه ومن ذا الذى استفهام انكار مع شدّة لحن كما تقول من هذا الذى يدّعى هذه الدعوى :ما بين ايديهم بمعنى ما سبق وجودهم وما خلفهم بمعنى ما يأتى بعدهم و كرسيّه سلطانه و نفوذه و قدرته و حاكميته و آده اثقله و العلى العظيم يراد بهما علّو المنزلة وعظمة الشخصية كل ذلك بحق ·

و المفاد انّ واجب الوجود علة كل العلل مبدأ كل المبادىء هو الذى لا معبود بالحق سواه وهو الحىّ بأطلاق هذه النسبة القائم

الناظر على كل شئ اذ لا بقاء للممكن مع عدم امداد الواجب لـــه لا يأخذه فى وجوده الفياض فتور او عجز كما يفتر صاحب السنة ويعجز النائم و كل ما فى الوجود له لأنه خالقه و صانعه و اى وجود يتجاسر فيشفع للفسقة الظلمة الاّ ان يأذن بالشفاعة ٠

والمتصيد من مجموع الآيات وضمّ بعضها الى بعض و هكذا الآثار وعرضها بعضا على بعض ان الذى تمكن الشفاعة فى حقه من قلّت خطيئآته و لم تكن مع العباد : يعلم ما سبق وجود هذه الأكوان ومـــا فيها وما يلحق تغييرها و تطويرها و ذلك لان الواقع صادر منه وراجع اليه كما لا يستطيع من فى السموات و الأرض ان يبلغوا كنه شئ مـــن علمه الاّ اذا اطلعهم عليه وسع سلطانه و نفوذه ابعاد الكون ولا يشقّ عليه حفظ ذلك كله وهو العالى المنزلة و واجد العظمة بحق و كـــل ما سواه منه يستمد و اليه يلتجأ بقهر التكوين ٠

و قد ورد فى فضل آية الكرسى اثر وفير فمن ذلك ما عن ابى بـــن كعب قال قال رسول الله (ص) يا ابا المنذر ايّة آية فى كتاب اللّـــه اعظم قلت الله لا اله الاّ هو الحى القيّوم قال فضرب فى صدرى ثم قـال ليهنك العلم وعن ابى عبد الله الصادق عليه السلام قال ان لكـــل شئ ذروة و ذروة القرآن آية الكرسى و الآثار الواردة فى فضلها دبـر كل صلاة كثيرة لا تحصى ٠

* (لا اكراه فى الدين قد تبيّن الرشد من الغى
فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك
بالعروة الوثقى لا انفصام لها و الله سميع عليم
الله و لىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى
النور و الذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم
من النور الى الظلمات اولئك اصحاب النار هم
فيها خالدون) *

الأكراه حمل الطرف على ما يكره و الدين هو العقيدة و الرشد هو هو الهدى و الغىّ هو الضلال و الطاغوت مبالغة فى الطغيان و هو الخروج عن الحدّ و الأستمساك بالشىء التشبث به و العروة الوثقى هى الحلقة المحكمة التى لا تنهار بمن يتشبث بها و الظلمة هنا كناية عن الكفر وعن كل غمّة و النور كناية عن الأيمان وعن كل انشراح .

و مفاد الآية يعبّر عن موضوع طبيعى فان على الفيلسوف و المبلغ و المرشد و فى طليعة الجميع الأنبياء و وسطاء الله سبحانه ان يزيح العلة عن وجه الجاهل و يبيّن له وجه الخطأ من الصواب و الرشد من الضلال و ليس بمقدوره ان يزرع ذلك فى قلبه فيحمله على الأيمان تكوينا و قسرا و هذا المعنى لا ارتباط له بوجوب مقاومة الجهلة و مقاتلتهم و ارجاعهم الى الحق بقهر القوة تعديلا للنظام و اشاعة للحق و تحكيما له و تثبيتا للحقيقة فان قود الجاهل بالقوّة الى حريم الحقّ لا يصيّره مؤمنا و ان الزم بأحكام اهل الأيمان : اذا فالعقيدة و زرعها فى سويداء القلب ليست من مظانّ الاكراه و الذى هو قابل للأجراء بيان طرق الرشد من طرق الغىّ و بعد ارائة الطريق فالذى

يكفر بالطغيان و الأنحراف و يناوئهما لمحض الحق و تصديقا بالمنطق و يؤمن بالله و بكل صدق فمثل هذا المكلف قد استمسك فى مجـارى عقيدته بعروة واثقة لا تنفصم من يده ولا تنهار به و الله سبحانه سميع لأقوال القائلين عليـم بحقها و باطلها قشريها و جذريها ماله واقـع ومالا واقع له ولا شك ان الله ناصر الذين آمنوا بالأيمان الصادق لأن صلة المؤمن به تتقاضى كل ذلك منه تعالى و لذلك يسدّدهم فـــى مسيرهم الحيوى و يحصّنهم من الموبقات و ينقذهم من المتائه الـــى الجوآد الشارعة و الطرق اللاحبة ٠

و الذين تمرّدوا على الخضوع لله والأنقياد له كما هو لازمهـــم التكوينى و التشريعى ان يخضعوا و ينقادوا له فانما يتولّى امورهـــم و يشرف عليهم كل منحرف ضال متجاف عن الحق و الصدق لان صلتهـم قائمة بهؤلاء ولا صلة لهم بغيرهم و كل قرين بالمقارن يقتدى ولا شـكّ ان قادة الأنحراف ينتزعون الانسان من صفاء فطرته الى تلبيس ما هـم عليه من عتوّ و تمرد و العاتى المتمرد معذّب خالد فى عذابه ٠

* (الم تر الى الذى حاجّ ابراهيم فى ربّه ان آتـــاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيـــى و يميت قال أنا احيى و اميت قال ابراهيم فـــأن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها مـــن المغرب فبهت الذى كفر و الله لا يهدى القـــوم الظالميـــن) *

هذا تفريع على ما سلف من قوله تعالى الله ولىّ الذين آمنـــوا و قوله و الذين كفروا اولياؤهم الطاغوت و المحاجّة هى امبادلـــة الحجج بين الأثنين فما زاد و بهت بالبناء للمجهول مثل قولهم سقط فى يده معنى و صيغة و ابراهيم هنا هو ابراهيم الخليل و الـــذى حاجّه هو النمرود بن كوش بن كنعان و قيل ابن كنعان مباشرة و قيل فى ابيه غير ذلك وهو من احفاد سام بن نوح ·

واختلف فى ان هذه المحاجّة كانت قبل القائد فى النار اوبعده و نقل فى الذى سببّ هذه المحاجّة ان نمرود كان اوّل جبار فـــى الأرض و كان الناس يخرجون يمتارون الطعام من عنده فخرج ابراهيم يمتار مع من يمتار فأذا مرّ به ناس قال من ربّكم قالوا انت حتى مرّ بـــه ابراهيم فقال من ربّك قال الذى يحيى و يميت قال انا احيى واميت الى آخر المحاجّة ·

و قوله تعالى ان آتاه الله الملك معناه ان الغرور الذى حملـــه على ادعاء الربوبية لنفسه و انكار صانع الكائنات منشؤه بسط الله النعمة له و توسعة الحياة عليه فهو ان قال ما قـال، فعن بطر و اعتزاز بالذات و هذه الشيمة موجودة فى اغلب المتنفذين من المقتدرين منـذ الأوّل

ومادام للبشر وجود على ظهر الأرض .

ومعنى قول ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت انه يبدع الحيــــاة للمادّة الهامدة الفاقدة لها ويسلب الحياة من المادة الحيّة بـدون عامل ظاهرى معروف وكلا هذين المعنيين خارجان عن طوق البشرية وقدرتها وقول النمرود فى قبال ابراهيم ومقالته هذه التى عرفـــت وزنها قول زائف لا قيمة له فأن معنى احيائه فكّه الأسير وعفوه عـــن المحكوم بالأعدام وهذا ليس بأحياء لا فى مادة اللفظ ولا فى معنـاه واما اماتته للحىّ فهى تكون بوسيلة لا بدونها والهدف من المـوت الذى عناه ابراهيم ما عبرّنا عنه .

ولما كان منطق النمرود بأنه يحيى ويميت منطقا يؤمن به العـوام كما يؤمنون بالمستحيلات غفلة منهم عن استحالتها لعدم تدبرهم فيهـا وحضار مجلس النمرود عوام مثله او يقلّون عنه درجة لم يجد ابراهيـم عليه السلام كثير طائل فى محاجّته معه فى الأحياء والأماتة وان مـا يعنيه هو منهما غير ما يعنيه النمرود بل عدل الى ماهو واضح الدلالة لا سترة عليه فقال انّ الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها مـــن المغرب .

امّا ان الله يأتى بها من المشرق فلأنّ لازم وجودها بما هـــى عليه من صفات وكيفيات يحتاج الى موجد عظيم خطير وكذلك تسييرهـا ولو حول محورها يحتاج الى محرّك ومسيّر وهذه المقدمات مطوية فـى كلمة (انّ الله يأتى بالشمس من المشرق) فأبراهيم عليه السلام يعنـى من كلمته هذه اننى اعبد ربّا هذه صفته فأن كانت فيك جـــدارة لأن تكون مثله فحوّل مجرى الشمس من المشرق واجعله من جهة مغربهـا الفعلى فسقط فى يد نمرود اذ لا يستطيع حتى مقالة هذا القـــول

لعلمه انّه يسخر منه .

و اللّه يهدى المؤمنين به الى وجوه الأدلة المثبتة للحق و امّا الجاحدون له المعرضون عنه المعتدّون بخاصة انفسهم فقط لا يهديهم الى ذلك لا لعناد منه تعالى بل لأعراض منهم عن تلقى العلوم و المفاهيم المنجحة نعم بقدرته ان يهديهم تكوينا و الجاء الى ذلك الاّ انه خارج عن منطقة التشريع و التكليف و الأختبار و الظلم الذى نسبه اليهم هو ظلمهم لأنفسهم بجعلها فى مفازة عن اللّه و ظلمهم لغيرهم بتضليلهم للجاهلين .

* (اوكا لذى مرّ على قرية و هى خاوية على عروشها
قال انىّ يحى هذه اللّه بعد موتها فأماته اللّه
مأة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما او
بعض يوم قال بل لبثت مأة عام فانظر الى
طعامك و شرابك لم يتسنّه و انظر الى حمارك
و لنجعلك آية للناس و انظر الى العظام كيف
ننشزها ثم نكسوها لحما فلمّا تبيّن له قال اعلم
انّ اللّه على كل شئ قدير) * .

الخواء هو الخلوّ يقال خوى فلان بمعنى خلت بطنه من الطعام فذهبت قوّته فقرب من الأنهيار و خوت الدار اعطت قوّتها من يدها لتقادمها و مرور الزمان عليها و العروش هنا اسس البنيان و انّى هنا بمعنى كيف و تسنّه تغيّر بمرور السنين عليه و لم يتسنّه لم يتغيّر و النشز هو الرفع .

و تقدير هذا الكلام بالنسبة الى ما قبله هكذا يكون الم ترالى

الذى حاجّ ابراهيم او هل رأيت كالذى مرّ على قرية و اختلف فى المارّ على القرية من هو فقيل هو عزير و قيل هو أرميا و قيل هو الخضر كما اختلف فى القرية انّها ايّة قرية فقيل بيت المقدس لمّا خرّ به بخت نصر و قيل هى القرية التى خرج منها الألوف حذر الموت وقد سبق التعريف عنها آنفا .

و خواء القريه على عروشها تلاشيها وتحطمها فقال هذا المارّ كيف يحيى اللّه هذه فتعود عامرة و اهلها الموتى احياء .

و ليس هذا من استبعاد احياء القرية بعمران مساكنها واراضيها فان ذلك شئ بسيط على البشر متى توجهت رغبتهم اليه ولا احياء الموتى بمستبعد عند المؤمن باللّه على اللّه سبحانه و لكن مساق الأستفهام يعنى به الرغبة فى مشاهدة هذه المطالب المقدورة للّه رؤيه عين بعد ان ثبت جوازها عليه بالدليل :وما راء كمن سمعا .

و ذلك كمقالة ابراهيم فى مناجاة ربه رب ارنى كيف يحيى الموتى فأراد اللّه ان يجسّم له ما اراد كشفه لعينيه فأماته مأه عام ثم بعثه من الموت الى الحياة ثم خاطبه بعد بعثه بقوله كم لبثت و مكثت فى نومتك هذه قال لبثت يوما او بعض يوم و ذكر اليوم هنا او بعض اليوم كناية عن قصر الزمان فقال تعالى بل غاب عنك ما لو تدبرت له لأقامك العجب و اقعدك فأنك فى همودك هذا لبثت مأة عام زمان يبلى الديار و يبيد الأجيال فانظر الى طعامك و شرابك الذى كان معك لم يتغير حتى كأنه صنع فى وقته هذا و آية مرور مأة سنة عليك و على طعامك وشرابك نظرك الى حمارك الذى كنت راكبه فتميّزه تجده عظاما نخرة و انظر الى هذه العظام كيف نرفعها عن الأرض و نقيمها و نكسوها لحما فتعود كما كانت فلمّا تبيّن للمارّ من طريق تفسخ حماره

واعادته طريا من جديد ان مقدار لبثه ليس يوما او بعض يوم وانّه زمان طويل يبيد العظام القوية ويبليها وانّ بعث من فى القبو واحياء القرى الخاوية هكذا يكون كبعث حماره بعد اندراسه قال بعد ذلك لقد حصل لى العلم شهودا ومكاشفة بعد ان كان محض عقيدة ان اللّه على كل شيء قدير لا يعجزه مقدور ومهما كان شاقا بل مستحيلا من طريق العادة على اقوى الأقوياء واعظم العظماء .

* (واذ قال ابراهيم ربّ أرنى كيف تحيى الموتى قال
او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ
اربعة من الطير فصرّهنّ اليك ثم اجعل على كل
جبل منهنّ جزء ثم ادعهنّ يأتينك سعيا واعلم
ان اللّه عزيز حكيم) *

الصرّ هو الجمع والصرّة هى التى تجمع فيها الدراهم وغيرها والشاة المصرّاة التى جمع اللبن فى ضرعها ومفاد الآية هنا شبيه بآية عزير السابقة وهو ان هذا النبىّ العظيم احبّ ان يرى ببصره ما يعتقده ببصيرته من احياء اللّه الموتى فانه ليس الخبر كالعيان عند كل احد وهذا المعنى لا ينافى ما ورد عن امير المؤمنين علىّ عليه السلام من قوله لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا لان اليقين القلبى عند ابراهيم وعلىّ وغيرهما من كلّ الموحدين لا نقص فيه بمعنى انه ليس فى قلوبهم فجوة خالية من اليقين باللّه وصفاته حتى تحتاج الى متمم ومكمّل ورؤية البصر انما تفيد الجلاء لا اكثر كالخارطة التى ينقشها المهندس نقشا متقنا دقيقا بحيث ترى جميع خصوصيات البناء التى ينوى اقامته فانها تفيد اليقين الجازم بمفادها ولكنّ رؤية البناء على

يد البناء على غار تلك الخارطة تعطى جلاء للبصر له اهمية فـــى النفس ٠

كيف تحى الموتى بمعنى على ایّ شكل و لون يكون احياؤك للموتى فان ذلك لم تره اعيننا و ان آمنت قلوبنا بقدرتك عليه ابتداء و اعــادة قال او لم تؤمن الى الآن بأننى اقدر على فعل ذلك قال بلى انا مؤمن بقدرتك على كل مقدور و مهما كان و لكن انما سألت ذلك ليطمئن قلبى من طريق بصرى لا من طريق البرهان وحده قال تعالى اذا لأجـــل اعطائك نموذجا من ذلك فخذ اربعة من الطير اى انتخب اربعة اعداد من الطيور بلا خصوصية لطير على آخر كما لا خصوصية للطير على غيــره من الحيوانات الحيّة و انّما هو نوع محقّق كالمثال يؤتى به حيث يقــال للتمثيل بالفاعل ــ جاء زيد ــ ٠

فصرهّن اليك اى اجمعهنّ عندك ثم قطعهنّ قطعا ثم اجعــل على كل جبل ممّا يحيط بك منهنّ جزء ثم ادعهنّ فان اجزائهن مــن نفس دعائك لهن تجتمع و يأتلف كل طير من اجزاء نفسه و يأتينــك بسرعة اجابة لدعائك بأذن اللّه و اعلم يا ابراهيم ان اللّه عزيز لا يتفلّت مقدور بالتمرد على ارادته حكيم فى صنعته و افعاله و اقواله ٠

* (مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل
حبّة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مأة حبة
و الله يضاعف لمن يشاء و الله واسع عليم) *

. الأنفاق اخراج المال و بذله و سبيل الله طريق خيراته و مبراته من كافة الخدمات الأجتماعية و الحبّه هى الواحد الذى يأخذ مكانه من الأرض و يأخذ بعد ذلك بالنموّ و المضاعفة التكرار .

تعزيزا لمقام المحسنين قال ربّ العزّة اذا احبّ الأنسان ان يقف على ما ينوشه المحسن من حسن الجزاء فانّ مثله مثل الزارع الذى يستفيد من نتاج الحبة الواحدة من البرّ سبعماءة حبة و مضافا الى ذلك قد ينوشه من فضل الله اكثر من ذلك بكثير فأن الله واسع فى عطاياه واسع فى قدرته لمن يشاء ان يحبوه و ليست ارادة الله جزافيه بل لابدّ لها من داع متزن كأخلاص زائد فى العطيّة و مصادفتها محلّها و نظير ذلك عليم بمنويات المنفقين .

* (الذين ينفقون اموالهم فى سبيل اللّه ثم لا يتبعون ما انفقوا منّا ولا اذى لهم اجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) *

هذه الآية ذكرت بعد سابقتها بمنزلة الأستدراك فقال تعالى ان المحسن الذى يستفيد من احسانه هو الذى يهدف الى خدمة اجتماعية نوعية يرضى بها ضميره و ربّه ولازم ذلك ان يكون انفاقه فضلا عن كونه رافعا لحاجة المحتاج او لبعض حاجته مريحا لضمير الطرف بحيث لا يحسّ من طريق ما وصل اليه اذية روحية و اضطراب بال و خاطر ٠

و جالب الأذية الروحية عاملان (الأول) اظهار المنّة عليه ولو لم يكن امام احد من الناس بأن يقول اننى اعطيتك كذا شئ و سددت عوزك بكذا شئ فأن هذه المقالة تؤثر فى نفوس الأعفاء كل الأثر (الثانى) ادخال الأذية عليه باعتبار خشونة الألفاظ او جفاف الحركات تبدو منه لطرف الحاجة سواء كان امام الناس ام لمفرد الطرف فان واحدا من هذين العاملين كاف فى الأطاحة بمعروفه و احسانه كما يأتى الى زرع قد صفى سنبله فيحرقه بنار : اذا فغير الممتنّ وغير المؤذى فى عطاياه و انفاقاته له اجره عند ربّه ولا خوف عليه انه اعطى ماله و لم يستحصل من ورائه شيئا كما لاحزن عليه انه انفق ولم يعتض ٠

* (قول معروف و مغفرة خير من صدقة يتبعها اذى
و الله غنى حليم) *

بمعنى ان مجابهة السائل و مواجهة المسترفد بكلام جميل واجابة شريفة و هكذا ستر حاله وعدم كشفه للناس بما يثير فى نفوسهم سقوطه و امتهانه خير من ان تعطيه شيئا و تعذبه بسوء المواجهة قلبا فأن طالب المال انما يريده للترفيه عن نفسه فاذا كان فى ذلك عذاب لروحه و تكدير لخاطره لم يحصل له الترفيه المذكور بل ربما تزيد غممه و يكثر المه .

و المغفرة مأخوذة من الغفر وهو الستر فأن المغفرة انما سميت بهذا اللفظ لأنها تستر الذنب كما ان المغفر يستر ما تحته من البدن و الله غنى عن الناس فى استثارتهم لمواساة ضعفاء عباده و انما فعل ذلك اختبارا لهم حليم لا يعجل بالعقوبة اذ لعلّ مكفرا يحصل بعد ذلك للذنب .

* (يا ايّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ
و الأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن
بالله و اليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب
فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما
كسبوا و الله لا يهدى القوم الكافرين) *

هذه الآية بالنسبة الى ما سبق عليها وما يلحقها فى مفاد متحد انما يختلف فى حواشيه و اطرافه و يرمى الجميع الى انّ الأحسان من الأنسان يجب ان يكون نزيها خالصا لا تشوبه شائبة منّة و اذيّة و رياء بل يلزم ان يكون للضمير و الأيمان و خدمة الأخوان فى الله ٠

٠ فيا ايّها الذين آمنوا بالله و صدقوا به لأنهم وجدوا ان سعادتهم منوطة بهذا الأيمان قد اكّدنا عليكم لزوم المواساة لذوى الحاجات فلا تعقّموا احسانكم الذى يأتيكم بالخير الوافر دنيا واخرى بامتنانكم على من تحسنون واذ يتكّم لمن تعطون و تواسون نظير من ينفق ماله لأجل ان يراه الناس منفقا لا لداعى حاجة اخيه ولا استجابة لدعوة الله له الى ذلك ٠

و مثال الممتّن المؤذى لمن تصدق عليه و المرائى فى انفاقه كمثال من جاء الى حجر أملس فى واقعه غير قابل للأستنبات فوجد عليه ركام تراب تخيّل له انه صالح لأن يزرع فيه فأصابه وطر شديد فغسل ماعليه من تربة فبأن حجرا صلدا يردّ حدة الفأس من صلابته فاذا به بالنسبه الى ما حاول فاشل لا مطمع له بما كان ينويه كذلك الأعمال غير الصحيحة يتحمل الأنسان مشقتها ولا يناله شئ من تعبها ٠

ممّا كسبوا بمعنى ممّا حاولوا كسبه فلم يتهيأ لهم منه الاّ تعب

البدن و الخاطر و اللّه بأعراض الكافر به عن التوجه اليه تعالى يعرض بلطفه عنه فلا يعود مهتديا ولا هادى له ·

* (ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضاة اللّــه
و تثبيتا من انفسهم كمثل جنّة بربوة اصابها وابل
فآتت اكلها ضعفين فأن لم يصبها وابل فطــلّ
واللّه بما تعملون بصير) *

الابتغاء هو الطلب و التثبيت هو التمكين و الجنّة هى البستـان و الربوة جمعها ربى و هى الهضاب وعوالى الأرض فى قبال مهابطها و منخفضاتها و الأكل هو المأكول و الطلّ هو المطر الخفيف ·

يقول سبحانه و بعكس ما يصيب الممتنّ المؤذى فى تصدّقه يصيب المنفق لوجه اللّه لا مرائيا ولا ممتنّا بل لأجل تمكّن الايمان من قلبــه فينفق بداعى ذلك ليستثمر منه عملا صادقا قائما على اساس رصيــن اضعاف ما بذل و يكون فى عمله المثمر كمن يقصد الى اعالــى الأرض فيستنبتها فأنّ عمله هذا يؤتيه اضعاف ما يؤتيه عمله فى المهابــط و المنخفضات لأن الربى بعيدة عن مداسة الأرجل و الماء الــذى يصيبها تأخذ كفايتها منه و يسترسل زائده و فى ذلك نموّهــا و ازدهارها ·

امّا المهابط فانها مستنقع الماء ما يصل اليها مباشرة من السمــاء وما يسترسل اليها من العوالى و كثرة الماء ان لم تمتها تضعفهــا و الربوة حتى اذا لم يصبها وابل المطر فانها تكتفى برذاذه كذلــك المنفق فى سبيل اللّه يختلف حاله فى درجات الأخلاص فضعيــف الأخلاص ينوشه طلّ عمله و قويّه يناله وابل عمله و اللّه بما تعملون مـن

خير و شرّ بصير مطّلع فيجزى كلا بما يستحق ·

* (ايوّد احدكم ان تكون له جنّة من نخيل و اعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات و اصابه الكبر و له ذريّة ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبيّن اللّه لكم الآيات لعلّكم تتفكرون) *

النخيل جمع نخل و الأعناب جمع عنب و ضمير من تحتها ان رجع الى الجنّة كان معناه تجرى الأنهار في شقوق تلك الجنّة المحفورة فى سطوح ارضها و ان رجع الى النخيل و الأعناب فواضح و الكبر هو صعود العمر و الذريّة ما ينسله الأنسان و يكون منه و الأعصار هو الزوبعة يعنى الريح الشديدة و التفكر جولان الفكر ·

و هذه الآية كذلك تشير الى الأعمال التى يتحمل مشقتها الأنسان ولا ينال من خيرها لوقوعها على غير الوجه المطلوب او لتعقبها بما يحبطها فمعنى الآية اذن ايحب احدكم ان يكون له بستان اخّاذ للنظر بشجره و ثمره فيه نخل و عنب و سائر الثمرات، و انما نسب تعالى الجنّة اوّلا الى النخيل و الأعناب ثم عمّ بعد ذلك بقوله فيها من كل الثمرات لأن هاتين المادتين اكثر وجودا و اسمن نتيجة ·

و بعد ان اعدّ هذه الجنة لزمن الشيخوخة و ليس له من ذريّته من يقوم مقامه فى تعهّدها بل له ذريّة ضعاف تقعد بهم اعمارهم عن مزاولة الأعمال الشاقّة و فى هذه الحالة حيث هو احوج ما يكون الى هذه الجنّة لأعاشة نفسه و تموين ذريّته يصيبها اعصار فيه نار فتحترق بما فيها فيصبح لا يملك غير الحسرة و كيف تنفعه حسراته والقوى خائرة

والذرية قاصرة فهذا مثل قيّم ضربه سبحانه لمن تذهب اعماله واتعابه سدى، هكذا يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فيها فتهتدوا الى ما فيه الرشاد والصلاح .

والآية تصلح ضرب مثل للآخرة والدنيا امّا بالنسبة الى الآخرة فمن لازم الأنسان ان يعمر آخرته من زمن شبيبته ويتخذ من تجمع قواه ذخيرة لآخرته لانه اذا شاخ بطلت كافة قواه فلم يكن به ان يقوم بواجب عبادة بدنية او ماليّة ويكون انّما يحمل معه اوزار شبيبته وامّا شيخوخته فهي ليست ظرفا للتدارك، وامّا بالنسبة الى الدنيا فمن لازم الأنسان ان لا يفني شبابه في مالا يعود على شيخوخته بطائل بأن يعمل زمن تجمّع قواه اعمالا تستنفذ حيثيته وقوته جميعا فاذا جاء زمن شيخوخته خانه طوله فما به ان يعمل لنفسه وخانته انحرافاته فلم تبق له شرفا يقدّره الناس عليه ويكرمونه من اجله .

* (يا ايّها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ماكسبتم
ومما اخرجنا لكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث
منه تنفقون ولستم بآخذيه الاّ ان تغمضوا فيه
واعلموا انّ الله غنىّ حميد) *

يممّه قصده والخبيث هو المستقذر المسترذل والأغماض غضّ النظر ، ثم ابان سبحانه للمؤمنين جهة اخرى مقومة للأحسان متمّمة له وهى انّ من كمال انفاقهم فى سبيل الله قصدهم للطيّب الجيد ممّا كسبوه بالتجارة وهكذا الطيب ممّا استحصلوه من الزروع والغروس ولا يسوغ لهم ان يقصدوا المسترذل الساقط من ذلك وجعل سبحانه معيارا واضحا للطيب والخبيث ممّا يكتسب او يزرع او يغرس وهو ان ملاك الطيب ما تأخذونه بلا اغماض نظر لأنكم تجدونه واجدا للوصف الذى به يدرج فى الأسواق والمعاملات وملاك الخبيث هو ما تأخذونه مع غضّ النظر عن عيوبه لداع يدعوكم الى ذلك امّا لأنه ارخص قيمة من السالم الواجد لصفة الكمال او لقلة فيه لا تحمل صاحبها على المماكسة والمجادلة او لخجل من الطرف يمنع من الردّ ونظير ذلك من الأعذار ٠

واعلموا ايّها المؤمنون ان الله لم يدعكم الى الأنفاق فى سبيله لحاجة منه الى ذلك بل هو اغنى الأغنياء وانما دعاكم اليه اختبارا لكم فى مقابل اخوانكم النوعيين فى الله كما انه لا يغمط حق المنفق فى سبيله بل هو حامد له ذاكر لامتثاله الوظيفة شاهر لاسمه مكثر لجزائه غدا ٠

* (الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء و اللّه
يعدكم مغفرة منه و فضلا و اللّه واسع عليم) *

اسلفنا ان الشيطان رمز الباطل الذى يجرّ النفوس الى ميولها الرعناء و ينكفأ بها عن مواجهة عقولها ولا شكّ ان الأنسان المنفق لماله المزعج لنفسه بالسعى فى مطالب اخوانه لو غاب عن عقله لما فعل ذلك فأنّ درهمه يؤمّن له رغبة و راحة قدمه و قلمه تكسبه ارتياحا و هذا هو الشيطان الذى يدعو الى الأمساك و يعد الفقر من طريق بذل المال فى الخيرات و المبرات امّا اللّه وهو رمز القدس فهو يدعو الى الأحسان والمواساة وان الارتياح الذى يحصل للأنسان منها لا يعدله شىء امّا فى الدنيا فوجاهته وعنوانه اللذان يحصلهما بين الناس و للجاه مذاق مهمّ يبذل اهل الدنيا فى سبيله كل مقدور و امّا فى الآخرة فمضاعفة اللّه له الجزاء و المكافئة بالخير .

و قوله تعالى يعدكم مغفرة منه معناه ان الاستجابة للّه فى اوامره الزامية كانت ام غير الزامية من مكفرات الذنوب و وعده بالفضل هو حسن المكافئة و اجزال العطية ، و اللّه واسع فى عطائه و افضاله لسعة قدرته عليم بوجوه المصالح التى يأمر بها و يثيب فاعلها عليها .

* (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا وما يذكّر الاّ اولوا الألباب) *

الحكمة هى بيان حقيقة الشيء من ایّ نوع كانت تلك الحقيقة :

(١) فقها : فأن الفقيه الذى يفتى فى حق من سافر من وطنه من بعد الزوال و لم يصل و انما اراد الصلاة فى المسافه انّه يجمع بين القصر و التمام غير محقّق لان ما بين الزوال الى المغرب وقت مشترك الاّ ما اختصّ من اوله بالظهر ومن آخره بالعصر فيجوز للمكلف ان يوقع الصلاة فى ایّ جزء شاء حاضرا كان ام مسافرا فقط يختصّ اول الوقت بالفضيلة لا اكثر فمتى صادفت ارادته الصلاة فى وطنه صلّى تماما و فى المسافة صلّى قصرا .

(٢) او قرآنا : كما يحمل ابناء التسنن الفاظ اليد فى مثل يد الله مبسوطة و جاء ربّك و الملك و عصى آدم ربّه فغوى على حقيقتها اللغوية ولا شكّ ان ذلك مخالف للبرهان القاطع و للقرآن نفسه فأن وجود الواجب تعالى مجرد عن المادة و ليس محلاّ لليد او للمجيء كما ان آدم نبى والنبى لا تلابسه الغواية و العصيان و الاّ كان كسائر الافراد .

(٣) او تاريخا : كما يسرد قرآء القصة الحسينية ان الحسين ركب فى يوم الطف فرس جدّه رسول الله ولا شكّ فى غلطه فأن الفرس لايعيش خمسين او اكثر من السنين و واقعة الطف صادفت خمسين سنة بعد وفاة الرسول .

(٤) او موآد طبيعية (٥) او موارد عقلية : فكل هذه الاشياء وغيرها متى بحث عنها بحثا جذريا تحقيقيا قيل لذلك البحث حكمة

ولا اختصاص للحكمة بالفلسفة كما يسبق الى جملة من الأذهان ·

ومعنى الآية انّ الله سبحانه اذا وجد عبده مستعدّا لتلقّـــى المعارف طالبا لتفهمها راغبا في اكتناه ما يدور في باله او يعتـــرض امام بصره اعانه على ما يحاول فقوله تعالى من يشاء ليس المنظور بـــه الأشائة الأعتباطية فان ذلك بعيد على الحكيم ·

ومن يؤت الحكمة بأن وفّق لدرك المطالب دركا قائما على اساس التجزئة والتحليل فقد اوتى خيرا كثيرا وما ضلال من ضلّ من النـــاس بشتّى انحاء الضلال سواء كان في عقيدة المبدأ ام في المذهب ام في النواحي الأجتماعية الاّ نتيجة للقشريّ من المعرفة الذى يسوق بصاحبه الى كل متاهة :وما يتذكر هذا المنطق ولا يعرف وقعه الاّ اولـــــوا الألباب ·

* (وما انفقتم من نفقة او نذرتم من نذر فأن اللّـــه يعلمه وما للظالمين من انصار) *

النذر هو التزام الأنسان بعمل بدنى او مالى متى تحقق لـــه مطلب يحاوله كأن يعود الى اهله سالما او يعافى من مرضه او متـــى وفّق لأداء ما هو واجب عليه من باب تأكيد الوجوب او متى وفّق لتـــرك محرّم تأكيدا للتجنب عنه من باب زجره لنفسه و نظير ذلك فهذا كلّـــه يقال له نذر بصيغة مثل قوله للّه عليّ كذا ان وفقت لكذا و لم يكـــن مقصده محرما (فى قوله لكذا) ٠

و متى تحقق شرطه وهو اباحة متعلقه ورجحانه وجب القيام بـــه و متى حنث فى نذره وجبت الكفارة و كفارته كبرى مخيّرة و تفصيل ذلـــك فى الفقه : يقول تعالى وكل ما تنفقونه من نفقة من قليل و كثير و طيـــب و خبيث مع منّ و اذى او طلبا لمرضاة اللّه او تنذرون من نذر فأن اللّـه يعلمه بتفاصيله و بما وقع عليه و بما نويتم فيه و كل متجاوز عن حـــدود اوصاف النفقة فى سبيل اللّه و النذور المنذورة يعتبر ظالما لنفســـه و لغيره و الظالم لا ناصر له فى مقابل ما يريد اللّه به ٠

* (ان تبدوا الصدقات فنعمّا هى و ان تخفوها و تؤتوها الفقراء فهو خير لكم و يكفّر عنكم من سيئآتكم و اللّه بما تعملون خبير) *

فنعمّا هى بتقدير فنعم شيئا هى نظير قولنا نعم رجلا زيدا يريد تعالى ان المتصدق بالخيار ان شاء تصدق علنا وان شاء تصدق سرّا كل ذلك بالشرائط السابقة لكمّ الأنفاق فى سبيل اللّه و كيفه و صدقة العلانية حسنة و ربما تكون واجبة على الأنسان الذى ينتظر من امثاله الأنفاق لغنائه و صلاح ظاهره فاذا لم يتظاهر بصدقاته و اسرّها فربّما نالته الألسنة و صدقة السرّ فى غير ما اشرنا اليه من المورد و نظائره افضل لأنها ستر على المحتاج المتعفف و لما فيها من التجنب عن الرياء .

و يكفّر عنكم من سيئآتكم فان الصدقات على حبّ اللّه يدحض جملة من السيئآت فان الحسنة تذهب السيئة اجمالا وهو تعالى بما تعملون من خير و شر و اخلاص و رياء خبير .

* (ليس عليك هداهم و لكنّ الله يهدى من يشاء
وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون الاّ ابتغاء
وجه الله وما تنفقوا من خير يوفّ اليكم و انتم لا
تظلمون) *

مورد نزول الآية ان المسلمين لمّا وجدوا الله سبحانه يندّد بالكافرين و المشركين و يخطأهم فى خطتهم و يلعن مبادئهم الجاهلة تحرجوا من مواصله فقراء غير المسلمين ورأوا فى ذلك اثما عليهم ومودّة لمن يبغضه الله فخاطبهم الله بلسان خطابه لنبيّه الذى هو فى طليعتهم و منه يأخذون وعنه يصدرون بأنك يارسول الله انما بوسعك ان تبشّر و تنذر و ترشد و ليس بمقدورك ان توجد الهداية فى قلوب اولئك الكفرة و تخلق الأيمان فى افئدتهم و التكوين فعل الله فهو يقدر ان يهدى بقسر التكوين كل من اراد هدايته و لكنه لا يفعل ذلك لأنه خلاف المصلحة الداعية للأمتحان و الاختبار فأعطاء فقراء عباده تعالى و ان لم يقوموا بوظيفة عبوديتهم لا محذور فيه بل فيه اجر كما جاء فى الأثر لكل كبد حرّى أجر ·

و اعلموا ايّها المؤمنون بطورعامّ ان كلّ ما تنفقونه من خير فنتيجته عائدة لأنفسكم كالمتاجر الذى يجلب المتاع من اماكن بعيدة فأن عوائده لنفسه ولا شكّ ان المؤمن لا ينفق الاّ طلبا لمراضاة الله و لولا ذلك لتخلف عن النفقة فى سبيل الخير اكثر المنفقين كما نراه عيانا فى متوسعى الماديين فأنه لا ينجز عنهم الاّ ما لا قيمة له و نرى المقلّين من المؤمنين يشاطرون اخوانهم المحتاجين من جميع ما يملكون تأثرا بدعوة الله لهم ·

و تيقنوا ان كل ما تنفقونه فى سبيل ربكم فهو كقرض تقرضونه يوفّ

اليكم بلاريب و انتم لا تظلمون حقوقكم ولا تبخسون فيما تقدمون لأنفسكم بل تجزون عوضه مضاعفا •

* (للفقراء الذين احصروا فى سبيل اللّــه
لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل
اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألــون
الناس الحافا وما تنفقوا من خير فأن الله بــه
عليــم) *

ورد فى الأثر ان هذه الآية نزلت فى اصحاب الصفّة و هم نحو من اربعماءة رجل لم تكن لهم مساكن فى المدينة ولا اقوام ولا اموال حبسوا انفسهم فى المسجد متبتلين مستعدين للأشتراك فى كل سريّة يبعثها رسول الله (ص) فحثّ الله عباده على مواصلتهم و تفقدهم •

و قوله للفقراء خبر لمبتدأ محذوف تقديره النفقة او الصدقة للفقراء الفاقدين لوسيلة المعاش الذين حبسوا انفسهم فى سبيل الله مــن تهجّد و تعبّد وجهاد ولا يستطيعون ضربا فى الأرض للأكتســاب و التجارة لفقدانهم للبضاعة و للحماة الذين يتحصنون بهم و يلجأون الى قوّتهم فان التجارة و الكسب فى جميع الأوقات على الأخص فى تلك العهود البربرية التى لا يستطيع احد ان يحفظ فيها نفسه ومالــه وعرضه الاّ بالقوة المانعة و الخفارة المحصّنة تحتاج الى عوامل عديدة منها المال و امن الطرق و قوّة السعى و هؤلاء المشار اليهم يفقدونها •

و من صفة هؤلاء الفقراء انهم متعففون يتظاهرون بالأستغناء على انهم ليسوا باغنياء يعرف ذلك فيهم من ظواهرهم المزدانة بالتجمل و التعزز ، لا يسألون الناس بالمرة لأنّ لازم التعفف هو ذلك فقولــه

تعالى لا يسألون الناس الحافا ليس المنظور به انهم يسألون الناس لكن مع عدم اصرار فى المسئلة بل المنظور نفى القيد و المقيد جميعا كما يقال هو ليس بسكّير ولا فحاش بمعنى لا يسكر ولا يفحش لا ان معناه يسكر سكرا متعارفا و يفحش قليلا لا كثيرا ، وما تنفقوا يا ايّها المنفقون من خير قلّ ام كثر فان الله به عليم لا تفوت علمه الذرّة من الخير تكون منكم و تصدر عنكم .

* (الذين ينفقون اموالهم بالليل و النهار سرّا
و علانية فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم
ولا هم يحزنون) *

ذكر الشوكانى فى تفسيره عن ابن مردويه بالرواية عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى على بن ابى طالب كانت له اربعة دراهم فانفق بالليل درهما و بالنهار درهما ودرهما سرّا و درهما علانية .

و مورد النزول و ان كان خاصا لكن الهدف منه تعميم العمل من كل مؤمن تأسيا بأميرهم فى عمله الفاضل و المنظور بالآية ان الأنفاق فى سبيل الله لا يوقت بوقت فلا فرق فيه بين ليل و نهار ولا يكيّف بكيف خاص فالعلانية النزيهة فيه صحيحة و السرّ فيه مقبول و الأجر من الله على الأعمال الخيرية حاصل و الخوف فى يوم الخوف من سطوة الله عن المحسنين زائل و حزن الحسرة فى يوم الحسرة فيهم مفقود لأنهم فعلوا فى تسنّى الوقت مالا حسرة معه .

* (الذين يأكلون الربا لا يقومون الاّ كما يقوم الـذى
يتخبطه الشيطان من المسّ ذلك بأنـّهم قالـــوا
انّما البيع مثل الربا و احلّ اللّه البيع و حرّم الربـا
فمن جائه موعظةٌ من ربّه فانتهى فله ما سلف وامره
الى اللّه ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيهـا
خالدون) *

الربا هو الزيادة و ربى الشئ زاد و التخبّط هو المشى على غير نهج متزن و تخبّطه الشيطان اذا تصرّف فيه تصرفا جنونيا و المسّ هـو مخالطة الجنّ ــ كما يقولون ــ للأنسان فيجنّ و البيع هو المعاملـة المعروفة و الموعظة هى النصيحة بالحق و السالف الماضى ٠

الربا فى المعاملات على قسمين قسم يقع فى البيع و ذلك يكون فى النقدين و المكيل و الموزون مع التماثل فى الجنس وهو اقلّ القسميـن وجودا و قسم يقع فى القرض بأن يقرضه مأة الى رأس شهر و ربحهـا خمسة او عشرة الى غير ذلك و هذا هو الأكثر تداولا بين الناس حتى ملأ العالم من طريق المصارف (البنوك) فى هذه الازمان و كـلا القسمين حرام شرعا و فاعله مرتكب كبيرة جزما و فضلا عن تهديـدات القرآن للمرابين ورد فى السنة عنه شئ كثير غليظ فى مفاده ٠

و انّما ندّد الشرع به لأمرين حيويين (الأول) بطالة المرابـى عن مزاولة الأعمال المثمرة و قبوعه تحت اكناف ماله و سدّه باب المعروف من التصدق و الأنفاق فى سبيل اللّه و القرض لوجه اللّه لأنه اعتاد ان لا يطلق الدرهم من يده الاّ فى مقابل نفع منقود (الثانى) ارتكـاس المستدين دائما و رزوحه تحت اعباء الدين و منافعه التى تفور فـوران

العين النابعة على مرور الأيام فضلا عن الشهور والأعوام وهذه المطالب تجلّت اليوم من طريق المصارف تجليا مدهشا حطّمت الكثيرين و اخذت اموال المصارف تتصاعد فى الساعات تصاعدا عظيما ٠

و شبّه اللّه المرابى بعد ان يرد فى هذا الميدان و يستلذّ مـا يدخله من منافع تتورم على مرور الأوقات بالمجنون فى تصرفاته غيـر المتزنة بحيث يمشى به الهلع و الولع و الطمع مشيا بعيدا عن السكينة و الوقار بعيدا عن العاطفة و الرحمة بعيدا عن كل خلق فاضل ٠

و اذا اشكل على المرابين من طريق اعمالهم الجنونية هذه قالـوا لا اشكال علينا فأنه بيع او ان البيع مثله فكما انّ من اقسام البيـع النسيئة مثمنها معجّل و ثمنها مؤجل فأن الربا شبيه ذلك فردّ اللّـه عليهم بأن البيع و الشراء معاملة حيوية تقوم بواجب المجتمع ولا ضيـر فيها على بائع او مشترى و فيها تسهيل حاجات البشر من دون اجهاز على اموالهم ،واَمّا الربا فهو اجهاز على الأموال لا تسهيل حاجـة و المضطرون الذين يلتجأون اليه لا تتسهّل حاجاتهم الاّ بما هو اثقل عليهم و اين هذا من شراء الأنسان قوته و حاجاته الزمنية لتأميـن معيشته بسعر عادل نقدا كان ام نسيئة فمن هنا احلّ اللّه البيع وحـرّم الربا ٠

فمن بلغه هذا التحريم من اللّه فانتهى امتثالا لنهى اللّه فله مـا اكله من الربا قبل بلوغ التحريم له وامره راجع الى اللّه غدا فربّما عاقبـه لدركه حرمة هذا العمل عقلا وعدم امتناعه منه و ربّما عفى عنه اذا لـم يحصل له هذا الأدراك فأن العقل حجّة للّه على عباده ومن عاد الـى المعاملات الربوية بعد بلوغ النهى له فذاك هو الخالد فى النـار و المنظور بالخلود هنا طول زمان المكث اذا لم يكن المرابى مستحـلا

لأكله امّا اذا استحلّ فهو كافر و الكافر مخلّد .

* (يمحق اللّه الرّبا و يربى الصّدقات و اللّه لا يحبّ كلّ كفّار اثيم) *

المحق هو الأتلاف و الأهلاك و أرباه زاده و انماه و الكفّار والأثيم صيغتا مبالغة فى الكفر و تناول الأثم و منظور اللّه سبحانه ان المـــال المستفاد من الربا لا بقاء له لأنه مأخوذ بظلم و الظلم له دوره ثـــم يضمحلّ اما الصدقات فباعتبار انها لوجه اللّه و فى سبيل الاجتمـــاع فأنها تزكو و تزداد و الهدف الأسمى من محق الربا و زيادة الصدقات معنويات المطلب بان المرابى هالك عند اللّه و المتصدق زاك نامـــى الشخصية وقد اعتبر اللّه الملازم لفعل الربا مبالغا فى الكفر و ارتكـــاب المأثم حيث قال كل كفّار اثيم .

* (انّ الذ ين آمنوا و عملوا الصالحات و أقاموا الصلاة
و آتوا الزكاة لهم اجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم
ولا هـم يحزنـون) *

جاءت هذه الآية على سياق قوله تعالى و اللّه لا يحبّ كل كفّـار اثيم مقابلة لمفادها و تحقيقا لمعنى التناقض بينهما فان المؤمـن المعبّر عنه بالذ ين آمنوا فى مقابل الكافر السالف فى قوله كل كفّـار وعامل الصالحات فى مقابل الأثيم ·

و اقامة الصلاة و ايتاء الزكاة من الأعمال الصالحة و انّما خصّهـا بالذكر بعد ان عمّم بقوله و عملوا الصالحات تعزيزا لموقعهما عند اللّه سبحانه و كل واحد من خصال الايمان و عمل الأمور الصالحة و اقامـة الصلاة و ايتاء الزكوة له اجره لو نظر اليه بما هو وهو آمن عند اللّـه فرح بما يؤتيه ·

* (يا ايّها الذين آمنوا اتّقوا اللّه وذروا مابقى مـــن
الربا ان كنتم مؤمنين :فأن لم تفعلوا فأذ نـــــوا
بحرب من اللّه و رسوله وان تبتم فلكـــــم رؤس
اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) *

جاء فى مورد نزول الآية آثار منها ما عن الباقرعليه الســـلام ان الوليد بن المغيرة كان يربى فى الجاهلية وقد بقيت له بقايا على ثقيف فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها بعد ان اسلم فنزلت الآية و قيل نزلت فى بقية من الربا كانت للعباس و خالد بن الوليد و كانا شريكين فى الجاهلية يسلفان الربا و قيل نزلت فى اربعة اخوة من ثقيف وكانـــوا يداينون بنى المغيرة و كانوا يربون فلما ظهر النبى (ص) علـــــى الطائف و صالح ثقيفا اسلم هؤلاء الأخوة الأربعة فطلبوا ربا هم ممّـــن كانوا داينوهم و اختصموا الى عتاب بنى اسيد عامل رسول اللّه على مكه فكتب عتاب الى النبىّ (ص) بالقصة فنزلت الآية .

و مفادها خطاب للذين تلبّسوا بالأيمان ان يحذروا ما كانـــــوا يستبيحونه قبل تحريم الربا شرعا عليهم وان يصرفوا النظرعن بقيـــــة مالهم من الربا على الناس فانه سحت لا يستحلّه المؤمن فأن اصررتـــم ايّها الواردون فى دين الأسلام على ادامة معاملة الربا و اكل الأموال الربوية فأذنوا (يقال اذن اذا اعار سمعه للشىء) بمعنى اسمعـــوا وعوا و اعلموا بأنكم تحاربون من قبل اللّه و رسوله كما يحارب مانـــــع الزكوة و مستحلّ المآثم المنظورة فى دين الأسلام وان تبتم بعـــــد الأيمان عن معاملة الربا و اكل ماله فأنّما تستحقّون رؤس اموالكم التـــى داينتموها و ليس لكم وراء ذلكم شىء لا تظلمون الناس بأخذ المنافع

التى ضربتموها عليهم ولا تظلمون فى رؤس اموالكم بل تؤدى اليكم بالوفاء والتمام .

* (وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدّقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) *

هذه الآية من لواحق سابقتها وان كانت تعطى مفادا عاما يقول سبحانه واذا كان فى الذين تداينونهم انسان معسر ليس عنده ما يزيد عن نفقته الضرورية له ولأهله فلا يجوز لكم ان تضايقوه على الوفاء بل يلزمكم انظاره الى وقت يساره واذا كنتم اذكياء فى دينكم ودنياكم تصدّقتم عليه بما اعسر به وارحتم انفسكم من علوقها به وانتظار يساره وارحتموه هو ايضا بأن لا يبقى من ناحية دينكم مشوش الخاطر غير هادء البال .

* (واتّقوا يوما ترجعون فيه الى اللّه ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) *

قيل ان هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن وكانت خير ختام وخير وصيّة وصّى اللّه بها عباده فقال احذروا يوما تفدون على اللّه فيحاسبكم على كل ما عملتم من خير و شرّ و توفّى كلّ نفس ما صدر عنها وجاء منها ولا يبقى فيه المظلوم مظلوما بل تؤخذ ظلامته من طرفه كائنا من كان فأن العدل لا تخصيص فيه ولا تقييد ولا يوجد العدل المطلق الاّ عند الأنسان المتجرد عن جميع عواطفه وبالأحرى عند اللّه الكامل المطلق البعيد عن كافة التحيّزات .

* (يا ايّها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمّى فاكتبوه و ليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علّمه اللّه فليكتب و ليملل الذى عليه الحقّ و ليتق اللّه ربّه ولا يبخس منه شيئاً فأن كان الذى عليه الحقّ سفيها او ضعيفا او لا يستطيع ان يملّ هو فليملل وليّه بالعـدل و استشهدوا شهيدين من رجالكم فأن لم يكونا رجلين فرجل و امرءتان ممّن ترضون من الشهداء ان تضلّ احداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى أجله ذلكم اقسط عند اللّه و اقوم للشهادة و ادنى الاّ ترتابوا الاّ ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الاّ تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضارّ كاتب ولا شهيد فأن لم تفعلوا فأنه فسوق بكم و اتّقوا اللّه و يعلّمكم اللّه و اللّه بكل شىء عليـم) *

المراد بالمداينة هنا كون المعاملة تحتوى على ما يكون احد طرفيها متعلقا بالذمّة لا منقودا فيشمل ذلك بيع النسيئة و السلف و القرض والأملال باللام كالأملاء بالهمزة وهو ان يقرر انسان و يكتب آخر و البخس هو التنزّل عمّا يقتضيه الواقع و السفيه هو البالغ الضعيف العقل الفاسد الرأى لا لجنون بل لعدم نضج تجربى و الضلال هنا النسيان و الغفلة و المضارّة ادخال الضرر و الفسوق هو الأنحراف عن

الطاعة .

وهذه الآية وما بعدها ترشد البشر الى مافيه صلاحهم وانضباط حقوقهم واخذ الأحتياط من الخصومات المتوقعة الناشئة عن المساهلة فى احكام الأمور فياأيها الذين آمنوا بالله و بمقرراته و نظمه اذا تعامل بعضكم مع بعض فيما يكون فيه دين فلابدّ ان يكون للدين اجل محروس من الزيادة و النقصان حتى يكون حدا للتجاذب غدا بين من له الدين وعليه الدين و ان تدوّن محتويات المعاملة فى مكتوب لتكون مضامين الكتاب الواضحة مرجعا عند التنازع و حاكما فيصلا لدى التجاذب بين المتعاملين .

و الأمر فى قوله تعالى و ليكتب بينكم كاتب أمر ارشادى و ليس معناه ان المعاملة من غير كتابة تقع لاغية فاسدة ولا انّ من يعرف الكتابة و كان حاضر المعاملة مسؤل بذلك شرعا بل كل ذلك على الأحتياط بنفع المتعاملين و كتابة الكاتب عليهما بمعنى انهما هما اللذان يسعيان لتهيأة ذلك و تحصيله بأىّ لون يحصلانه و الكتابة بالعدل معناها ان لا يشذّ الكاتب فى كتابته عن متن الواقع الجارى بين الطرفين كمّا و كيفا .

والنهى فى قوله ولا يأب كاتب ان يكتب كما علّمه الله نهى ارشاد وتنزيه بمعنى ليكن عارف الكتابة طيّعا فى هذه المجالات لأنها من المنافع العامّة المستمرة الوقوع المقترنة بأغلب الناس فى مجارى الحياة ومعنى كما علّمه الله هو ما سلف من قوله تعالى و ليكتب بينكم كاتب بالعدل .

و ليملل الذى عليه الحقّ لان املائه اقرار و اعتراف فى حقّ نفسه للغير فيكون املاؤه حجة عليه لطرفه و ليتق الله ربّه فى خصوصيات

ما جرت المعاملة عليه ولا يبخس من حقّ من له الدين شيئا هذا فيما لو كانت المعاملة مع البالغ العاقل الرشيد و امّا اذا كان طـرف المعاملة سفيها فقام و ليّه الشرعى مقامه فى عقد المعاملة او كان طرف المعاملة ضعيفا بصغر او بكبر فى السنّ يلحقه بحكم الأطفال فى عدم التوجه و كون اعماله فى حاجة الى ولىّ يقوم بها اولا يستطيع ان يملى لعدم معرفة فيه و حصر فى قوله او عجز او حبسة فى لسانه فليملل وليّه بالعدل و الولاية فى السفه و الصغر و الجنون شرعية و فى الأخرس و محتبس اللسان و نظيرهما من البالغين العاقلين غير السفهاء لا معنى لها الاّ بطور الوكالة ٠

و استشهدوا فضلا عن الكتابة شاهدين من رجالكم فكلمة رجال معناها الذكور البالغون و اضافتها الى كاف الخطاب معناها ان يكون الشهود مسلمين لا كفرة لان الخطاب مع الذين آمنوا فأن لم يتفق فى الشهود اى حضّار الواقعة وجود رجلين فان رجلا وامرئتين يسدّون مسدّهما بجعل المرئتين بمنزلة رجل واحد ومن وصف الذين تشهدونهم ان يكونوا مرضيين عندكم اى مورد اطمئنان ٠

و جملة ان تضلّ احداهما تنسبك بمصدر يكون مفعولا من اجله معللا لا شتراط امرئتين مكان رجل واحد بكون احديهما تذكّر الأخرى اذا نسيت مورد الشهادة او خصوصياتها يعنى انهما يتعاونان بذاكرتيهما على ما تحمّلا من مسؤلية الشهادة و يستفاد من الآية ان المرءة اضغف ذاكرة من الرجل وقد يعتبر ذلك من الوجهة الطبيعية بنقصان وزن مخ المرءة عن وزن مخ الرجل كما هو مقرر فى العلم الطبيعى ٠

ولا يمتنع الشهداء اى حضّار الواقعة عن قبول تحمّل الشهادة

بأعارة النظر دقيقا فى محتوياتها فان فى ذلك تعاونا على البرّ والتقوى، ويا اطراف المعاملة لا يأخذكم سأم و ملل من استقصاء ما تعاملتم عليه من خصوصيات ربّما يكون تخلّف بعضها داعيا الى المخاصمة تكون بينكم فان ذلك اقرب الى العدل و ابعد عن الظلم و اقوم للشهادة بمعنى ان الشهادة مع ملاحظة خصوصيات الواقعة و الوقوف عليها تكون قائمة لا عوج فيها .

و ادنى الاّ ترتابوا يعنى ان مراعاة دقائق المعاملة تبعد بكم عن الشك غدا من بعضكم فى بعض و تقرب بكم الى اليقين ، هذا كلّه اذا كان فى المعاملة طرف دين الى اجل امّا اذا كانت المعاملة تجارة حاضرة منقودة بثمنها و مثمنها فليس عليكم جناح الاّ تدوّنوها فى سند لانّ صاحب الثمن يأخذ ثمنه حاضرا و صاحب المثمن كذلك فليس فى البين من له دين ومن عليه دين .

فأن قيل اذا كانت التجارة حاضرة دائرة بين طرفين هذا يعطى الثمن و ذاك يدفع المثمن فى الوقت فأيّ داع لكتابة محتوياتها فى مكتوب فان نفى الجناح عن عدم الكتابة لا يعدم بقاء المجال لها بل رجحانها قلنا لا يزال الداعى موجودا حتى مع التجارة الحاضرة الدائرة و ذلك بالنسبة الى احتمال ذكر خصوصيات حين المعاملة فى الثمن او المثمن صدرت منهما او من احدهما و بعد التقابض ادّعيا او ادعى احدهما تخلّف ما ذكر من الخصوصية المشترطة فتكون الكتابة حاجزا بينهما عن التداعى و هذا هو بنفسه مأخذ الشهادة فى قوله تعالى واشهدوا اذا تبايعتم .

ولا يضارّ مدغمة فكّ ادغامها تارة يكون بقولنا ولا يضارر (بكسر الراء) واخرى يكون ولا يضارر (بفتح الراء) و معنى ذلك على الأوّل

انه يلزم الكاتب و الشاهد ان لا يتحيّزا الى جانب فيدخلا ضررا غير مستحق على احد طرفى المعاملة فان ذلك خيانة غير جائزة و معناه على الثانى عدم جواز اعنات اطراف المعاملة بمن يعرف الكتابة او يستطيع تحمّل الشهادة و لكنه فى شغل شاغل عن ذلك فان ادخال الضرر على الكاتب او الشاهد ليس بصحيح وقد يؤل ذلك الى الحرمة الشرعية و لذلك قال سبحانه فان لم تفعلوا يعنى امّا ان يكون الكاتب او الشاهد ادخل من طريق كتابته او شهادته ضررا على بعض اطراف المعاملة غير مستحق عليه او ان اطراف المعاملة ادخلوا ضررا على من زاحموه على الكتابة لهم او تحمّل الشهادة لمعاملتهم ،فأنه فسوق اى انحراف عن طاعة الله وما يريده من النظام العادل و اتقوا الله فى معاملاتكم و كافة اعمالكم و الله سبحانه فى قوانينه هذه يعلّمكم ما فيه صلاحكم و بقاء صداقاتكم و الله بكل شىء ممّا يعود و يقود لمصلحة الحياة سواء كانت فى الدنيا ام فى الأخرى خبير عليم مطلع لا يفوت عليه شىء .

* (وان كنتم على سفر و لم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة
فأن امن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن امانتــه
و ليتق الله ربّه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمهـــا
فأنه آثم قلبه و الله بما تعملون عليـــم) *

هذه الآية ذيل لسابقتها و تمام لها بمعنى انكم ايّهـــا المتعاملون بدين اذا وقعت معاملتكم فى اثناء سفر و لم تجدوا كاتبــا يكتب لكم و نفى الكاتب يعمّ نفى وسائل الكتابة من قلم او مـداد او رقّ يكتب عليه فليأخذ من له الدين رهنا ممّن عليه الدين و وصف مقبوضـــة وصف توضيحى لأنه لا معنى للتوثق بالرهن وهو موجود عند الراهـــن الذى عليه الدين و تحت قبضته و صرف اجراء صيغة العقد على رهـــن شىء لا يرفع محذور مماطله من عليه الحقّ اذا فالقبض شرط طبيعـــى فى الرهن .

فأن لم يوجد رهن او وجد و اكتفى من له الدين بذمة طرفـــه ايمانا به فليؤد الذى ائتمن امانته وهو الدين الذى عليه فانه صـــار يحمل عنوانين عنوانه الأولى بكونه امّا ثمنا لمتاع حاضر او مثمنا لثمـــن حاضر او قرضا وعنوانه الثانوى بكون من له الدين لم يكتب به كتابا و لم يأخذ عليه رهنا و تركه على امانة الله و ذمة طرفه .

و ليتق الله هذا المؤتمن ثم عقّب تعالى هذا الموضوع العـــام البلوى و بملاكه نظائره بحرمة كتمان الشهادة على من يملكها و يتحملها و ان من يكتم الشهادة فانه مجرم فى ضميره و لبّه فان اعراض القلـــب عن اداء مطلب يقف باللسان و سائر الجوارح عن العمل فلا تعمـــل ولا تثمر و الله بما تعملون من خير و شرّ عليم .

* (لله ما فى السموات وما فى الأرض و ان تبدوا ما فى انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء و يعذّب من يشاء و الله على كل شيء قدير) *

قوله تعالى لله ما فى السموات و الأرض رصيد لما بعده فان جميع ما فى الأكوان ملك لله تعالى لانه مبدعه من غير مؤازرة ، ثم الأنسان على ما تحت جوانحه تكاليف و على جوارحه تكاليف و تكليف ما تحت الجوانح هى العقائد و تكليف الجوارح هى الأعمال ولا شك ان المراد بما تبديه النفس او تخفيه هو ما يخصّ عالم العقائد التى هى محلّه فلا اثر لاختلاف المفسرين هنا و استشكالهم ان الله كيف يحاسب على ما تخفيه النفس فى حال ان الحساب على اعمال الجوارح و جوابه ما عرفته و امّا غفرانه لمن يشاء و تعذيبه لمن يشاء فقد اسلفنا مكررا ان الأشائة هنا ليست بمعنى التشهى حتى يشكل على الحكيم بأنّ الذى عذبته كالذى غفرت له فما جهة تعذيب ذاك و العفو عن هذا بل الأشائة لابدّ و ان تكون عن رصيد وهو ان الذى يغفر له لم يكن خبيث الضمير مظلم الباطن و الذى يعذبه خبيث فاسد لا منفذ للخير فيه اصلا و هذا المعنى كثير الانتشار فى الناس فكم من فرق بين كافر و كافر و فاسق و فاسق فى مجارى قلوبهم ودفائن نفوسهم و الله على كل شيء مقدور قادر نعم لا يعمل قدرته الاّ لحكمة .

* (آمن الرسول بما انزل اليه من ربّه و المؤمنون كلّ
آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرّق بين
احد من رسله و قالوا سمعنا و اطعنا غفرانك
ربّنا و اليك المصير : لا يكلّف الله نفسا الاّ وسعها
لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربّنا لا تؤاخذنا
ان نسينا او أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا اصرا
كما حملته على الذين من قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا
مالا طاقة لنا به و اعف عنّا و اغفر لنا و ارحمنا
انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) *

هاتان الآيتان ختام سورة البقرة و فيها من المعانى الشريفة ما جعلها مسكا يتضوع وقد ورد فى فضلها الشىء الكثير من الأحاديث و الأخبار فمبتدأ الآية مفاده ان الرسالة السماوية لها من الفروق على الرسالات الأرضية و المبادىء الحزبية و الآراء البشرية ان رسل الله مؤمنون حقا بما يدعون اليه و اغلب اصحاب المبادىء الأرضية هدفهم من آرائهم المتاجرة و تحصيل الحطام و الجاه بين الناس و ليقال من ذا قالها .

و هكذا المؤمنون برسالة السماء مؤمنون واقعيّون من تخوم قلوبهم بخلاف المؤمنين برسالات الأرض فانهم انما ينساقون معها لبوادر نفسية عقيمة الأنتاج من ناحية الواقع وقد برهنت القضايا الخارجيه على ان الخدمات الأجتماعية فى عامة شؤنها انّما قام بها المؤمنون بشرايع السماء لا اهل الأهواء .

ولكمال ايمان المؤمنين بالله آمنوا بكل مادعاهم الى الأيمان به وان

لم يروه لعقيدتهم الراسخة بالداعى و انه لم يدعهم الاّ الى واقع لا شكّ فيه فآمنوا بالملائكة و ان لم يروهم و بجميع ما انزل على انبيائه و ان لم يجدوا من ذلك شيئا بالمرّة و هكذا آمنوا بجميع من ارسل وان لم يشاهدوا سوى نبيّهم الذى عاصروه و قالوا لعراقة ايمانهم وبعدهم عن التعصبات الفارغة لا نفرّق بين رسول و رسول و قالوا سمعنا اوامرك و نواهيك و اطعنا بكل رحابة ٠

و مع كل السمع و الطاعة فأننا نطلب غفرانك عمّا لعلّه صدر منّا و نحن عازبون عنه ولا يشكل ان عزوب الذهن لا مؤاخذة معه فأن البادره السيئه فى نفسها لا تعدم اثرها من الواقع و ان صدرت خطأ او غفلة او نسيانا فطلب المغفرة لأجل محو ذلك الأثر و هذا مطلب فى نفسه معقول و شريف فقول من قال انه لا مجال لدعاء المؤمنين بأن لا يؤاخذهم ربّهم على النسيان و الخطأ فى حال انّهما ليسا مورد مؤاخذة شرعا صدر عن غير تبحر فى الموضوع ٠

و اليك مصيرنا ومعادنا يا ربّ فنرغب ان يكون هذا المصير سالما من كل هناة ،لا يكلّف اللّه نفسا الاّ وسعها ، يجوز ان يكون هذا القول مقولا للمؤمنين بمفاد انّنا و ان كنّا نعلم من وجهة منطقية ان المولى لا يكلف عبده فوق طاقته اذا كان حكيما و اللّه المولى احكم الحكماء و من تكليف فوق الطاقة التكليف بالشىء حالة نسيانه وحالة ضلال النفس عنه لكننا نعلم ايضا ان العمل حالة النسيان و الخطأ و نظير هاتين الحالتين له اثره الوضعى و الأثر الوضعى اذا كان سيئا اثر سوءه فى نفس المولى و ان لم يعاقب عليه فنحن اذا دعونا بالمغفرة فى هذه الأحوال و اردنا منه عدم المؤاخذة فانّما نريد ان نغسل اثر ما خلّفه النسيان و الخطأ من بادرة سيئة لها حزازتها فى النفس ٠

كما يجوز ان يكون هذا القول من الله سبحانه اظهره لعباده حتى حتى يكون منطق الشرع مساوقا لمنطق العقل و ان للأنسان ما كسب من نفع وعليه ما اكتسب من مضرّة و ظاهر الكسب و الأكتساب ما كان عن ارادة جدّية وعلم بالأقدام ٠

ربّنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ،و كما اشعرنا قبل قليل ان المنطق حاكم بعدم جواز التكليف فوق الطاقة والشرع تابع لحكومته حيث قال لا يكلّف الله نفسا الاّ وسعها و هكذا المنطق لا يرى مسوغا فى التكليف الحرجى لما فيه من الأعنات بالناس و تابعه الشرع على ذلك بلسان ما جعل عليكم فى الدين من حرج و هنا يأتينا الاشكال من قبل قوله تعالى كما حملته على الذين من قبلنا فأن القول و ان كان من مقولهم لا من مقوله تعالى لكن سياق الآية فى شأنهم قاض باعتبارهم فى انفسهم و فى اقوالهم ايضا ٠

و الجواب انه سبحانه لم يكن كلّف الذين من قبلهم تكاليف شاقة ابتدائية و لكن ربما حدث لهم التكليف الشاق عقوبة على خلاف يرتكبونه كعبدة العجل حيث حاولوا طريقا يخرج بهم من الكفر بعد الأيمان و من ارتكاب المعاصى العظيمة بعد مشاهدة الآيات الجليلة فكلفوا بأن يقتلوا انفسهم تطهيرا لها من قذر الكفر ٠

و الأصر هو العبأ الثقيل الذى يحبس صاحبه عن الحركة من ثقله ،و هذا هو معنى الحرج فى التكاليف وعلى غرار ما سلف من هذا المعنى يحمل قوله تعالى ؛ربّنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به ،اى و نسألك ان تسدّ فى وجوهنا ابواب المفاسد حتى لا نلجها فيحلّ علينا غضبك فتكلفنا بتكاليف هى فوق وسعنا نكالا بنا ،و اعف عنّا و اغفر لنا ،مالا نتخطره ممّا بدر منّا ،و ارحمنا ،اى اجعلنا مشمولين

لرحمتك لا لعدلك ، انت مولانا ، اى خالقنا و مالكنا وحدب المالك على المملوك معروف ، فانصرنا على القوم الكافرين ، بالغلبة عليهم حتى نظهر دينك والأيمان بك ولا نتقى احدا او نتوارى منه ، جعلنا الله مـــــن مصاديق هاتين الآيتين .

الى هنا تمّ تفسير سورتى الفاتحة و البقرة مـــــن
كتاب التفسير لكتاب الله المنير على يد مؤلفـه
محمّد بن محمّد طــه الحويزى الكرمى
و يتلوه الجزء الثانى و اوّلـــه
تفسيـــر ســــورة
آل عمــــران

* (فهرست الجزء الأول من كتاب التفسير) *

الصفحة	العنوان
١	تقديم الكتاب
٢	ماهو القرآن وماهى ركائز عظمته
٥	سورة فاتحة الكتاب
١٥	سورة البقرة
١٦	معنى ذلك الكتاب لا ريب فيه
١٧	معنى الايمان بالغيب
٢٠	الايمان بما انزل الى نبىّ الاسلام و من قبله
٢٣	الختم على القلب و السمع
٢٥	بيان حال النفاق و المنافقين
٤١	لزوم عبادة الرّب الخالق
٤٤	دعوة الناس الى تحدّى القرآن
٤٨	جزاء المؤمنين الصالحين
٥٠	ضرب المثل لاستحضار الذهن
٥٣	نقض العهد و قطيعة الرحم
٥٤	الاستدلال على الجاحدين بأبسط البراهين
٥٦	خلقة آدم
٦٤	تذكير الله لبنىّ اسرائيل بالوفاء بعهده
٦٦	الزام اهل الكتاب بمتابعة القرآن
٧١	بيان الحوادث المقترنة ببنى اسرائيل
٩٤	عتوّ اليهود و قساوتهم

الصفحة	العنوان
١١٣	بنو اسرائيل و ما اقترن بهم
١٢٥	هاروت و ماروت
١٣٠	اليهود و ظلمة بواطنهم
١٣٣	النسخ و معناه
١٣٥	حقد اهل الكتاب على المسلمين
١٣٧	تضليل اهل الكتاب بعضهم لبعض
١٤٢	لزوم احترام المساجد
١٤٤	ليس لذات الله جهة
١٤٩	مهمة الأنبياء الانذار و التبشير
١٥٥	الكلمات التى اتمها سبحانه لأبراهيم
١٥٨	كون البيت مرجعا للناس و أمنا
١٦١	ابراهيم و اسماعيل
١٧١	دعوه الله ابراهيم للاسلام
١٧٦	دعوة الله الناس كافة الى الايمان بقاطبة رسله
١٨٠	الحقائق هى التى يلزم اتباعها لا العناوين
١٨٣	تحويل القبلة الى الكعبة
١٨٦	الأمة المسلمة هى الأمة الوسط
١٩٦	شيء من احكام القبلة
٢٠٠	وجوب ذكر الله و شكره
٢٠٢	ليس الشهيد بميت
٢٠٥	السعى بين الصفا و المروة
٢٠٧	لزوم الاصحار بالحقيقة

الصفحة	العنوان
۲۱۳	تهديد الله للمشركين
۲۱۸	مضلّة التقليد
۲۲۱	ذکر جملة من المحرمات
۲۲۶	الفرق بين الانتهازىّ و الواقعىّ
۲۳۱	شروط القصاص
۲۳۸	جرمة تبديل الوصية
۲۴۰	الصوم و فضله
۲۴۷	اجابة الله لدعاء الداعى بشروط
۲۵۲	اكل المال بالباطل و حرمة الرشا
۲۵۴	معنى دخول البيوت من ابوابها
۲۵۸	الحرمات قصاص
۲۶۴	الحج اشهر معلومات
۲۶۶	الوقوفان
۲۶۹	ايام التشريق
۲۷۵	تهديد الله لمن تمّت عليه الحجّة
۲۷۸	مهمّة الأنبياء
۲۸۶	هل فى الشهر الحرام قتال
۲۸۹	الخمر و الميسر
۲۹۱	الكفاءة شرط فى النكاح
۲۹۳	الحيض و جملة من احكامه
۲۹۶	الأيمان اللاغية
۲۹۸	بعض من احكام الطلاق

الصفحة	العنوان
٣٠٨	فى الأرضاع و ألحضانة
٣١١	عدّة الوفاة
٣١٥	فى الأمتاع
٣١٧	الصلاة الوسطى
٣٢٠	آية منسوخة
٣٢٣	طالوت و جالوت
٣٣١	تبشير اللّه لنبيّه بالانتصار
٣٣٥	آية الكرسى
٣٣٩	محاجّة ابراهيم للنمرود
٣٤١	اعجاز اللّه سبحانه
٣٤٨	اتباع الأحسان بالمنّ و الأذى
٣٥١	الجنان يصيبها الأعصار
٣٥٦	الانفاقات و النذور
٣٦٠	الانفاق حسن على كل حال
٣٦٥	الربا و مضارّه
٣٦٧	آية الدين
٣٧٣	التكاليف الجوانحية و الجوارحية
٣٧٧	الأيمان الخالص من الشوائب

خیابان چهار مردان
فارسی-عربی
قم
پاساژ صاحب الزمان
6952

VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
JULY - AUG 1994
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 057496992